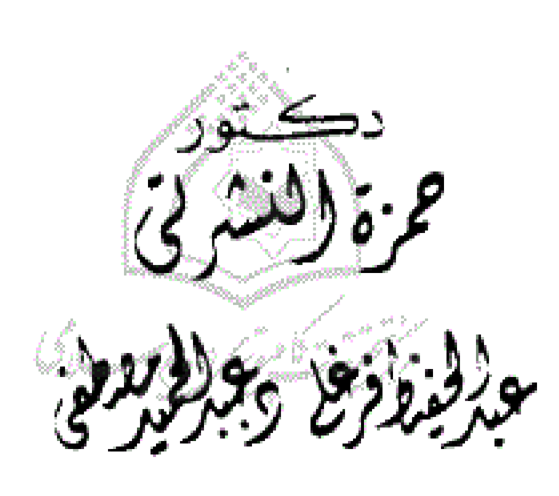
سلسلة القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد السادس

سلسلة
القصص القرآنى



المجلد السادس

مع تحياتنا للقارىء الكريم نود ان نقول له :

لقد اصطحبناه فى رحلتنا المباركة « سلسلة القصص القرآنى » عبرالمجلدات الخمس الماضية إلى رحاب الأنبياء السابقين ، من لدن آدم ـ عليه السلام أبى البشر ـ إلى عيسى ـ عليه السلام .

وفى أثناء هذه الرحلة التى استنشقنا فيها عبير التاريخ الصحيح لهذه الأحقاب من الزمن ، لم نترك ماتشير إليه من دلائل وعظات ، ومايستدعيه الأمر من الحديث حول الأحداث الهامة والأماكن المقدسة والموضوعات الحيوية التى كانت تثير التساؤلات وتستدعى التفسيرات كحديثنا عن الكعبة ، وزمزم ، والجن ، والسحر والسحرة وغير ذلك .

ونحن بمشيئة الله نستأنف رحلتنا فى هذه السلسلة التى استقبلها القراء الكرام أعظم استقبال . . ابتداء من المجلد السادس . . الى رحاب السيرة النبوية المطهرة . . لنقدمها الى القراء الكرام فى ضوء القرآن الكريم الذى أنزله الله هدى ونورا على قلب صاحب هذه السيرة العطرة .

وسوف يجد القارىء الكريم فيها ـ بمشيئة الله وتوفيقه ـ عرضا جديدا لجوانب السيرة الكريمة نرجو أن يفى بما يحتاج إليه .

ونظرا لضخامة موضوع السيرة العطرة وأهميتها ، رأينا أن نقدم بين يديها حديثا وافيا عن زمن الفترة الذى يكاد يكون مجهولا لايعرف الناس عنه ـ عدا المتخصصين منهم ـ إلا قليلا . . وسوف نتعرض ـ إن شاء الله ـ فى هذا الحديث لأديان العرب فى الجاهلية وعاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم .

ونتعرض لذكر الذين شغلهم التطلع لدين صحيح غير ذلك الذى غرق فيه الجاهليون وقدسوا فى ظله المخلوق . . واتخذوا من الأصنام الهة يعبدونها من دون الله . ونتعرض للمبشرات السابقة والتى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم ونتحدث عن دلائل النبوة وارهاصاتها وعن النسب النبوى الشريف .

وستتناول الموضوعات التالية :
احداث المولد والنشأة ، والأحداث الهامة التى شهدها النبى صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة .

وسوف نتحدث - ان شاء الله تعالى - عن الوحى والبعثة .
وستتحدث كذلك عن الدعوة ، والأسس التى قامت عليها ، وكفاح النبى - صلى الله عليه وسلم - فى تبليغها ، وماتعرض له من أذى شديد ونصب كبير .

وقد نتعرض - إن شاء الله - فى أثناء ذلك لأحاديث خاصة عما يهم القراء معرفته كعالم الروح ، وعالم الملائكة وغير ذلك .

وسيأتى الحديث بعد ذلك عن الهجرة وماصاحبها من خوارق ، وعن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى المدينة ، والتنظيم الجديد الذى وضعه فيها ، والعلاقات الجديدة التى طرأت بين الناس وسيستدعى ذلك الحديث عن النظم الاقتصادية والزراعية فى الإسلام فى ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وسيجد القارىء ان شاء الله أحاديث عن المهاجرين ، والمنافقين ، واليهود ، وغير ذلك .

ثم يأتى بعد ذلك ان شاء الله - حديث عن الغزوات والوفود والكتب والعلاقات بين الدولة الاسلامية والدول الأخرى .

وستكون ان شاء الله تعالى أحاديث تتناول حياة الصحابة رضوان الله عليهم فيمن وردت عنهم اشارات فى القرآن الكريم . نحن نرجو الله ان يوفقنا فى الوفاء بما تتطلبه هذه السيرة من عرض لمختلف الجوانب .
والله ولى التوفيق .

أَهْلُ الفَتْرَة

- ضرورة إرسال الرسل .
- لماذا يوجد الفساد والشر مع إرسال الرسل .
- خبر خالد بن سنان العبسي .
- ديانات العرب في الجاهلية .
- القرآن يتحدث عن جهل المشركين .
- من نساء العرب الخالدات .
- المتحنفون العقلاء .
- أمية بن أبي الصلت .



أهل الفترة

قال الله - تعالى -

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

تشير هذه الآية الكريمة إلى زمن الفترة الذى خلا من الرسل تقريباً بين رسالة عيسى - عليه السلام - ورسالة النبى محمد ﷺ

وقد اختلف الرواة حول تقدير هذه الفترة

فابن قتيبة يقدرها بستمائة وعشرين عاماً . .

وذكر ابن كثير عن قتادة أن مدة الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام كانت ستمائة سنة ، وروى عن قتادة أيضاً أنها خمسمائة وستون سنة وقال بعضهم : إنها خمسمائة وأربعون سنة . . وقال غيرهم غير ذلك . .

وأخرج ابن سعد فى كتاب الطبقات عن ابن عباس قال : كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة ولم يكن بينهما فترة فإنه أرسل بينهما ألف نبى من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم وكان بين ميلاد عيسى ومحمد ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة بعث فى أولها ثلاثة أنبياء كما قال الله تعالى : « **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث** »

وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة وثلاثين سنة تقريباً . .

---

(١) المائدة ١٩

والذى يعنينا من ذلك ليس مقدار المدة . . فهى إن طالت أو قصرت تدل على شيء واحد هو ما أشار إليه القرآن الكريم من أن حجة المحتجين بعدم وجود رسول يحذر وينذر ويبشر بعد تلك المدة حجة داحضة . . ذلك أن النذير والبشير جاء بالذكر والكتاب المنير ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد . .

هل من رسل فى تلك الفترة ؟ :

الصحيح أن هذه الفترة لم يكن فيها رسل ، وقد يكون فيها أنبياء . . أو قد يكون فيها بعض الأولياء الصالحين الذين يعتبرون معالم للناس يهتدون بها ويسيرون على ضوئها .

فالله جلت قدرته لايترك الناس هملا بدون راع يرعاهم أو قائد يقودهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم أما عدم وجود رسول فقد ثبت بالحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال ـ قال رسول الله ـ ﷺ : « إن أولى الناس بابن مريم لأنا لأنه لا نبى بينى وبينه »[2]

ضـــرورة الرســـــل :

وعدل الله يقضى بألا يؤاخذ قوماً دون أن يبعث لهم من ينذرهم ويبشرهم قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[3]

---

(٢) البخارى : كتاب الأنبياء جـ ٤ ص ٢٠٣

(٣) الاسراء ١٥

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية : أى لم نترك الخلق سدى ، بل أرسلنا إليهم الرسل ، وفى هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافاً للمعتزلة بأن العقل يُقَبِّحُ ويُحَسِّن ويبيح ويحظر ولكن إذا صح هذا فى أمور الدنيا فإنه لا يصح فى أمور الآخرة .

والذى يدل على أن لكل أمة رسولاً قوله ـ تعالى ـ

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ ﴾ (٤)

ونقل القرطبى عن ابن عطية قوله : والذى يعطيه النظر أن بعثة آدم ـ عليه السلام ـ بالتوحيد وبث المعتقدات فى بنيه ، مع نصب الأدلة على الصانع مع سلامة الفطر توجب على كل أحد من العالم اتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح ـ عليه السلام ـ بعد غرق الكفار . .

وهذا يعنى أن الرسل يوقظون العقول ، ويحفزون الهمم للتفكير ومعرفة ما ينفع ويضر . . وليس العقل هو كل شىء . .

إن إرسال الرسل يقطع حجة الكفار مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٥)

على أن ارسال الرسل يبطل حجة المعترضين . . ولا يترك لهم مجالاً للتنصل والاعتذار إذا حاولوا ذلك . .

---

(٤) الملك ٨ ، ٩

(٥) النساء ١٦٥

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (٦)

ولعل هذا يثير تساؤلاً هو إذا كان العدل الإلهى يقتضى إرسال الرسول فما شأن أهل الفترة ؟

والإجابة على هذا نهتدى إليها من خلال أخبار الرواة الذين يقولون إن أهل الفترة عرفوا بعض التعاليم الدينية . . التى لا تعد رسالات بالمدلول الواسع لمعنى الرسالة . . ولكنها إنذارات وتوجيهات جاءت على لسان بعض من نصبهم الله فى كونه ليكونوا معالم هداية ومنارات إرشاد . .

ذكر الزمخشرى فى تفسيره قال : كان بين عيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهما ـ خمسمائة وستون سنة وقيل ستمائة . . ونقل عن الكلبى قوله : كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى ، وبين عيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهما ـ أربعة أنبياء ثلاثة من بنى اسرائيل ، وواحد من العرب خالد بن سنان العبسى

وسنتحدث بمشيئة الله عن بعض هؤلاء الذين أشار اليهم الرواة ممن كانوا فى هذه الفترة التى كانت بين عيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ

هل يمكن حصول الهداية بغير نبى ؟ :

إن الذى يسوغ وجود هداة فى زمن الفترة هو حكمة الله التى تقتضى ألا

---

(٦) طه ١٣٤

يعطل الكون من علة خلقه ، وقد خلق الله الكون لعبادته قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [٧]

والعبادة لا تكون إلا بإخلاص كما يقول :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ [٨]

ولا يتأتى ذلك إلا بارشاد منه سبحانه وتعالى . .

هب أن الانسان اهتدى بفطرته إلى الله ، فكيف يعرف وسائل التقرب إليه والتأدب معه والحصول على رضاه وثوابه والبعد عما يغضبه وينهى عنه ؟ إن ذلك لا يتم إلا بشريعة يأتى بها رسول مرسل أو نبى هاد . .

وقد أشار إلى ذلك الإمام محمد عبده حيث قال : أقام الحق سبحانه من بين أفراد خلقه مرشدين هادين ، وميزهم بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيدهم زيادة على ذلك بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامع ويذل الجامح ، ويقتنع بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتدع عن غيه ، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة للأذهان عنه ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل

---

(٧) تفسير الكشاف حـ١ ص ٦١٨ - سورة المائدة .

(٨) البينة ٥

والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم والرضا بمبادئهم وقيمهم التى تلقوها من ربهم .

يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، ومأراد أن يعْلَموه من شئون ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الأنبياء والمرسلون . فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص ، نعمة أتمها الله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [9]

لماذا يوجد الفساد والشر مع ارسال الرسل ؟ :

وقد ذكر الامام محمد عبده اعتراضاً أورده بعضهم وَرَدَّ عليه ـ يقول ذلك الاعتراض : إذا كانت بعثة الرسل ضرورة تدعو إليها الحاجة لإصلاح البشرية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، بعيدين عن السعادة يتكالبون على الدنيا ويتحاربون فيها ، ويطغى القوى على الضعيف ، ويغتال الغنى الفقير ؟

ملأ الطمع حياتهم ، وسادت الأثرة فيما بينهم ، وضاعت النصفة من طريقهم ، وتملك الشر أنفسهم ، وهاهو ذا الدين الذى جاءت به الرسل لم يتخذوه سبيلاً إلى الأمن والسلام ، ولكنهم تحاربوا به واختلفوا حوله وتفرقت كلمتهم عليه ، وتشتت طرقهم فيه . . « فما هذه الدعوى وماهذا الأثر » ؟

وقد أجاب الشيخ عن هذا قائلاً :

---

(٩) انظر رسالة التوحيد ص ١٠٧

نعم كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء ، وانقضاء عهدهم ، ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تابعيهم وإلا فقل لنا : أى نبى لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم ، ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها فى أفرادها وجملتها ؟ (١٠)

فالعيب إذن عيب الناس لا عيب الرسل ، والتقصير فى التطبيق لا فى المنهج ، ولو سار الناس على تعاليم رسلهم وانتهجوا نهج أنبيائهم لسعدوا وأسعدوا ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (١١)

وصدق نبيه إذ يقول : « تركت فيكم ماإن تمسكتم به لا تضلوا أبداً كتاب الله وسنتى »

أنبيـــاء الفتـــرة :

والفترة بمعنى السكون ، تقول : فتر الشيء إذا سكن ، أو بمعنى الانقطاع فتقول : فتر عن الشيء إذا انقطع عنه ، وأصابته فترة أى انقطاع . وتقول : فتر الماء إذا انقطع عما كان عليه من السخونة إلى البرودة .

---

(١٠) رسالة التوحيد ص ١٢٤

(١١) الاسراء ٩

واستعير اللفظ فى اللحظ فتقول : ذات لحظ فاتر ، أى منقطعة عن حدة النظر .

وفتور البدن كفتور الماء ، انتقل من الحرارة إلى البرودة . .
وتستعمل المادة فى القياس فتكسر الفاء ، فيقال الفِتر : مابين السبابة إلى الابهام اذا فتحتها .
واذا استعمل هذا المعنى فيما نحن بصدده قصد به مضى مدة بعد عيسى ـ عليه السلام ـ حتى جاء محمد ﷺ

وتطلق « الفترة » التى وردت فى الآية الكريمة على المدة الزمنية التى مرت بين رفع المسيح حتى جاء النبى ﷺ برسالته التى أثارت الوجود وأسعدت البشرية .
ويقول كثير من المفسرين : إن هذه الفترة عمرت ببعض الأنبياء . . ولكنهم كانوا أنبياء فى قومهم ـ هم أصحاب رسالات خاصة . . كهؤلاء الرسل الذين أرسلوا إلى أنطاكية وقد سبق أن ذكرنا قصتهم التى وردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ

﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ »[١٢]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصتهم ..

وهؤلاء الرسل هم - عند بعض المفسرين - شمعون ويوحنا وحبيب النجار ..

وعند بعضهم سمعان ويحيى وحبيب النجار ، وعند آخرين : صادق وصدوق وشلوم [١٣]

ويعد هؤلاء من أنبياء بنى إسرائيل ..

وقد يكونون رسلاً من الله ، ولكنهم عند كثير من المفسرين رسل لعيسى - عليه السلام - أرسلهم إلى أهل أنطاكية ، وكان قد أرسل حوارييه إلى أماكن متفرقة يدعون إلى الله بإذن من الله فكأنهم رسل الله .

حديث المسعودى عن الفترة :

ذكر المسعودى فى مروج الذهب [١٤] حديثاً عن الفترة جاء فيه :

---

(١٢) سورة يس ١٣ : ٢٧

(١٣) تفسير القرطبى - سورة يس ط دار الشعب

(١٤) جـ ١ ص ٤٧

وقد كان بين المسيح ومحمد ﷺ فى الفترة جماعة من أهل التوحيد ممن يقرون بالبعث وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ومنهم من رأى غير ذلك . .

وذكر المسعودى منهم : حنظلة بن صفوان ، وهو صاحب الرس ، وقد ذكرنا قصته ، وذا القرنين وقد ذكرنا قصته ، وأهل الكهف ، وقد ذكرنا قصتهم ، وجرجيس الذى قال عنه :

كان فى الفترة بعد المسيح ـ عليه السلام ـ وقد أدرك بعض الحواريين ، فأرسله الله إلى أحد ملوك الموصل ، فدعاه الى الله عز وجل ، فقتله ، فأحياه الله تعالى وبعثه إليه ثانياً ، فقتله ، فأحياه الله تعالى فأمر الملك بتقطيعه وإحراقه وإذرائه فى دجلة ، فأهلك الله ـ عز وجل ـ هذا الملك ، وجميع أهل مملكته ممن اتبعه على حسب ما وردت به الأخبار من أهل الكتاب الذين نجوا بسبب إيمانهم .

وقد ذكر الطبرى قصة جرجيس فى كتابه (١٥) وفيها مبالغات أضربنا عن ذكرها . .

ولكنا نفرد حديثاً عن خالد بن سنان ، ونورد خبره كما جاء فى البداية والنهاية لابن كثير ، كاملاً مع التعليق عليه بما يبين وجه الصواب فيه .

خبر خالد بن سنان العبسى (١٦) :

كان خالد بن سنان العبسى فى زمن الفترة ، وقد زعم بعضهم أنه

---

(١٥) تاريخ الأمم والملوك حـ ٢ ص ٤٨

(١٦) البداية والنهاية حـ ٢ ص ٢١١ تحت عنوان : باب ذكر جماعة مشهورين كانوا فى الجاهلية .

كان نبياً ـ والله أعلم ـ

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التسترى ، حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور الرازى ، حدثنا محمد بن الصلت ، حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبى ـ ﷺ فبسط لها ثوبه وقال : بنت نبى ضيعه قومه . .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى بن منصور عن محمد ابن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس ، قال : ذكر خالد ابن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : ذاك نبى ضيعه قومه

ثم قال : ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، وكان قيس بن الربيع ثقة فى نفسه إلا أنه كان ردىء الحفظ وكان له ابن يُدْخِل فى أحاديثه ما ليس منها ، ـ والله أعلم ـ

قال البزار : وقد رواه الثورى عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلاً

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا المعلى بن مهدى الموصلى قال : حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إنى أطفىء عنكم نار الحرتين فقال له رجل من قومه[17] : والله ياخالد ما قلت لنا قط إلا حقاً ، فما شأنك وشأن نار الحرتين التى تزعم أنك تطفئها ؟

---

(١٧) هو عمارة بن زياد كما صرح به الحاكم

فخرج خالد ومعه أناس [١٨] من قومه فيهم عمارة بن زياد ، فأتوها ، فإذا هى تخرج من شق جبل ، فخط لهم خالد ، مكانا فأجلسهم فيه وقال لهم : إن أبطأت عليكم فلا تدعونى باسمى .

فَخَرَجَتْ [١٩] كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً ، فاستقبلها خالد يضربها بعصاه ويردها حتى دخل معها الشق ، فأبطأ عليهم ، فقال لهم عمارة بن زياد : والله إن صاحبكم لو كان حياً لكان قد خرج إليكم بعد ، قالوا : فادعوه باسمه ، قال : فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه ، فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه ، فقال : ألم أنهكم أن تدعونى باسمى ؟ فقد والله قتلتمونى ، فادفنونى ، فإذا مرت بكم الحُمُرُ فيها حمار أبتر فانبشونى [٢٠] فإنكم تجدوننى حياً .

فدفنوه ، فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر ، فقلنا انبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه ، فقال لهم عمارة : لا تنبشوه ، لا والله لا تتحدث مضر أنَّا ننبش موتانا ، وكان خالد قد قال لهم : إن فى عكن [٢١] امرأته لوحين فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما فإنكم ستجدون ما تسألون عنه ، قال : ولا تمسهما حائض . .

---

(١٨) عدتهم ثلاثون كما فى المستدرك .

(١٩) النار

(٢٠) أى فانبشوا قبرى . والحمار الابتر : مقطوع الذنب .

(٢١) عكن : العكن والاعكان : الاطواء فى البطن من السمن ، وعكن الدرع ماثنى منها ، يقال : درع ذات عكن اذا كانت واسعة .

فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنها ، فأخرجتها إليهم وهى حائض ، فذهب ما فيها من علم .

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان أتى النبى ﷺ فقال : مرحبا بابن أخى . .

هذا السياق الوارد عن ابن عباس ليس فيه أنه كان نبياً ، وعليه فهو لا يتفق مع الأحاديث المرسلة التى فيها أنه نبى . .
والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات ، فإنه إن كان فى زمن الفترة فقد ثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ : ان أولى الناس بعيسى بن مريم أنا لأنه ليس بينى وبينه نبى ، وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾ (٢٢)

وقد قال غير واحد من العلماء إن الله تعالى لم يبعث بعد اسماعيل نبياً فى العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء ، الذى دعا به إبراهيم الخليل بانى الكعبة المكرمة ، التى جعلها الله قبلة لأهل الأرض جميعاً ، وقد بشرت به الأنبياء أممهم ، حتى كان آخر من بشر به عيسى بن مريم - عليه السلام -

وبهذا المسلك بعينه يُرَدُّ ما ذكره السهيلى وغيره عن وجود نبى من العرب يقال له شعيب بن مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين ونبى آخر

---

(٢٢) السجدة ٣

يسمى حنظلة بن صفوان وقد ذكر أن العرب كذبوهما ، فسلط الله على العرب « بختنصر » فنال منهم من القتل والسبى نحو ما نال من بنى إسرائيل ، وذلك فى زمن معد بن عدنان .

والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير ـ والله أعلم ـ [٢٣]

وقد آثرنا نقل حديث ابن كثير بتمامه لما فيه من التوضيح والبيان . .

وقد أوردت دائرة المعارف الاسلامية ترجمة لخالد بن سنان وذكرت المصادر التى يرجع اليها فى ذلك ومن بينها ما كتبه الجاحظ عنه وقد رجح الجاحظ أنه ليس نبياً

ومن الذين ذكروا قصة خالد بن سنان . . الدميرى فى كتابه حياة الحيوان ، كما أشار اليها ابن عربى فى كتابه فصوص الحكم وذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى ، وابن حجر فى كتابه الإصابة .

رئاب الشنى :

قال المسعودى : وممن كان فى الفترة ـ أى من المؤمنين الموحدين ـ رئاب الشنى وكان من عبد القيس ، ثم من شن ـ وهى قبيلة عربية ـ

وكان على دين المسيح ابن مريم ـ عليه السلام ـ قبل مبعث النبى ﷺ

وقد ذكر أنه كان من خير أهل هذه الفترة وكان ذا ورع وتقوى

ديانات العرب فى الجاهلية :

كان العرب فى الجاهلية يدينون بديانات شتى . .

---

(٢٣) انتهى كلام ابن كثير .

ونذكر في ذلك ما ورد في كتاب المستطرف للأبشيهى قال :

كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة . .

وكانت اليهودية في نمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة . .

وكانت المجوسية في بنى تميم منهم زرارة بن عدى وابنه ، وكان قد تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسياً . .

وكانت عبادة الأصنام والأوثان في كثير من قبائل العرب ، وكانت بنو حنيفة قد اتخذوا في الجاهلية صنماً من حيس (عجوة) فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه :

أقول ـ وفي ذلك قال شاعر يهجوهم :

أكـــلــت حـــنيفة ربهـــا عــــام التقحــــم والمجــاعة

لم يحـــــذروا من ربهـــــم سوء العواقــب والتباعــة

قال المرحوم محمد هاشم عطية :[24] كانت الديانات الشائعة في الجزيرة قبيل ظهور الإسلام بعد عبادة الأوثان النصرانية واليهودية في اليمن والشام والبحرين وبعض بلاد الجزيرة ، وكان هناك الموحدون على ملة إبراهيم .

أما عباد الأوثان فكانوا يقولون بالخالق قال تعالى في حقهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[25]

أول من أدخل الأصنام :

وقد سبق أن ذكرنا أن أول من غيَّر الحنيفية ديانة ابراهيم ـ عليه السلام ـ

---

(٢٤) الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ص ٤٨ .

(٢٥) العنكبوت ٦١

هو عمرو بن لحى الخزاعى وذلك أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فأعجبه ذلك ، فقال : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها ؟

قالوا : هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا . .
فقال : أعطونى منها صنماً أسير به إلى أرض العربْ فيعبدونه . .
فأعطوه صنماً يقال له هُبَل .

فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، فأطاعوه (٢٦) لما سبق عليهم وعليه من الشقاء . .

وهذا ما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾ (٢٧)

لقد أطاع الخزاعيون زعيمهم ، وتابعهم على ذلك من حولهم ، فتحولت ساحة الكعبة المشرفة التى أعاد بناءها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى معرض لتماثيل مشوهة ينحتونها بأيديهم ، ثم يسجدون لها من دون الله .

وقال الأبشيهى : إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل ، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حتى ضاقت عليهم فتفرقوا فى البلاد ، وما من أحد ظعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا حوله كطوافهم بالكعبة ، وأفضى

---

(٢٦) المستطرف من كل فن مستظرف حـ ٢ ص ٧٨ .
(٢٧) الاحزاب ٦٧ ، ٦٨

ذلك إلى عبادة ما استحسنوه من الحجارة ، حتى مر الزمن ودار دورته فنسيت الحنيفية وعبدت الأوثان من دون الله . .

أســـاف ونائلة :

وكان أساف ونائلة رجلاً وامرأة متحابين وغير متزوجين ، جمع بينهما الحج ، ووجدا خلوة حول البيت ففجر أساف بنائلة فى الحرم ، فمسخهما الله حجرين ، ليكونا عبرة لمن يعتبر . . وقد نقلهما الناس حول الصفا والمروة ليعتبر بهما الناس .

ولكن الشيطان زين للناس عبادتهما فعبدوهما بعد أن نسوا قصتهما بمرور الزمن . . ونقلوهما قريباً من زمزم . .

وكان العرب يقصدون هذه الأصنام من شتى البقاع وينحرون حولها . . وكأن البيت لم يقصد إلا لهذه الأصنام ، ولم يطف به إلا من أجلها . .

وأصبحت مكة سوقاً لتجارة الأصنام ، يذهب الحجاج إلى الحرم ، ثم يعودون وفى رحل كل منهم صنم ابتاعه من تجار الأصنام ، وربما ساوم فى شرائه ، وربما حط من ثمنه درهماً أو درهمين . . فواعجباً لهذا العقل الذى يرضى صاحبه أن يسجد لقطعة من الحجر عملت فى نحتها فأس نحات فصنعت منها تمثالاً كيفما اتفق . . حتى ولو كان هذا التمثال آية فى الجمال والفن كما يزعم المضللون . . كيف يسوغ ذلك عبادته وهو جماد لا يحس وأصم لا يسمع وأعمى لا يبصر ؟!

حتى ولو كان مخلوقاً يسمع ويبصر ويحس ونصب من نفسه إلها كما ادعى ذلك فرعون ونمروذ ومن على شاكلتهما ، كيف يستسيغ العاقل أن يعبد بشراً مثله لا فرق بينهما إلا أن أحدهما تعالى وتغطرس على الناس ؟

وربما لم يكن لذلك الشخص من مقومات التفوق ما يكفل له ذلك التعالى .. بل ربما كان أدنى من كثير من الناس فى المناقب والمواهب ..

العرب يحكمون الأصنام فى حياتهم ؟

اتخذ العرب الأصنام فى دورهم فإذا أرادوا سفراً تمسحوا بها قبل أن يركبوا وكأنهم يستأذنونها فى ذلك ، واذا أرادوا حرباً قربوا لها ونحروا عندها حتى ينتصروا فى حربهم ، واذا أرادوا أمراً هاماً صنعوا لها مثل ذلك ، واذا عادوا من سفرهم كان أول شيء يبدأون به قبل دخول منازلهم الطواف حولها والتمسح بها . يفعلون ذلك مع أنها صماء لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع . إنها كما وصفها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٢٨)

وانهمكوا فى عبادة الأصنام انهماكاً كبيراً ، وأصبح لكل قبيلة من القبائل صنم تعرف به ويعرف بها .

كانت لقريش وبنى كنانة العُزّى ، وكان حجابها بنى شيبة .

وكان لثقيف بالطائف « اللات » ، وكان حجابها بنى مغيث

وكان للأوس والخزرج مناة ..

وكان لغيرهم هبل ، وربما كان هبل معبوداً للجميع ، بدليل أن أبا

---

(٢٨) الأعراف ١٩٥ .

سفيان فى غزوة أحد بعد أن استشهد عدد من المسلمين فيها ، وظن المشركون أنهم كسبوا الجولة قال بصوت مسموع : اعل هبل . .

ولكن عمر بن الخطاب بادره بالرد الذى أفحمه فقال : بل الله أعلى وأعز . .

وجاء فى التعليق على لفظ الجلالة « الله » فى دائرة المعارف الاسلامية مايلى :

كانت مذاهب العرب فى الجاهلية كمايأتى :

طائفة منهم أنكروا الخالق ، وهم الدهريون ، وطائفة قالوا بالخالق وأنكروا البعث والنشور وإليهم يشير الحق بقوله :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨ ﴾ (٢٩)

وطائفة قالوا بالخالق وبالدار الآخرة وأنكروا الرسل وبعث الأجسام واليهم يشير الحق بقوله :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ٩٤ ﴾ (٣٠)

وهذه الطائفة تنقسم إلى قسمين فريق منهم يعتقدون بوجود الملائكة ، وهم الذين قالوا : « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين »

وفريق لايعتقدون بوجود الملائكة ، بل يعتقدون بالأصنام يعبدونها على

---

(٢٩) يس ٧٨ .

(٣٠) الاسراء ٩٤

أنها وسائل وشفعاء عند الله وهم دهماء العرب ، لكل قبيلة أو عدة قبائل صنم خاص هو معبودهم الذى يلجئون إليه . .

كان « وَدّ » بقبيلة كلب وهو بدومة الجندل

وكان « سواع » لقبيلة هذيل . .

وكان « يغوث » لقبيلة مذحج ولقبائل من اليمن

وكان « يعوق » لقبيلة همدان

وكان « نسر » لذى الكلاع بأرض حمير

وكان « اللات » لثقيف بالطائف

وكان « العزى » لقريش وغطفان وقوم من بنى سليم

وكان « مناة » صخرة لهذيل وخزاعة

وكان لهم جميعاً صنم هو أعظم أصنامهم يسمونه « هبل » وضعوه على ظهر الكعبة

وكان لبنى ملكان من كنانة صنم يقال له « سعد » وهو الذى قال فيه قائلهم

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا   فشتتنا سعد فما نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة   من الأرض لايدعو لغى ولارشد (٣١)

سبب تسمية اللات :

روى السهيلى فى سبب تسمية الصنم المشهور « اللات » بهذا الاسم خبراً طريفاً قال فيه :

كان عمرو بن لحى حين غلبت خزاعة على البيت قد اتخذته العرب رباً

---

(٣١) دائرة المعارف الاسلامية حـ ٤ ص ٢٧٠ .

لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم ، فربما نحر عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة ، حتى ليقال : إنه اللاَّت ، أى الذى يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى صخرة اللات .

ويقال : إن الذى كان يلت السويق كان رجلاً من ثقيف ، فلما مات، قال لهم عمرو : إنه لم يمت ولكن دخل الصخرة ، ثم أمرهم عمرو بعبادتها ، وأن يبنوا فوقها بيتاً يسمى بيت اللات ـ ويقال : إن أمره وأمر ولده دام على هذا بمكة ثلاثمائة سنة ، فلما هلك سميت الصخرة : اللات ـ بتخفيف التاء ، واتخذت صنماً يعبد وكان عمرو بن لحى قد ابتدع غير بدعة الأصنام بدعة الإشراك فى التلبية فى الحج .

كانت التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك

فبينما كان عمرو يلبى بذلك إذ تمثل له الشيطان فى صورة شيخ ، فلما قال عمرو : لبيك لا شريك لك ، قال له الشيخ : إلا شريكاً هو لك . .

فأنكر عمرو ذلك وقال : ما هذا ؟

فقال له الشيخ : قل : تملكه وما ملك ، فلا بأس بهذا

فقالها عمرو ، فدانت بها العرب [٣٢]

وأغلب الظن أن هذه الأصنام لم تكن حكراً على عابديها ، ولكنها كانت مشاعاً . . لقد تعارفوا على أن يعبدوا هذه الأصنام ، وتعارفت كل قبيلة على أن تسمى صنمها باسم تمزيه عن بقية الأصنام الأخرى . ولكن ذلك لا يمنع أن تُجل القبائل الأخرى أصنام بعضها . . وقد يتحاربون ويقتل

---

(٣٢) الروض الأنف جـ ١ ص ١٠٣ .

بعضهم بعضاً ولكنهم لا يحطمون أصنام القبيلة المغلوبة . .

فانظر كيف يراعون حرمة الحجر ، ولا يراعون حرمة الإنسان الذى رفع الله منزلته عن سائر المخلوقات وسخر له مافى الأرض والسموات ؟

لقد كانت عبادة الأصنام نكسة لعقل الانسان ، وردة به عن الطريق السوى والمنهج السليم . .

أصنام قوم نوح عند العرب :

وهناك مسميات أخرى لأصنام كانوا يعبدونها هى • يغوث ويعوق ونسر ، وقد ورد ذكر هذه الأصنام فى قصة نوح ، وأنها كانت أسماء أصنام قومه ، ولكنها أسماء توارثها من جاءوا بعدهم ، وقال بعضهم فى تعليل هذه الأسماء إنها كانت أسماء لأولاد آدم ـ عليه السلام ـ وكانوا أتقياء عباداً ، فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً ، فجاءهم الشيطان ، وحَسَّنَ لهم أن يصوروا صورته فى قبلة مسجدهم ليذكروه إذا نظروا إليه ، فكرهوا ذلك ، فقال : اجعلوه فى مؤخرة المسجد ، ففعلوا ، ومات الآخر ففعلوا مثلما فعلوا مع أخيه السابق ، ومات الثالث ، ففعلوا مثل ذلك ، ثم تركوا عبادة الله إلى عبادة هذه التماثيل .

وجاءهم نوح فنهاهم عن ذلك فعصوه ، وكان ماكان من أمر الطوفان الذى أغرق الأرض ، وغرقت هذه الأصنام فيما غرق .

وبعد أن انكشفت الأرض بانحسار الطوفان ، وتقدم الزمن ، جاء الشيطان فأخرج هذه الأصنام فعبدها المشركون

وربما شكك البعض فى هذا الخبر ولكن الذى لاشك فيه أن العرب عبدوا الأصنام وكان من بين أصنامهم ما يسمى بهذه الأسماء ، فقد يكونون أعادوا

الأسماء القديمة وخلعوها على أصنامهم ، والأسماء لا تموت بموت أصحابها الأولين ، ولكنها تتكرر إلى ماشاء الله . .

وقد صور العرب « وَدّاً » على صورة رجل ، وصوروا « سواع » على صورة امرأة ، وصوروا « يغوث » على صورة أسد ، وصوروا « يعوق » على صورة فرس ، وصوروا « نسراً » على صورة نسر(٣٣)

وذكر المسعودى أن العرب لم يكونوا قاصرين فى ديانتهم على عبادة الأوثان ، بل منهم من كان يعبد الملائكة ، ويزعم أنها بنات الله ، وكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله ، وهؤلاء هم الذين أخبر الله عنه بقوله :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾(٣٤)

وقوله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾(٣٥)

وكان منهم أيضاً من لا يؤمن بشىء وهم الدهريون الذين يقولون : « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر » حكى القرآن عنهم ذلك بقوله :

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٣٦)

---

(٣٣) المرجع السابق ص ٧٩ .

(٣٤) النحل ٥٧ .

(٣٥) النجم ١٩ : ٢٢ .

(٣٦) الجاثية ٢٤ .

القرآن يتحدث عن جهلهم :

وقد استدعت عبادة العرب للأوثان أن يجعلوا لها نصيباً فيما يرزقهم الله ، زين ذلك لهم الشيطان وسول لهم ان يقسموا ما يخرجونه من أموالهم قسمين ، أحدهما جعلوه لله ، والاخر جعلوه للأصنام ، فإذا ذهب الجزء الذى جعلوه للأصنام فى الإنفاق عليها وعلى سدنتها واحتاجوا الى نفقة أخرى فى ذلك الطريق ، أخذوا مما جعلوه لله وأضافوه إلى الأصنام .

أما اذا نفد ماكانوا جعلوه لله بالانفاق فى وسائله كإكرام الضيف أو الانفاق على الفقراء والمساكين واحتاجوا إلى نفقة جديدة فى هذا الميدان فإنهم لا يأخذون مما جعلوه لأصنامهم شيئاً . . زاعمين أن الله مستغن أما الأصنام فمحتاجة .

وهذا يدل على جهل مطبق وضلال كبير ، ذلك أنهم أولا قد جعلوا لله شركاء - جل الله عن ذلك وتعالى علواً كبيراً - وثانياً قد جاروا فى القسمة - واعتذروا عن الجور بالامعان فى الضلال ثالثاً . .

ولذلك قال سعيد بن جبير راوياً عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : من أراد أن يعلم جهل كفار العرب فليقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام .

لقد وصف الله الشرك بأنه ظلم عظيم ، وذلك على لسان لقمان الحكيم حين أوصى ابنه قائلاً :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣٧)

---

(٣٧) لقمان ١٣

وكان الشرك ظلماً لأنه اعتداء على حق الله ، وخلع صفات الله على صفات غيره فكأنه أعطى حق من يستحق إلى ما لا يستحق . فما بالك إذا كان ما لا يستحق لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ولا يعقل ولا يميز ؟

حكى القرطبى قال : روى أن رجلاً قال لعمرو بن العاص : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ؟ فقال له عمرو : تلك عقول كادها باريها .

فهذا الذى أخبر الله به من جهل العرب قبل الإسلام أمر أذهبه الاسلام ، وأبطله الله ببعثة الرسول ﷺ فكان من الظاهر أن نميته حتى لا يظهر ، وننساه حتى لا يذكر ، إلا أن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ذكره بنصه وأورده بشرحه ، وكانت الحكمة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أن قضاءه قد سبق ، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينفعان إلى يوم القيامة .

وكما زين الشيطان للكفار عبادة الأوثان حتى جعلوا جزءاً من أرزاقهم لها زين لهم كذلك قتل أولادهم ، وسياق الحديث عن وأد البنات .

وزين لهم الشيطان كذلك أن يخصصوا بعض الأنعام والحرث لأصنامهم ، يقصرونها على سدنة هذه الأصنام وخدامها ، كما كانوا يقصرون على الأصنام أنواعاً معينة هى البحيرة والوصيلة والحام والسائبة .

أما البحيرة فهى الناقة التى تنتج خمسة أبطن يكون آخرها ذكراً ، كانوا يبحرون أذنها أى يشقونها ويعفون ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، وقال الشافعى كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثاً بحرت أذنها فحرمت أى حرم ركوبها ودرها . .

أما السائبة فهى الناقة التى تسيب فلا تحبس عن رعى ولا ماء وقيل : هى البعير ينذره الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة فيسيب أى لا يحبس عن رعى ولا ماء ولا يركبه أحد قال الشاعر :

وسائبة لله تنمى تشكرا   إن الله عافاها عامراً ومجاشعاً

وقيل : هى التى تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر فعند ذلك لا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف . .

والوصيلة : هى الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى . . وقيل هى الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً و أنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

والحامى هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة ، قالوا : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء .

وقد أبطل الحق سبحانه وتعالى كل ذلك فقال :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ ﴾ (٣٨)

وزين لهم الشيطان كذلك أن ألبان بعض الأنعام تكون خالصة للذكور دون الاناث ، فان مات منها شىء اشترك فى أكله الذكور والإناث وقيل : إن الشاة كانت إذا ولدت ذكراً ذبحوه وخصوا به الرجال دون النساء ، وإن ولدت أنثى لم يذبحوها

---

(٣٨) المائدة ١٠٣ .

وقد قصت علينا الآيات التالية ذلك .. قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾ (٣٩)

ما تثيره هذه الآيات من قضايا :

وتثير هذه الآيات الكريمة بعض القضايا التي يجب التفكير فيها .

منها :

★ **تفضيل الذكور على الإناث عند العرب** وقد توارث الناس عنهم هذا الاتجاه ، ومازال كثير من الناس لديهم هذه العقدة ، عقدة استقبال الأنثى

---

(٣٩) الانعام ١٣٦ : ١٤٠ .

بالامتعاض ، واستقبال الذكر بالفرح والسرور ، وبخاصة البيئات الريفية والأمية .

ومن العجب أن هذه العقدة سرت إلى الأمهات والنساء أيضاً ، مع أن المفروض أن يكون العكس ، وذلك بأن تهش المرأة للأنثى كما تهش للمولود الذكر سواء بسواء . . ولكن الذى يحدث أن المرأة إذا وضعت تجهمت إذا قيل لها إنها وضعت أنثى ويسارع من حولها إلى التسرية عنها كأنها ارتكبت جرماً ، فإذا كان المولود ذكراً أسرعوا إلى تهنئتها والاحتفاء بها ، وكأنهم يشكرونها على أنها استطاعت أن تقوم بالواجب وتقدم للأسرة الفارس المنتظر .

والقرآن الكريم نعى على العرب القدامى سوء استقبالهم للإناث وقال فى ذلك :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ ﴾ (٤٠)

وهو تصوير دقيق لحال هؤلاء الذين كانوا لا يتورعون عن إصدار الحكم على هذه الطفلة البريئة بدفنها حية عقاباً لها على أنها فرضت نفسها على هؤلاء الزاهدين فى رؤيتها الذين لا يشرفون بانضمامها إلى أفراد الأسرة .

والإسلام لا ينظر إلى البنت هذه النظرة ، وقد قدمها الله على الذكر فى معرض المنة على الناس بالذرية فقال :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا

---

(٤٠) النحل ٥٨ ، ٥٩ .

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٤١)

ولعل فى هاتين الآيتين رداً على ما يراد من إجبار الناس على تحديد النسل خوفاً من الفقر والحاجة ، فإن الذرية هبة من الله وفى يده ـ سبحانه ـ رزقهم والذى يرفض هبة الله جاحد للنعمة ، مكذب بهذا الكتاب فاقد للثقة فى الله .

وليلتفت الجازعون والجازعات من ولادة البنات إلى أن الله جلت قدرته قدم هبة الإناث على هبة الذكور فى الآيتين ، لعلهم يتذكرون أن المفاضلة فى الذرية ليست بالجنس ، ولكن بما يُمْنَحهُ المولود ذكراً كان أو أنثى من قدرات وملكات ومواهب ، وكم من أنثى فاقت الذكور عقلاً وإيماناً وحسن تصرف .

من نساء العرب الخالدات بلقيس والزباء :

والتاريخ العربى بصفة عامة ، والتاريخ الاسلامى بصفة خاصة حافل بمواقف نسائية خالدة ربما قصر دونها كثير من الرجال . .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

هذه بلقيس ملكة سبأ استطاعت أن تتبوأ مكاناً فى التاريخ سجله القرآن الكريم بما يشهد لها بالفخر والاعتزاز لبنات جنسها ، وقد كان موقفها مع سليمان ـ عليه السلام ـ آية فى الذكاء والحكمة وحسن التصرف وحسن القيادة وبعد النظر فقد آمنت بالله واليوم الآخر ، واستطاعت أن تأخذ بيد

---

(٤١) الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

شعبها إلى هذا الطريق القويم الأمثل الذى ضمن لها وله السعادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة .

هذه واحدة . .

ومثل آخر نراه فى الزباء ابنة عمرو بن ظرب ملكة الشام ، وكانت مدائنها على شاطىء الفرات من الجانب الشرقى والغربى واستطاعت كما يقول ـ المسعودى ـ أن تسقف الفرات وتجعل فوقه أبنية تجرى من تحتها الأنهار ، ووصلت إلى مكانة عظيمة فى زمانها .

ولها قصة سجلت بأقلام المؤرخين حافلة بالحكم والأمثال مع جذيمة بن الأبرش ، وهى تدل على بعد نظرها وإحكام تدبيرها وقوة ملكها . .

حرقة بنت النعمان :

ومن النساء العربيات الخالدات حرقة بنت النعمان بن المنذر ، وكانت قد بلغت فى ترف الملك وعز السلطان فى ظل أبيها مَلِك الحيرة مبلغاً عظيماً .

وظلت كذلك حتى دالت دولتهم وفُتِحت الحيرة فى عهد الاسلام بقيادة سعد بن أبى وقاص ، فوفدت عليه فى جمع من قومها وجواريها عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات تطلب صلته فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد ، فقال : أفيكن حرقة ؟

قالت : هأنذا

قال : أنت حرقة ؟

قالت : نعم ، فما تكرارك فى استفهامى ؟

ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، تنتقل بأهلها

انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ، كنا ملوك هذا العصر يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر ، فصدَّع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر ياسعد إنه ليس يأتى قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة ليس نُعرف

فأف لِدُنْيَا لا يدُوم نعيمها   تقلب تارات بنا وتصـــــرف

فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إن للدهـر صــولة فاحــذرنها   لا تبيتن قد أمنت الدهـــورا

قد يبيت الفتى معافىً فيردى   ولقـد كـان آمنا مســـــرورا

فبينما هى واقفة بين يدى سعد إذ دخل عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان زوارا لأبيها فى الجاهلية .

فلما نظر إليها قال : أنت حرقة ؟

قالت : نعم

قال : فما دهمك فأذهب محمودات شيمك ، وأين تتابع نعمتك وسطوات نقمتك ؟

فقالت : ياعمرو ، ان للدهر لسطوات وعثرات وعبرات ، تعثر بالملوك وأبنائهم ، فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلهم بعد عزة ، إن هذا لأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره ، فأكرمها سعد وأحسن جائزتها ، فلما أرادت فراقه ، قالت : حتى أحييك بتحية ملوكنا بعضهم لبعض : لانزع الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليه .

ثم خرجت من عنده فلقيها نساء المدينة فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : حاط لى ذمتى ، وأكرم وجهى ، إنما يكرم الكريم الكريم (٤٢)

نساء أخـــر

ومن خير مانقدمه لتتأسى به نساء عصرنا هذه القدوة الطيبة ، وهى وان كانت من العصر الجاهلى إلا أن فيها ما أقره الإسلام واحتفل به . .

خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس فزوجه إياها ، فلما كانت ليلة زفافها خلت بها أمها وقالت لها توصيها :

أى بنية، إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا .

أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة .

وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواضع عينه وأنفه فلا تقع عينيه منك على قبيح ، ولايشم منك إلا أطيب ريح ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة وأما السابعة والثامنة فالمحافظة على ماله ، والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا ، ولاتفشين له سرا ، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره وان أفشيت سره لم تأمنى غدره .

---

(٤٢) مروج الذهب للمسعودى حـ ١ ص ٣٦٢ .

ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا [٤٣]

هؤلاء النساء وغيرهن كثير فى العصر الجاهلى كن زينة عصرهن ، وهن يَفُقن كثيرا من الرجال الذين ليست لهم مثل عقول هؤلاء النساء ولاحسن تفكيرهن . فمالهؤلاء الذين يحزنون على إنجاب البنات ! ولم لاتكون الوليدة التى قدمت على كره من أبيها مثل من تقدمنها من نجيبات النساء وعقيلات العرب اللاتى تزينت بآرائهن وسلوكهن المجالس ؟ .

فإذا ماجئنا إلى العصر الإسلامى وجدنا الدرر والجواهر ، ورأينا النساء اللاتى طلعن فى أفق الاسلام نجوما زاهرة بل شموسا باهرة . من أمثال خديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت الصديق ، وفاطمة بنت محمد ، وأسماء بنت أبى بكر ، ونسيبة بنت كعب ، والربيع بنت معوذ ، وحفصة بنت عمر ، وتماضر بنت عمرو ابن الشريد الملقبة بالخنساء . . وكثيرات غير هؤلاء كانت لهن فى تاريخ الإسلام صفحات مشرقات ، وقد جاء الاسلام ليرفع من شأن المرأة ويأخذ بيدها لتمضى مع الرجل فى بناء أركان الدولة الإسلامية التى يعضدها الرجال والنساء معا . .

نقول هذا بمناسبة كتاب ظهر أخيرا يسلب عن المرأة الإسلامية كفاءتها ، ولايذكر للاسلام فضلا فى تفوقها بل يزعم أن هذا التفوق ليس من صنع الإسلام بل هو من صنع المرأة نفسها ويتحدى قائلا : هاتوا لى امرأة نبغت فى ظل الإسلام نبوغ الزباء أو نبوغ بلقيس . .

وقد فات هذا الكاتب أن الاسلام هو الذى رفع عن المرأة وصمة الوأد وأتاح لها فرصة المشاركة البناءة فى نهضة الأمة ، ولم يجحد لها ماتقوم به من عمل خير . .

---

(٤٣) العقد الفريد حـ ٣ ص ٢١٠ .

بل قدم لها عليه أعظم الثواب قال تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٤٤)

وقال :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤٥)

ولم يدخر الإسلام وسعا فى أن يعطى المرأة حقها المشروع الذى أتاحه الله لها من ميراث أو إعلان رأى أو رغبة فى الجهاد أو غير ذلك من الحقوق التى كانت محرومة منها فى الجاهلية . .

ومن القضايا التى تثيرها الآيات التى تقدمت من سورة الأنعام مايلى :

ذكر اسم الله على الذبائح :

لقد حرم الإسلام أكل الذبائح التى لايسمى الله عند ذبحها ، أو يذكر

---

(٤٤) آل عمران ١٩٥ .

(٤٥) النساء ٣٢ .

اسم غير اسمه عليها كما كان يفعل أهل الجاهلية حين يذكرون أسماء أصنامهم كاللات والعزى وغيرهما ، قال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤٦)

وعلة تحريم ذلك ـ كما يقول صاحب تفسير المنار ـ أنه من عبادة غير الله ـ تعالى ـ فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه ، وهو ما يجب إنكاره لا إقراره .

وحرم الإسلام كذلك ماذبح على النصب ، والنصب حجارة كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها وينضحون منها الدم على جدران الكعبة .

فلما جاء الإسلام قال المسلمون : يارسول الله ، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه . فنزل قوله تعالى :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٤٧)

وقد أوجب الإسلام أن يذكر الذابح اسم الله بصوت مسموع عند ذبح ذبيحته .

وربما تفرع على ذلك سؤال عما يستورد من لحوم لانعرف هل ذكر اسم الله عليها عند ذبحها أم لا ؟ وقد أفتى العلماء فى ذلك بأن هذه اللحوم تحل

---

(٤٦) المائدة (٣٠)

(٤٧) الحج ٣٧ .

بذكر اسم الله عند تناولها ، وقد أباح الله لنا ذبائح أهل الكتاب بقوله :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (٤٨)

المتحنفون العقلاء :

على الرغم من شيوع عبادة الأصنام فى العصر الجاهلى فقد كان هناك عقلاء يعملون عقولهم فى الاهتداء إلى الله ، وقد هالهم ماعليه أمر قريش من وثنية وعبادة أصنام .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ، وكان ذلك عيدا لهم ، فى كل سنة .

فانفرد من هذا الجمع أربعة نفر وتناجوا فيما بينهم ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم على بعض .

وهؤلاء الأربعة هم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصى بن كلاب بن مرة . . وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر . . وكانت أمه

---

(٤٨) المائدة ٥

أميمة بنت عبدالمطلب . . وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى بن قصي . . وزيد بن عمرو بن نفيل . .

فقال بعضهم لبعض : لقد علمتم والله أن قومكم ليسوا على شيء . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم . ماذا يفعل حجر لايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع ؟ .

ياقوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم . وسنعرض ماكان من أمر كل منهم .

ورقة بن نوفل :

فأما ورقة بن نوفل ، فاستحكم فى النصرانية ، وحصل على الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب . وهو ابن عم خديجة - رضى الله عنها - وقد ذهبت إليه حين جاء الوحى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - لتستخبره عما حدث للنبى عليه الصلاة والسلام .

فلما سمع ورقة ما أخبرته به قال : قدوس ، قدوس ، والذى نفسي بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فطمأنته . .

ثم إن النبى - صلى الله عليه وسلم - انطلق يوما إلى الكعبة يطوف بها كعادته فلقيه ورقة ، فقال له ورقة : يابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره النبى - صلى الله عليه وسلم .

فقال ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولَتُكَذَّبنَّ ولَتُؤْذَين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت يومك لأنصرن الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى رأس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه فقبله .

ومات ورقة قبل بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل عنه إنه مات مسلما وانه فى الجنة .

ويقال : إنه عاش حتى بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورأى قريشا تعذب بلالا وهو يقول : أحد ، فقال ورقة فى ذلك :

سبحان ذى العريش سبحاناً نعوذ به   وقيل قد سبح الجودى والجمد

سخر كل ماتحت السماء له   لاينبغى أن يناوى ملكه أحد

لاشىء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الاله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه   والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال حين سمع قول زيد بن عمرو يدعو للتوحيد :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وانما   تجنبت تنورا من النار حاميا

بدينك ربا ليس رب كمثلة   وتركك جنان الجبال كما هيا

أقول اذا مازرت أرضا مخوفة   حنانيك لاتظهر على الاعاديا

حنانيك ان الجن كانت رجاءهم   وأنت إلهى ربنا ورجائيا

أدين لرب يستجيب ولا أرى   أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

أقول إذا صليت فى كل بيعة   تباركت قد أكثرت باسمك داعيا [٤٩]

---

(٤٩) مهذب الأغانى جـ ٢ ص ٢٣٧ لمحمد الخضرى .

عثمان بن الحويرث :

أما عثمان بن الحويرث فإنه قدم على قيصر ملك الروم ، وتنصر وأقام عنده وحسنت منزلته لديه ، حتى أصبحت له كلمة مسموعة عنده . .

وقد طلب عثمان من قيصر الروم أن يفرض على تجار قريش الذين يذهبون الى الشام خرجا يؤدونه إليه ، وتطوع هو للقيام بهذه المهمة ، وهَمَّ قيصر بالاستجابة له فى هذا الأمر . .

وتصادف ان خرج سعيد بن العاص بن أمية ، وأبوذئب هشام بن شعبة إلى الشام متاجرين ، فأُخذا وحبسا ، ومات أبوذئب فى السجن ، واستطاع سعيد أن يتخلص من السجن ، فتغيظ القرشيون من عثمان لأنه هو الذى زين لقيصر ذلك .

والذى ضاعف من غيظهم أن القيصر أراد أن يجعل من عثمان ملكا على مكة وتوجه لذلك ولكن القرشيين أنفوا من ذلك ، ورفضوا أن يدينوا لملك ، لاسيما اذا كان الملك تابعا لقيصر وحين جاء الخبر بذلك لقريش صاح الأسود بن أسد بن عبدالعزى : ألا إن مكة حى لقاح لاتدين لملك . .

ولم يتم لعثمان مراده ، فقد دس له السم فى الشام ، ومات ولاعقب له ، وكان يلقب بالبطريق (٥٠) .

عبيدالله بن جحش

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى أسلم ،

---

(٥٠) الروض الانف جـ ١ ص ٢٥٥

وهاجر إلى الحبشة ومعه زوجته التى أسلمت أيضا وهى رملة بنت أبى سفيان وهى أم حبيبة . .

ولكنه فى الحبشة ارتد عن الاسلام وتنصر ، ومات على نصرانيته .

وتزوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم حبيبة ، وأمهرها عنه النجاشى . .

زيد بن نفيل :

وتوقف زيد بن عمرو بن نفيل ، فلم يقبل النصرانية ولا اليهودية وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ـ وهو أبوسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وحين هجر الأصنام التى يعبدها قومه وأخذ يعيبها ، ضاق به عمه الخطاب ذرعا ، وأغرى به سفهاء مكة وسلطهم عليه فآذوه ، فسكن كهفا بحراء ، وكان يدخل مكة سرا .

وخرج إلى الشام يسأل عن الدين الصحيح فلقى عالما من علماء اليهود فسأله عن دينهم وقال له : لعلى أتبعه .

فقال له اليهودى : لاتكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

فقال زيد : ما أفر إلا من غضب الله . ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، وأنَّى أستطيعه ؟ فهل تدلنى على غيره ؟

قال اليهودى : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا .

قال زيد : وما الحنيف ؟

قال اليهودى : دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانيا .

فخرج زيد فلقى عالما من علماء النصارى فسأله عن دينه لعله يتبعه .

فقال له النصرانى : لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله .

فقال زيد : ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولامن غضبه شيئا ، وأنَّى أستطيع ذلك ؟ فهل تدلنى على غيره ؟

قال : ما أعلمه الا أن تكون حنيفا .

قال زيد : وماالحنيف ؟

قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانياولكن كان حنيفا مسلما

فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم ، خرج عائدا من الشام ، ورفع يديه إلى السماء قائلا : اللهم إنى أشهدك أنى على دين ابراهيم . .

وعاد زيد إلى مكة وقد ثبت على ماهو عليه . . اعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن وأد البنات .

روى هشام بن عروة بن الزبير عن أمه أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا قد أسند ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يامعشر قريش ، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته .

وروى أن سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم ، فانه يبعث أمة وحده .

وكان زيد يقول شعرا يدعو فيه الى التوحيد منه :

أربا واحدا أم ألف رب | أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا | كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها | ولاصنمى بنى عمرو أزور
ولاهبلا أدين ، وكان ربا | لنا فى الدهر إذ حلمى يسير
عجبت وفى الليالى معجبات | وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا | كثيرا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم | فيربل منهم الطفل الصغير(٥١)
وبينا المرء يعثر ثاب يوما | كما يتروح الغصن النضير
ولكن أعبد الرحمن ربى | ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها | متى ماتحفظوها لاتبوروا

وله شعر آخر غير هذا . .

وكان لزيد زوجة هى صفية بنت الحضرمى ، تعذله وتلومه على اتجاهه فى التعرف على الحق ، وكانت تحاول صده عن الهداية ، وكلما هم فى الخروج باحثا عن المعرفة تسارع فتخبر الخطاب بن نفيل ـ والد عمر ـ وكان الخطاب عم زيد وأخاه لأمه أيضا ، وكان قد وكل زوجته صفية به ، قال لها : إن رأيته قد هم بأمر فأخبرينى . .

فكانت تسرع باخباره كلما رأته قد هم بالهجرة إلى مكان . . فيجىء الخطاب ويؤذيه . . ولكنه كان لا يأبه لذلك ، ولايلقى إليه بالا . . كان الخطاب يخشى أن يفتن زيد شباب قريش عن دينهم فيهجروه . .

---

(٥١) يربل : يشب ويكبر .

عجبا : أى دين هذا الذى يخشى عليه الخطاب الفتنة ، أهو السجود لتلك الأصنام التى لاتسمع ولاتبصر ، ولاتنفع ولاتضر ؟ أهو الطواف حول هذه الطواغيت الصماء التى أضل الشيطان بها الناس فعبدوها من دون الله ؟ ومن أعجب العجب أن يستوى فى ذلك عقلاء القوم وجهلاؤهم وسادتهم وطغامهم . .

ولو فكر الخطاب قليلا ، لأدرك أن الحق مع زيد وأنه أجدر بأن يكرم لا أن يؤذى . .

ولكن الخطاب كان قاسيا عليه ، كان يؤذيه ، ويطرده ، ويحول بينه وبين دخول مكة .

ولكن ذلك كان لايصد زيدا عن طريقه ، بل ويطرده ،ويحول بينه وبين الحق . .

وكان يجل البيت الحرام ويعظمه هذا البيت الذى انتهك هؤلاء القوم حرمته بما وضعوه فى ساحته من أصنام قربوا لها القرابين وطافوا بها مهللين مكبرين .

كان الأذى لايصده عن طريقه ، وكان العنف لايزيده إلا اصرارا على موقفه . .

إن الهداية إذا دخلت القلب استهان بكل صعب ، وصغر أمامه كل كبير . .

كان زيد اذا دخل البيت واستقبل الكعبة يقول ـ وهو قائم :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت | له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحَاها فلما رآها استوت | على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت | له المزن تحمل عذ با زلالا
اذا هى سيقت الى بلدة | أطاعت فصبت عليها سجالا

وحين يئس زيد من قومه ، خرج مهاجرا سائلا الأحبار والرهبان ، ودخل الموصل ، وجال فى الجزيرة ، ثم عاد إلى الشام ، ولقى فى أرض البلقاء راهبا ينتهى إليه علم النصرانية ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم .

فقال له الراهب : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم ، فالحق به وإنه مبعوث الآن .. هذا زمانه ..

وكادت الفرحة تقتل زيدا ..

فعاد مسرعا إلى مكة يريد ان يسعد بلقاء ذلك المبعوث الذى قضى حياته باحثا عنه .. ولكنه قتل فى الطريق إليها .. قتل وهو يبحث عن الحقيقة .. فذهب شهيدا مرضيا عنه ، شاكيا ظلم أهل الأرض إلى أهل السماء .. وحلقت روحه فى عليين مع من سبقه من الشهداء والصالحين ..

روى صاحب كتاب « خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام » أن بعض ملوك غسان دس السم لزيد بن عمرو فمات بدمشق .. [٥٢] .

فقال ورقة بن نوفل يرثيه :

---

(٥٢) بشائر النبوة الخاتمة دكتور رءوف شلبى ٦٥ .

رشدت وأنعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وادراكك الدين الذى قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن من الناس جبارا الى النار هاويا
وقد تدرك الانسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا (٥٣)

متحنفون آخرون :

وتشير المصادر المختلفة إلى أن هناك متحنفين آخرين سوى هؤلاء الذين ذكرناهم . .

منهم قس بن ساعدة الإيادى ، وهو من قبيلة إياد بن أد بن سعد ، ويلقب بحكيم العرب وكان مقرا بالبعث .

وقد ضرب العرب المثل بحكمته ، وعقله ـ قال الأعشى :

وأحكم من قس وأجرا من الذى بذى الغيل من خفان أصبح خادرا

وقدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفد من إياد فسألهم عنه ، فقالوا ، هلك .

فقال : رحمه الله ـ كأننى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر ، وهو يقول :

أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت .

---

(٥٣) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٦٣ .

أما بعد ، فإن فى السماء خبرا وإن فى الأرض لعبرا ، نجوم تمور ، وبحار تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قس بالله لا حانثا فيه ولا

آثما : إن لله لدينا هو أرضى من دين أنتم عليه ، مالى أراهم يذهبون ولايرجعون ، أرضُوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ سبيل مؤتلف ، وعمل مختلف .

وقال أبياتا لا أحفظها .

فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : أنا أحفظها يارسول الله .

فقال : هاتها .

فقال :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها تمضى الأوائل والأواخر

لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر

أيقنت أنى لا محالة حيث صادر القوم صائر

أيقنت أنى لامحالة حيث صادر القوم صائر

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : رحم الله قسا ، إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده .

وقال المسعودى : ولقس أشعار كثيرة وحكم وأخبار تبصر فى الطب والزجر والفأل وأنواع الحكم (٥٤) وكانت لقس رحلات إلى الشام ، وله لقاءات بقيْصر الذى كان يقربه ويدنيه ويعجب بحكمته .

---

(٥٤) مروج الذهب حـ ١ ص ٥٠ .

قال أبو على القالى : كان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوما : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه .

قال : فما أفضل العلم ؟

قال : وقوف المرء عند علمه .

قال فما أفضل المروءة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه .

قال : فما أفضل المال ؟

قال : ماقضى به الحقوق [٥٥] .

والحكمة كما يقول العلماء : قول موجز يتضمن حكما مسلما به فى الحث على الخير والكف عن الشر ، وهو ثمرة تجربة صادقة وخبرة صائبة . فإذا ماطبق ذلك على هذه العبارات كانت غاية فى الصدق .

والعاقل هو الذى يعرف قدر نفسه ولايتجاوز حدها . ومايزال الجاهل يفتن بنفسه ويغتر بها حتى يورد نفسه موارد التهلكه . وصدق الرسول الكريم الذى يقول : رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

والعالم الحق هو الذى يقف عند حدود مايعلم ، فإذا ماسئل عما لايعلم قال : لا أعلم ، ولايستحى من ذلك وقد ورد عن الحكماء قولهم : إذا أخطأ العالم قوله لا أدرى فقد أصيبت مقاتله . وصاحب المروءة هو الذى يحافظ على كرامته ، ولايوقع نفسه مواقع التهم أو الحرج ، وقد نصح العلماء طلاب العلم بقولهم : إياك ومايعتذر منه . .

---

(٥٥) الامالى لابى على القالى جـ ٢ ص ٤٣ .

فحِكَمُ قس خلاصة تجربة صدقتها الأيام ، ولذلك سارت مع الدهر ترددها الأجيال وتستشهد بها فى وقائع الأحوال .

والعرب على بداوتهم أكثر الناس إرسالا للحكمة وضربا للأمثال . لفصاحة ألسنتهم ولمطاوعة الكلام لهم ، ولتفرغهم لصناعة الكلام والمساجلة بالبيان . وقد اشتهر كثير من بينهم بالحكمة .

وَحَسْبُ الحكمة فائدة أن يضمنها المتكلم عبارته فلا تزال تورثها من البهاء والقبول مايرتفع به جانبها فتكون أمتع فى الصدر وآنق فى السمع وأسير فى الآفاق ، إلى ماتثيره فى النفس من حب الفضيلة والهداية إلى مكارم الاخلاق وصالح الأعمال .

ويعد قس بن ساعدة من خطباء الجاهلية المشهورين وحكمائها المعدودين .

المأمور الحارثى

ذكره أبو على القالى بأنه المأمون الحارثى ، وهو من بنى الحارث . وصحته بالراء قال : قعد المأمور الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال : أرعونى أسماعكم واصفوا إلىَّ قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد .

طمح بالأهواء الأشر[٥٦] وران على القلوب الكدر[٥٧] وطخطخ الجهل النظر[٥٨] ، إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء

---

(٥٦) طمح : ذهب - والاشر : الفرح والعجب .

(٥٧) ران : غطى .

(٥٨) طخطخ : سوى الشىء وضم بعضه إلى بعض .

مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتغرب ، وقمر تطلعه النحور (٦٠) ، وممحقة أدبار الشهور ، وعاجز مثر وحُوَّل مكد (٥٩) وشاب محتضر ويفن قد غبر (٦١) وراحلون لايئوبون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر الأير (٦٢) فيحيى الأنام ويشبع السوام وينمى الأنعام ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارىء المصور .

يأيها العقول النافرة ، والقلوب الثائرة (٦٣) أنى تؤفكون ، وعن أى سبل تعمهون (٦٤) ، وفى أى حيرة تهيمون ، وإلى أى غاية توفضون (٦٥) .

لو كشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة (٦٦) .

والمتأمل فى هذه الخطبة يجد بينها وبين خطبة قس السابقة مشابهة ـ كما يقول الأستاذ محمد هاشم عطية ـ تدل على اتفاق الخواطر أو تواردها على مشاهدات واحدة ، هى التى أنتجت هذا التشابه (٦٧) .

---

(٥٩) النحور : جمع نحر ويقصد بها أوائل الشهور .

(٦٠) حول : شديد الاحتيال . ومكد : قليل الخير .

(٦١) يفن : شيخ كبير ، وغبر بمعنى بقى .

(٦٢) الأير : الشديد الصلب .

(٦٣) القلوب الثائرة : ذات العداوة .

(٦٤) تؤفكون : تصرفون ـ تعمهون : تتحيرون .

(٦٥) توفضون : تسرعون .

(٦٦) الأمالى جـ ١ ص ٣٢٣ .

(٦٧) الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ٧٦

وهى دليل على أى حال على يقظة فكرية حركت الحواس نحو مشاهد الكون التى تشهد بعظمة الخالق وتدل على أن للكون ربا واحدا أوجده . .

وقد عاش العرب فى باديتهم الواسعة ذات السماء الصافية التى لاتحجبها الغيوم ، فتظهر فيها الكواكب الساطعة والنجوم اللامعة ، ويظهر فيها القمر ساطعاً فينير الأرض ليلا فتسرى فيه القوافل ، وتشرق الشمس نهارا فتملأ الكون بوهجها اللامع .

كل هذه المشاهد تثير عند ذوى الحس رغبة فى التفكر والتدبر ، وهذا هو مادعا إليه القرآن الكريم حيث قال :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾ (٦٨)

ونبه الأذهان إلى مظاهر القدرة فيما يقع تحت الحس والمشاهدة :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ (٦٩)

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ (٧٠)

---

(٦٨) الاعراف ١٨٥ .

(٦٩) الغاشية ١٧ : ٢١ . (٧٠) الاعراف ٥٤ .

أمية بن إبى الصلت :

ومن الذين هجروا الأوثان فى الجاهلية ، واهتدوا إلى الحق وإلى أن للكون خالقا وربا يدبره . . أمية بن أبى الصلت الثقفى .

وكان أمية شاعرا عاقلا ، وكان يتاجر إلى الشام ، فيلتقى بأهل الكنائس فيها من اليهود والنصارى ويسألهم عن دينهم ، وأخبره أهل العلم منهم أن نبيا سوف يبعث من العرب ، وقد أظل زمانه . . ولأمية أشعار يتحدث فيها عن قدرة الله وعظمته ، ويصف فيها السموات والأرض ، والشمس والقمر والملائكة ويتحدث فيها عن الأنبياء والبعث والنشور والجنة والنار ويعظم فيها الله ويوحده ومن ذلك قوله :

الحمد لله لاشريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

وحين أنهى إليه أهل الكتاب أن هناك نبيا سيبعث من العرب توقع أنه هو ذلك النبى ، فلما بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفر به وتنكر له وحاربه ، ومات كافرا . .

وذكر ابن الأثير فى أسد الغابة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أخت أمية ، وهى الفارعة بنت أبى الصلت قدمت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح الطائف ، وكانت ذات لب وعقل وجمال ، فقال لها : تحفظين من شعر أخيك شيئا ؟ .

قالت : نعم وأنشدت له الأبيات التى أولها :

باتت همومى تسرى طوارقها   أكف عينى والدمع سابقها

مارغب النفس فى الحياة ، وان   تحيا قليلا فالموت سابقها

وفيها يقول :

يوشك من فر من منيته يوما على غرة يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرما للموت كأس والمرء ذائقها[71]

قالت : ولما حضرته الوفاة قال عند المعاينة :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لاألما[72]

ثم قال :

كل عيش وإن تطاول دهرا صائر مرة إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ماقد بدا لى فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا

ثم مات ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : كان مثل أخيكِ كمثل الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين[73] .

لقد أمعن أمية فى التفكير ، وأتبع ذلك بمنهج عملى ، فزهد ولبس المسوح ، وأفاض الله على قلبه ألوانا من الحكمة ضمنها شعره ، ولكنه لم يستطع المحافظة على ماأوتيه من نعمة ، بل حسد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان الأولى به بعد أن تكشفت له الحقائق أن يكون من أول المؤمنين به . .

إلا أنه اتبع سبيل الكفار ، ورثى قتلى بدر من المشركين .

قال المسعودى : لما بلغة ظهور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اغتاظ لذلك وتأسف ، وجاء المدينة ليسلم فرده الحسد ، فرجع إلى الطائف ،

---

(٧١) عبطة : شابا .
(٧٢) لاألما ـ يعنى لم يرتكب اثما .
(٧٣) اسد الغابة جـ ٧ ص ٣٢٥ .

فبينما هو ذات يوم فى فتية يشرب إذ وقع غراب فنعب ثلاثة أصوات وطار ، فقال أمية : أشعر بدنو الأجل .

فقال القوم : لتكذبن هذا الغراب .

ثم قال : احسوا كأسكم ، فحسوها ، فلما انتهت النوبة إليه أغمى عليه ، فسكت طويلا ، ثم فاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

أنا من حفت به النعمة ، والحمد والشكر . . ثم شهق شهقة فكان فيها موته ، بعد أن قال الأبيات التى أوردناها سابقا إلا أنه جاء فى آخرها :

كل عيش وان تطاول حينا فقصارى أيامه أن يزولا (٧٤)

ويبدو أن أمية كان على صلة بالجن ، والذى يدل على ذلك ما أخبر به المسعودى أيضا حيث قال : السبب فى كتابة قريش واستفتاحها فى أوائل كتبها « باسمك اللهم » يرجع الى أمية بن ابى الصلت وذكر فى ذلك قصة رواها عن أحد الرواة قال : خرج أمية بن أبى الصلت إلى الشام فى نفر من ثقيف وقريش فى عير لهم ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ، واجتمعوا لعشائهم . . اذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم ، فحصبها بعضهم بشىء فى وجهها ، فابتعدت فشدوا سفرتهم ، ثم قاموا فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم .

فلما نزلوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصاها ، فقالت : ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة التى جاءتكم عشية ؟

---

(٧٤) مروج الذهب حـ ١ ص ٥١ .

قالوا : ومن أنت ؟

قالت : أم العوام ، أولادى يتامى منذ أعوام ، أما ورب العباد لتفرقن فى البلاد .

ثم ضربت بعصاها الأرض ، فأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلى إيابهم ، وأنفرى ركابهم فوثبت الإبل حتى افترقت فى البوادى ، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ، ولم نكد .

فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ، ففعلت مثل فعلتها ، وعادت لمقالتها : مامنعكم أن تطعموا رحيمة ، الجارية اليتيمة ؟ ثم قالت : أطيلى إيابهم ، وأنفرى ركابهم :

فخرجت الإبل ، مانملك منها شيئا ، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ، ولم نكد .

فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ، ففعلت مثل فعلتها الأولى والثانية فتفرقت الإبل .

وأمسينا فى ليلة مقمرة ، وقد يئسنا من ظهورنا [٧٥] فقلنا لأمية بن أبى الصلت : أين ماكنت تخبرنا به عن نفسك ؟

فتوجه إلى ذلك الكثيب الذى كانت تأتى منه العجوز ، حتى هبط من ناحية أخرى ، ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه وإذا برجل جالس أبيض الرأس واللحية .

قال أمية ؟ فلما وقفت عليه رفع رأسه إلىَّ وقال : إنك لمتبوع .

قلت : أجل .

---

(٧٥) ظهورنا : يقصد الابل .

قال : فمن أين يأتيك صاحبك ؟

قلت : من أذنى اليسرى .

قال : فبأى الثياب يأمرك ؟

قلت : بالسواد .

قال : هذا خطب الجن ، كدت ولم تفعل وليس هذا الأمر لك ، ولكن صاحب هذا الأمر يكلمُه فى أذنه اليمنى وأحب الثياب إليه البياض .

ثم قال له : فما جاء بك ؟ وماحاجتك ؟

قال أمية : فحدثته حديث العجوز .

قال صَدَقَتْ ، وليست بصادقة ، هى امرأة يهودية متصلة بالجن هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لاتزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت .

قال : اجمعوا ظهوركم ، فإذا جاءتك ، ففعلت ماكانت تفعل فقولوا لها سبعا من فوق ، وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم . فإنها لاتضركم .

فرجع أمية إلى أصحابه فأخبرهم بما قيل له .

فجاءتهم ففعلت كما كانت تفعل ، فقالوا : سبعا من فوق وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم ، فلم تضرهم فلما رأت الابل لم تتحرك قالت : عرفت صاحبكم ، ليبيضن أعلاه ويسودنَّ أسفله ـ وسرنا ، فلما أدركنا الصبح نظرنا إلى أمية وقد برص فى عذاريه ورقبته وصدره ، واسود أسفله (٧٦) .

---

(٧٦) برص اى اصابة البرص .

فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث . . وهذه قصة يغلب عليها الخيال وإن كان العقل لايحيلها ولهذا ذكرناها .

وكان أمية أول من كتب : باسمك اللهم ، إلى أن جاء الإسلام فرفع ذلك وكتب :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .[77]

وليس السبب فى استبدالها أنها من ألفاظ الجاهلية ـ كما تزعم دائرة المعارف الإسلامية [78] فانها مما يجوز استعمالها ، وقد استعملها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صلح الحديبية حين رفض المشركون ما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستعمله فى بدء كتبه وهو ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ولو كانت من ألفاظ الجاهلية ما استعملها . .

لقد استبدل بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ البسملة لأن الله ابتدأ بها سور القرآن الكريم ، وقد ووردت فى أول كتاب سليمان لبلقيس حين قرأته فقالت : إنه من سليمان وانه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ثم صارت شعار المسلمين فى الكتابة والقراءة وفى كل عمل يعمله المسلم ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل عمل لايبدأ باسم الله فهو أقطع أو أبتر .

لذلك كانت هى أفضل فى الاستعمال لأنها تعنى الاستعانة بالله والتبرك به فى كل عمل وقول .

نهاية أمية :

انتهت حياة أمية نهاية سيئة على غير ماكان متوقعا له . .

---

(٧٧) مروج الذهب جـ ١ ص ٥١ .

(٧٨) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٣٦٢ .

لقد بدأ حياته مفكرا زاهدا وانتهى به الأمر أن مات كافرا ـ لقد تحول تأمله وبحثه عن الهداية إلى رغبة نفسية أن يكون نبى هذه الأمة المنتظر ، وألح عليه هذا الخاطر حتى أسلمه إلى الكفر . . ونسى أن الرسالة لاتعطى بالتمنى ولكنها منحة إلهية يهبها الله لمن يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . .

وكان المفروض أن يكون أول من يؤمن بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند بعثته ، وأول من يؤازره فى دعوته ، ويرد عنه أذى المعارضين والمشركين ، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك اتجه إلى معاضدة المشركين ضد الدعوة المحمدية ، ورثى قتلى المشركين فى غزوة بدر ، فى قصائد منها ماأورده ابن هشام فى سيرته ومانهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من روايته ، ونحن نتأدب بأدب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا نروى شيئا من ذلك .

وخطفت الدنيا بصر أمية بعد أن كان زاهدا فيها ، فاتجه اتجاه الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم وله فى مدح عبدالله بن جدعان قصائد عدة . .
وتوفى أمية فى العام الثامن أو التاسع من الهجرة ، وقلبه يتنزى حقدا على نبى الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره هنا للاستدلال على اتجاه بعض العرب نحو الهداية ورفض ماكان عليه عامة أهل الجاهلية من عبادة الأصنام من دون الله جل وعلا . .

ويذكر أبوالفرج فى كتابه الأغانى قصة تكشف تطلع أمية إلى النبوة وحزنه على أنها فاتته فيقول : خرج أمية الى الشام فمر بكنيسة ، وكان معه جماعة من قريش والعرب ، فقال أمية :

ان لى حاجة فى هذه الكنيسة فانتظرونى .

فدخل الكنيسة وأبطأ ، ثم خرج إليهم كاسفا متغير اللون ، فرمى بنفسه ، وأقاموا حتى سرى عنه .

ثم مضوا فقضوا حوائجهم ، ثم رجعوا ، فلما صاروا الى الكنيسة قال لهم : انتظرونى . ودخل الكنيسة ، فابطأ . ثم خرج اليهم أسوأ من حالته الأولى ، فقال له أبوسفيان بن حرب : قد شققت على رفاقك .

قال : خلونى ونفسى ان ها هنا راهبا عالما أخبرنى أنه يكون بعد عيسى نبى من العرب وأنا أطمع فى النبوة وأخاف أن تخطئنى ، فأصابنى مارأيت .

فلما رجعت ثانية أتيته فقال : قد بعث نبى من العرب ، فيئست من النبوة فأصابنى مارأيت ، اذ فاتنى ماكنت أطمع فيه [٧٩] .

وينقل الدكتور رءوف شلبى عن ابن برهان الحلبى فى سيرته قوله فيما يرويه عن أميه فى حديث له مع أبى سفيان :

إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا فكنت أظن أنى هو ، وكنت أتحدث بذلك ، ثم ظهر لى أنه من بنى عبدمناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو يصلح لذلك إلا عتبه بن ربيعة الا انه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه فعرفت أنه غيره . .

ثم يقول بعد ذلك . لما مرض أمية مرضه الذى مات فيه جعل يقول : قد دنا أجلى ، وهذه المرضة منيتى ، وأنا أعلم أن الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلنى فى محمد .

---

(٧٩) انظر الأغانى ص ١٢٣ .

وسأله سائل : ولم الشك يا أمية ؟

فأجاب : لقد عرفت أن هذا الأمر سيئول الى رجل من قريش من بنى عبدمناف ، وإن شباب بنى عبدمناف قد جاوزوا الأربعين ولم يوح اليهم ، ولم يبق فى دائرة الصفات التى علمتها الا محمد بن عبدالله . . ولكن الحياء من نساء ثقيف يمنعنى من الإيمان به . إنى كنت أخبرهن أنى سأكون النبى ثم أصير تابعا لفتى من بنى عبدمناف ! (٨٠) .

رفض زعم للمستشرقين

ويهمنا هنا رفض ما زعمه المستشرقون من أن أمية بن أبى الصلت كان مصدرا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما كان يقوله من قرآن . . وعبارتهم فى ذلك التى حكتها دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمة أمية هى : « والآراء الدينية ومعالجة هذه الموضوعات فى كلام أمية مطابقة لما جاء فى القرآن إلى حد كبير ، ويكاد الاتفاق يقع فى كثير من الأقوال ، ولهذا أثيرت بالطبع مسألة اعتماد أحد القولين على الآخر ، فيذهب « إيوار » إلى أن أشعار أمية بن أبى الصلت التى تتضمن قصصا من قصص التوراة هى من المصادر التى استمد منها القرآن رأسا . . ثم تمضى الدائرة فتنقض هذا الرأى وتنفى أن يكون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استمد شيئا من شعر أمية ، ولكنهما معا وغيرهما كورقة وزيد بن عمرو استمدوا جميعا من تفسيرات المفسرين للتوراة والانجيل . . » . هذا بعض ما ذكرته دائرة المعارف عن المستشرق « إيوار » .

---

(٨٠) بشائر الرسالة الخاتمة ص ٧٣ .

وهذا زعم باطل من أساسه فلا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استمد شيئا من شعر أمية أو غيره ، أو أخذ شيئا عمن كان موجودا من علماء أهل الكتاب . . كيف وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايقرأ ولا يكتب والقرآن الكريم يحكى ذلك بقوله :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٨١)

ورد على الذين يزعمون أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علمه بشر بقوله

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٨٢)

وهناك أدلة كثيرة وقاطعة تدحض زعم هؤلاء أن النبى ﷺ قد أخذ شيئا من شعر أمية أو غيره . . ذاك أن النبى ـ صلى اله عليه وسلم ـ جاء بالقرآن وفيه من أخبار الأولين مالم يكن أحد يعلمه ، وفيه من المواعظ والنذر مالا عهد لأحد به ، وقد تحداهمْ القرآن الكريم على أن يأتوا بمثله أو بسور من مثله أو بآيات من مثله فلم يستطيعوا ـ على الرغم مما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، وكان هذا التحدى دليلا على أنه من عند الله لامن عند أحد من الناس .

---

(٨١) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩ .

(٨٢) النحل ١٠٣ .

وقد اجتهد المخالفون والمعارضون الذين كانوا فى زمن نزول القرآن أن يجدوا للقرآن مصدرا من المصادر التى كان للناس علم بها فلم يعثروا على شيء من ذلك وباءت كل محاولاتهم بالفشل وحق الحق وذهب الباطل . .

ولو أن شعر أمية أو غيره كان مصدرا للقرآن ـ كما يزعم الزاعمون ـ لاهتبلها المعارضون فرصة وهللوا لها وكبروا ولكان قول الله ـ جل وعلا :

﴿ ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من مقبل هذا ﴾

لامحل له ، لأنهم كانوا سيردون قائلين : لالقد ذكرها أمية فى شعره .

ويضاف إلى ذلك حقيقة أخرى هى أن الأشعار التى ذكر الرواة نسبتها إلى أمية وفيها ذكر القرون الأولى وماشابه ذلك ليست له بل هى منحولة نحلها له من لديهم مقدرة على صياغة الشعر ونحله وقد شهد بذلك كل من لديه دراية بنقد الشعر وروايته (٨٣)

الحقيقة التى يجب أن تقال :

والحقيقة التى يجب أن تقال هى أن القرآن الكريم قد ثبت بالأدلة القاطعة أنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . . والعجب من أمر هؤلاء المستشرقين . . كيف يقرن أمية الى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ؟ بل كيف يوضع شعره مع كتاب الله ؟

ولقد كنا فى غنى عن الرد على هؤلاء لولا أن بعض الذين يزعمون الولاية على الأدب من أهل زماننا يقلدون أولئك المتعصبين فى هذه السخافات من غير نظر ، كأنهم لايعلمون عن نشأة الاسلام شيئا ! ولايعرفون عن صاحب الدعوة قليلا ولاكثيرا ! وكأنهم لايشعرون بآثار الثقافة الإسلامية فى العلم الحديث ! وكأن الأوربيين لم يصيغوا إلى خطباء العرب على منابر قرطبة وأشبيلية ! .

---

(٨٣) راجع فى ذلك تعليق من عرفة على.دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ ص ٤٦٥ .

وكأنهم لم يفسحوا الطريق لحضارة الإسلام تجتاح ماكان يطبق آفاقهم فى عصورهم المظلمة من الجهالات وأين الذين استجابوا لأمية بن أبى الصلت أو لسواه ، وهو لم يخل من عقوق بنيه ، وقد شكا ذلك فى شعره فى قصيدته المشهورة التى منها :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا تعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالسهد لم أبت لنجواك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى وعينى تهمل

والله قد جعل لمحمد رسوله من صفاء الروحانية وقوة النفس ، ماكان به يحول طبائع الناس ، ويبدل فى جبلاتهم من الإباء إلى الطاعة ، ومن البغض إلى المحبة ، ومن الكفر إلى الإيمان ، حتى بلغ بأتباعه أنهم يحبونه أكثر من محبتهم لأنفسهم وأبنائهم ، ولقد عذبوا فى سبيله وأوذوا وقاتلوا وقتلوا ، وأخرجوا من ديارهم ولم يزدهم ذلك إلا استمساكا به وإيمانا بشريعته ، ومضوا على الجهاد معه حتى بلغ الكتاب أجله ، وضرب الدين بجرانه ، وخفقت أعلام المسلمين على آفاق البلاد . وماترى الأمم الأجنبية تشجى بشىء الآن أكثر مما تراه من تطلع الأمم الاسلامية إلى مجدهم الذاهب وشعورهم بالحاجة إلى استرداد عظمتهم الماضية .(٨٤)

والعجيب أنهم لم ينسبوا هذا التأثير إلا إلى أمية ، فما بالهم لم ينسبوه إلى ورقة ولا إلى زيد ممن أثرت عنهم أشعار تدعو إلى التوحيد . . أغلب الظن أن ذلك إنما كان لأن أمية هو الذى كفر بالإسلام لما بعث الله به غيره فأصبح

---

(٨٤) الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم عطية ص ٤٥٢

بينه وبين هؤلاء الحاقدين على الإسلام صلة أوجبت الاحتفال به وتزييف الحقائق من أجله .

بحيرى الراهب :

ولايحسب بحيرى على المتحنفين لأنه من أهل الكتاب ، ولكن المسعودى ذكره ضمن أهل الفترة الذين يعتبرون معالم فى طريق الهداية إلى الله . .

ولبحيرى أهمية خاصة فى البشارة بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد اكتشفه وهو ضمن القافلة المتجهة إلى الشام فى اثناء مرورها بالمكان الذى كان يقيم فيه .

قال عنه المسعودى : ان اسمه فى النصارى « سرجس » وكان من عبدالقيس ، وذكر قصته مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مع عمه ابى طالب إلى الشام فى تجارة وهو ابن اثنتى عشرة سنة ومعهما أبوبكر وبلال ، مروا ببحيرى وهو فى صومعته فعرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفته ودلائله ، وماكان يجده فى كتابه ونظر إلى الغمام يُظله حيثما جلس .

فأنزلهم بحيرى وأكرمهم وصنع لهم طعاما ، ونزل من صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كتفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووضع يده على موضع ، وآمن به ، وأعلم أبابكر وبلالا بقصته ومايكون من أمره ، وسأل أبا طالب أن يرجع به إلى مكة ،وحذرهم من أن أهل الكتاب قد يلحقون به الأذى إذا عرفوه وأخبر عمه أبا طالب بذلك فرجع به .

فلما رجع من سفره ذلك كان بدء قصته مع خديجة ، وماأظهر الله لها من

دلائل نبوته ومأأخبرت به مما كان منه فى طريقه [٨٥] .

ولكن اتصاله بخديجة ـ رضي الله عنها ـ عن طريق التجارة لم يكن إلا بعد ذلك بسنين .

ويذكر ابن هشام أن بحيرى هذا كان ببصرى من أرض الشام ، وكان يقيم فى صومعة ، وإليه انتهى علم أهل النصرانية . .

والسهيلى يذكر أنه كان حَبْرا من يهود تيماء ، ونقل عن ابن قتيبة قوله فى المعارف إنه سُمِع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف : ألا إن من خير أهل الأرض : بحيرى : ورباب بن البراء الشنى والثالث المنتظر هو خير أهل الأرض على الاطلاق يعنى النبى صلى الله عليه وسلم . قال : وكان قبر رباب الشنى وقبر ولده من بعده لايزال يرى عليه طش ، والطش : المطر الخفيف .

وحدث حوار بين بحيرى والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلاصته أن بحيرى قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يومئذ غلام ، فى رواية سنه اثنتا عشرة سنة ، وفى رواية أخرى سنه تسع سنين : ـ

ياغلام ، أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرنى عما أسألك عنه .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم : لاتسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ماأبغضت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله أخبرنى عما أسألك عنه .

فقال له : سلنى عما بدا لك .

---

(٨٥) مروج الذهب ح ١ ص ٥٤

فجعل بحيرى يسأله عن أشياء من حاله ، من نومه ، وهيئته ، وأموره .

فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره ، فيوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته . . وزاده تأكدا من ذلك ما رآه من خاتم النبوة .

وقد روى الترمذى قصة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع بحيرى ، قال : بعد أن ذكر اقتراب ركب التجار من بحيرى : فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولايلتفت ـ فجعل الراهب يتخللهم وهم يحلون رحالهم ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش ما علمك ؟

قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولاشجر إلا خر ساجدا ، ولايسجدان إلا لنبى ، وانى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه .

ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به ـ وكان هو ـ أى النبى ـ فى رعْية الإبل ـ قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله .

فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة ، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه ، فقال : انظروا إلى فىء الشجرة مال إليه ؟

ثم قال بحيرى للعرب : أنشدكم بالله أيكم وليه

قالوا : أبوطالب .

فلم يزل يناشده حتى رده أبوطالب ، وقال أبوطالب فى هذه القصة

يتحدث عن عزمه على الخروج متاجرا وتعلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ به واصطحابه معه حتى التقوا ببحيرى :

ألم ترنى من بعدهمٌ همته بفرقة حر الوالدين كرام
بأحمد لما ان شددت مطيتى لنرحل اذ ودعته بسلام
بكى حزنا والعيس قد فصلت بنا وأمسكت بالكفين فضل زمام
ذكرت أباه ، ثم رقرقت عبرة تجود من العينين ذات سجام
فقلت : تروح راشدا فى عمومة مواسين فى البأساء غير لئام
فرحنا مع العير التى راح أهلها شآمى الهوى والأصل غير شآمى
فلما هبطنا أرض بصرى تشرفوا لنا فوق دور ينظرون جسام
فجاء بحيرى عند ذلك حاشدا لنا بشراب طيب وطعام
فقال : اجمعوا أصحابكم لطعامنا فقلنا : جمعنا القوم غير غلام (86)

هذا موجز ماذكرته المصادر العربية من قصة بحيرى ولقائه بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن المستشرقين ـ كعادتهم ـ يلتمسون من الأحداث أسبابا ينفثون من خلالها سمومهم ، فقد صور لهم خيالهم المريض أن بحيرى فى لقائه بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد لقنه عقيدته وشريعته وأجزاء من القرآن .

وهذا افتعال لايقوم على أساس ، فقد كان لقاء بحيرى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقاء عابرا لم يدم سوى بضع ساعات ، وكانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك الوقت تسع سنوات أو اثنتى عشرة سنة على

---

(٨٦) الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٦

اختلاف الروايات فكيف يتلقى النبى فى هذه السن وفى تلك الساعات القليلة شريعة دين وأصول عقيدة ، ونصوصا قرآنية متعددة

عمرو بن عبسة السلمى:

ومن الذين اتجهوا إلى التحنف عمرو بن عَبَسة بن عامر من سُليم .

قال عنه ابن الأثير : أسلم قديما ، وكان يقال عنه : هو ربع الإسلام - يعنى أنه تقدمه ثلاث وكان هو الرابع .

ولنتركه يتحدث بنفسه عن رغبته عن عبادة الأصنام فيقول :

ألقى فى روعى أن عبادة الأوثان باطل ، فسمعنى رجل وأنا أتكلم بذلك ، فقال : ياعمرو بمكة رجل يقول كما تقول .

قال : فأقبلت إلى مكة أسأل عنه ، فأخبرت أنه مختف لا أقدر على رؤيته إلا بالليل وهو يطوف بالبيت . فنمت بين الكعبة وأستارها ، فما علمت إلا بصوته يهلل الله . فخرجت إليه قلت : من أنت .

فقال : رسول الله ، فقلت : وبم أرسلك

قال : بأن يعبد الله ولايشرك به شيء ، وتحقن الدماء وتوصل الأرحام .

قلت : ومن معك على هذا .

قال : حر وعبد .

فقلت : ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته على الإسلام ، فلقد رأيتنى وإنى لربع الإسلام .

وروى عنه أنه قال للنبى - صلى اله عليه وسلم - أقيم معك يارسول الله قال : لا ولكن الحق بقومك ، فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى .

قال : فلحقت بقومى ، فمكثت دهرا طويلا منتظرا خبره ، حتى أتت رفقة من يثرب ، فسألتهم عن الخبر ، فقالوا : خرج محمد من مكة إلى المدينة . قال : فارتحلت حتى أتيته فقلت : أتعرفنى ؟

قال : نعم ، أنت الرجل الذى أتيتنى بمكة .

ومن الأحاديث التى رواها عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى سهما فى سبيل الله فبلغ العدو أو قصر كان له عدل رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منه عضوا من المعتِق من النار . (٨٧) .

هل كان عبدالمطلب متحنفا ؟

يقول المسعودى : تنازع الناس فى أمر عبدالمطلب ، وهل كان مؤمنا موحدا كما كان هؤلاء المتحنفون الذين هجروا الأوثان ، ودعوا إلى عبادة الواحد الديان أم كان شأنه شأن غيره من عامة العرب الذين يدينون بتلك الأوثان ويطوفون حولها وينحرون لها .

والذى يرى أنه كان مؤمنا يستند إلى أنه لم يكن أحد من آباء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشركا . . وأنه تنقل فى الأصلاب الطاهرة والأرحام النقية ، وأن الله أكرمه بذلك ، وقد فهم بعض المفسرين من قوله ـ تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ (٨٨)

---

(٨٧) اسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الاثير حـ٤ ص ٢٥١

(٨٨) الشعراء ٢١٧ : ٢١٩

أن التقلب هو تقلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أصلاب الآباء حتى أخرجه نبيا .

وربما استند من ذكروا ذلك إلى وثوق عبدالمطلب بنصر الله إياه فى كل مأزق كان يحيط به . .

لقد نصره فى معركته مع قريش فى زمزم حين حفرها ونازعوه فيها ، ونصره على أبرهة حين اعتدى أبرهة على الحرم ، فالتجأ عبدالمطلب إلى الله ضارعا وقد أمسك بحلقة باب البيت وهو يقول :

لاهم ان العبد يمنع رحلة فامنع حلالك . .

فهو لم يلتجىء إلى صنم يدعوه ، بل التجأ إلى الله .

وقد يجيب المعترض على ذلك إذا أراد . . بأن المشتركين كانوا يعترفون بالله ، ويعرفون أنه الخالق وأن هذه الأصنام إنما هى زلفى إليه . .

ويستشهد من يرى أن عبدالمطلب كان من المتحنفين وأنه كان مقرا بالتوحيد ، مثبتا للوعيد ، تاركا للتقليد ، بأنه حين حفر زمزم ـ وكانت مطوية استخرج منها غزالتين من ذهب عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف ، وسبعة أدرع سوابغ ، فضرب من الأسياف بابا للكعبة وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب فى الباب ، وجعل الأخرى فى الكعبة .

فهو لم يصطف شيئا لنفسه ، بل جعل كل ماعثر عليه لله ، ولايفعل ذلك إلا موحد وهو أول من سقى الماء عذبا بمكة ، وجعل باب الكعبة مذهبا تعظيما لله وكان يطعم الحجيج ويسقيهم بلا شح ولابخل يفعل ذلك إكراما لضيوف الله وزوار بيته الحرام . .

ونذر إن رزقه الله عشر بنين أن يقرب أحدهم لله ـ تعالى ـ فكان أمره حين رزقه الله إياهم أن قرب أحبهم إليه وهو عبدالله أبوالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضرب على القداح حتى افتداه بمائة من الإبل ذبحها كلها وأباحها للناس والطير والوحش [٨٩] . وقد سبق ذكر هذا الخبر .

وعلى كل فان إيمان أو عدم إيمان عبدالمطلب لايقدح فى قدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولايضع من شرفه بل هو دليل على اجتباء الله له واصطفائه إياه . .

والذى لاشك فيه أن عبدالمطلب كان على قدر عظيم من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وكان يوصي ولده بصلة الأرحام وإطعام الطعام وكان يرغبهم ويرهبهم وهذا فعل من يراعى الله ويحب العدل ويخشى الظلم [٩٠] وحسن الخلق هبة من الله لايمنحها إلا لمن يحبه ويرضى عنه . . وعلى أى حال فإن عبدالمطلب يعد من حكماء العرب ، والحكمة مغنم ثمين يهبها الله لمن يشاء من عباده ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

لماذا لم يتأثر الناس بالمتحنفين؟

وعلى الرغم من وجود هؤلاء المتحنفين ، وصرخاتهم الحارة فى أقوامهم وتحذيرهم مما هم عليه من فساد ، إلا أنه لم يكن لهم تأثير فى أقوامهم . . فلم يحذ أحد حذوهم ، ولم يسر على نهجهم أحد من الناس .

ولعل السر فى ذلك استشراء الضلال وشدة الطغيان كما وأنه لم يكن مع هؤلاء مايؤيدهم من الآيات والمعجزات التى تحمل الناس على الاتباع ،

---

(٨٩) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٨١

(٩٠) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٨٤

فالرسول ـ عادة ـ مؤيد بمعجزة من السماء تشهد بصدقه وتؤكد حقيقة مايدعو إليه من تعاليم وارشادات . . وهؤلاء ليسوا كذلك ، فهم لم يؤمروا بشيء ولم يكلفوا بشيء . .

لقد كان هؤلاء القوم علامات بارزة تشهد على الناس بأنهم فى باطل ، ومصابيح تضيء فى وسط الظلام الحالك لمن يريد الاهتداء . . وهم دلائل تشير إلى أن شيوع الباطل ليس أمرا مسلما به من الجميع . بل إن هناك من يتيقظ لابطاله ، ويتصدى للانكار عليه . وفى ذلك رد على الشيطان الذى توعد باغواء الناس جميعا ، وسوقهم إلى الجحيم . . ليعلم أن هناك من ينجيه الله من براثنه وينقذه من مخالبه .

ألوان من الفساد الجاهلى :

على أن الفساد فى الجاهلية لم يكن قاصرا على عبادة الأوثان ، وان كانت تلك قمته ، فليس بعد الكفر ذنب ، ومعرفة الله طريق لكل خير وسبيل لكل رشد ، والابتعاد عنه وسيلة إلى كل غى وسبب إلى كل ضلال .

ذلك أن الإيمان وازع يزع صاحبه عن ارتكاب الآثام . فإذا فكر فى الشر استيقظ ضميره وخشى من العقاب .

والإيمان بالله يستلزم مراعاة جانبه والخوف منه ، كما يستلزم الإيمان بالحساب والثواب والعقاب . . وذلك يؤدى إلى تهذيب السلوك وتقويم الأخلاق وترقية الوجدان . .

وقد اقترن الإيمان بالعمل الصالح دائما ، ودعا القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى التلازم بينهما لأنه لاقيمة لأحدهما بدون الآخر . .

والمؤمن الذى لايقدم الخير محروم ، وايمانه لاجدوى منه ، وقد نفى الحديث الشريف الإيمان عن شارب الخمر ومقترف الزنا ومرتكب المنكر وغير ذلك من أنواع الشر ، وقال فى ذلك : لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن .

كما أن العمل الصالح الذى لا يصحبه إيمان بالله واليوم الآخر لاقيمة له أيضا . وقد أخبر الله عن قوم كافرين يمارسون بعض الأعمال الصالحة بأنهم لانصيب لهم من النعيم فى الآخرة ، وقال فى حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٩١)

وقال :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٩٢)

وقد تعددت صور الفساد فى المجتمع الجاهلى .. منها :

كثرة الحروب

فقد كثرت الحروب بينهم كثرة مفزعة ، وكانت نيرانها لاتخبو إلا لتشتعل من جديد ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى معرض التذكير بنعمة الله

---

(٩١) الفرقان ٢٣

(٩٢) الاحقاف ٢٠

عليهم فقال :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٩٣)

وكانت هذه الحروب تثور لأتفه الأسباب ، فقد كانت الأمية سائدة فيهم ، وكان أغلبهم بدوا تأصلت فيهم طبائع البادية من نجدة وحب للغزو وميل للانتقام والأخذ بالثأر ، كان البدوى حين يفتح عينيه لا يرى إلا تألق الأسنة ، ولايسمع إلا صهيل الخيل وزئير الوحوش ، ولم يكن لهم حمى يلجئون إليه إلا ظهور خيلهم ومقابض سيوفهم فرسخت فيهم صفات الفروسية وقوة المراس وكثرة الفتك والسلب والنهب ولم يكن لهم مقام بأرض ، وانما كانوا يتتبعون مساقط المياه ومنابت الكلأ ليرعوا أغنامهم وأنعامهم التى عليها تقوم حياتهم ومعاشهم ، فإذا وجدوا غيرهم قد سبقهم إليها تنازعوا والتنازع يؤدى الى الاحتكام إلى السيف (٩٤) .

والمغلوب لايسكت ، بل يستعد للأخذ بالثأر ويلتمس لذلك الفرص . . وقد تُشْعِل الحرب بينهم كلمة عابرة أو خطأ غير مقصود ، أو استنجاد كان يمكن تلبيته بغير السيف أو غدر كان يمكن الاحتكام فى مواجهته إلى العقل والمنطق . .

---

(٩٣) آل عمران ١٠٣

(٩٤) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ـ محمد هاشم عطية ص ٤٨

وتستمر الحروب سنين طويلة تأكل الشباب والشيوخ ، ويذهب ضحيتها الأنفس والثمرات . .

وهم يفتخرون بذلك ، وقد أصبح الظلم فى شرعهم مستساغا حتى قال حكيمهم زهير بن أبي سلمى :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه يهدَّم ومن لايظلم الناس يظلم

وقال عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وقال آخر يهجو قوما ، وأنت تحسبه يمدحهم :

قبيلته لايغدون بذمة ولايظلمون الناس حبة خردل

ولايردون الماء الاعشية اذا صدر الوراد عن كل منهل . .

وأد البنات :

كان العرب يكرهون البنات ويحتقرون شأنهم وقد أدى ذلك الى مايعرف بوأد البنات الذى عيرهم القرآن به فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٩٥)

وحذرهم عاقبة ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ (٩٦)

---

(٩٥) النحل ٥٨ ، ٥٩

(٩٦) التكوير ٨ ، ٩

وقد ظهر من بينهم من استفظع ذلك الأمر ورفضه ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل الذى أشرنا إلى قصته آنفا . .

ومنهم صعصعة بن معاوية أو ابن ناجية ـ على اختلاف الروايات ـ وهو جد الفرزدق الشاعر ، كان يحيى الموءودة ، واحياؤها كان يغنى أباها فيمنعه من التخلص منها ، لأن الأغلب عليهم ـ كما حكى القرآن عنهم ـ أنهم كانوا يقتلونهم خشية الفقر قال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ (٩٧)

وقد افتخر الشاعر الفرزدق بجده صعصعة هذا وقال :

ومنا الذى منع الوائدات   وأحيا الوئيد فلم يوأد

وقال :

ومنا الذى أحيا الوئيد وغالب   وعمرو ، ومنا حاجب والأقارع
أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   اذا جمعتنا ياجرير المجامع

وذكر ابن الأثير فى أسد الغابة قصة وفود صعصعة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا على لسانه : قدمت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرض علىَّ الاسلام ، فأسلمت ، وعلمنى آيات من القرآن ، فقلت : يارسول الله ، إنى عملت أعمالا فى الجاهلية فهل لى فيها من أجر .

قال : ماعملت

قلت : ضلت ناقتان لى عشرا وان ، فخرجت أبغيهما على جمل لى ، فرفع لى بيتان فى فضاء الأرض ، فقصدت قصدهما ، فوجدت فى أحدهما شيخا

---

(٩٧) الاسراء ٣١

كبيرا ، فبينما هو يخاطبنى وأخاطبه إذ نادته امرأة : قد ولدت . . قد ولدت .

قال : وماولدت ؟ قالت : جارية .

قال : فادفنيها .

فقلت : أنا أشترى منك روحها ، ولاتقتلها ، فاشتريتها بناقتى : وولديها والبعير الذى تحتى .

وظهر الإسلام وقد أحييت ثلاثمائة وستين موءودة ، اشترى كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل . فهل لى من أجر .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا باب من البر ، لك أجره إذ مَنَّ الله عليك بالإسلام (٩٨)

وذكر السهيلى ماقيل من أنهم كانوا يفعلون ذلك، غيرة على البنات ، ولكنه قال : وما قاله الله فى القرآن هو الحق من قوله « خشية إملاق » .

ويروى القرطبى فى وأد البنات قصة قال : روى أن رجلا من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لايزال مغتما بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه سلم ـ فقال له : مالك تكون محزوناً ؟ فقال : يارسول الله ، إنى أذنبت ذنبا فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لى ، فقال له : أخبرنى عن ذنبك ، فقال : يارسول الله ، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لى بنت فتشفعت إلىَّ امرأتى أن أتركها ، فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها ، فدخلتنى الحمية ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج فقلت للمرأة : إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيها معى ، فسرت بذلك وزينتها

---

(٩٨) أسد الغابة فى معرفة الصحابة بن الأثير ج ٣ ص ٢٢ دار الشعب

بالثياب والحلى ، وأخذت على المواثيق ألا أغدر بها .

فذهبت بها إلى رأس بئر ، فنظرت فى البئر ، ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول : ياأبت ، ماذا تريد أن تفعل بى ؟فرحمتها ثم نظرت فى البئر فدخلت علىَّ الحمية ثم التزمتنى وجعلت تقول : ياأبت لاتضيع أمانة أمى .

فجعلت أنظر مرة فى البئر ومرة إليها وأرحمها ، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسة ، وهى تنادى فى البئر : ياأبت قتلتنى ، فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت .

فبكى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وقال : لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك (١٠٠) . وهذا الخبر يشير إلى أن وأد البنات قد يكون مرده إلى الحمية والأنفة وقد كان بعضهم يعضل بناته فلا يزوجهن .

ومما يروى فى ذلك ، ماذكره أبوعلى القالى فى أماليه قال :

كان رجل من العرب له ثلاث بنات قد عضلهن ومنعهن الأكفاء ، فقالت احداهن : إن أقام أبونا على هذا الرأى فارقنا وقد ذهب حظ الرجال منا فينبغى لنا أن نعرض له مافى نفوسنا وكان يدخل على كل واحدة منهن يوما . فلما دخل على الكبرى تحادثا ساعة ، فحين أراد الانصراف أنشأت تقول :

أيزجر لاهينا ونلحى على الصبا ... ومانحن والفتيان إلا شقائق
يؤبن حبيبات مرارا كثيرة ... وتنباق أحيانا بهن البوائق

---

(١٠٠) تفسير القرطبى ـ سورة الأنعام ـ ص ٢٥٢٣ ط دار الشعب

فلما سمع الشعر ساءه . ثم دخل على الوسطى فتحادثا . فلما أراد الانصراف أنشدت :

ألا أيها الفتيان إن فتاتكم دهاها سماع العاشقين فحنت
فدونكم ابغوها فتى غير زُمَّلٍ والا صبت تلك الفتاة وجنت

فلما سمع شعرها ساءه . ثم دخل على الصغرى فى يومها فتحدثا ، فلما أراد الانصراف أنشدت :

أما كان فى ثنتين مايزع الفتى ويعقل هذا الشيخ إن كان يعقل
فما هو الا الحل أو طلب الصبا ولابد منه فأتمر كيف تفعل

فلما رأى تواطؤهن على ذلك زوجهن .

وحكى أيضا قصة همام بن مرة مع بناته حين أراد منعهن من الزواج فاسمعنه شعرا ، فزوجهن .

ويستتبع ذلك الغضب من النساء حين يلدن البنات ، ومن الطرائف الواردة فى ذلك أن رجلا من العرب اسمه أبوحمزة ، غضب من زوجته وهجرها وترك البيت الذى تقيم فيه لأنها ولدت بنتا ، وأقام فى بيت جار له فسمعها يوما ترقص ابنتها وتقول لها :

مالأبى حمزة لايأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا والله ماذلك فى أيدينا
وانما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
نُنبت ماقد زرعوه فينا

فأثر ذلك فى نفسه ، فعاد إلى بيته (١٠١) .

وقد ذكر بعض الرواة أن بعض العرب كانت لهم عادات فى النكاح باطلة

---

(١٠١) تاريخ أدب العصر الجاهلى لعبدالجواد رمضان وحامد مصطفى ص ٣١

هدمها الإسلام لأنها لاتليق وشرف الأسرة وكرامة الحياة ، ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : ولدت من نكاح لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء .

وكانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط لا تستطيع أن تخص منها وسطا دون وسط أو صنفا دون صنف اللهم إلا أفرادا من الرجال والنساء ، ممن تعظمت نفوسهم فأبوا الوقوع فى هذه الرذيلة ، وكانت الحرائر أحسن حالا من الإماء ، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب الى هذه الفاحشة ، روى أبوداود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قام رجل فقال : يارسول الله إن فلانا ابنى ، عاهرت بأمه فى الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لادعوة فى الاسلام ، ذهب أمر الجاهلية ، الولد للفراش ، وللعاهر الحجر . . [١٠٢] . وكان للخمر فى الجاهلية سوقه الرائجة كانوا يشربونها ويتمدحون بذلك قال عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر بالشمال مفدم

ولهذا الافراط فى الشراب لم تحرم الخمر فى الاسلام دفعة واحدة ، ولكنها حرمت بالتدريج شيئا فشيئا ، حتى أمكنهم الاقلاع عنها . .

أخلاقهم الحميدة :

ولكن والحق يقال ، كانت للعرب إلى جانب هذه العادات المرذولة أخلاق حميدة يتنافسون فيها . فمن أخلص صفاتهم الوفاء ، لاينكثون

---

(١٠٢) الرحيق المختوم للشيخ صفى الرحمن المباركفورى ـ الجامعة السلفية الهند ص ٥٠

وعدا ، ولايخلون بعهد ، بل إن منهم من كان يقتل فى سبيل الوفاء بعهده ولاينكص عنه . وقصة السموءل بن عاديا ذهبت مضرب الأمثال فى ذلك ، وهو عربى كان يدين باليهودية ، ولكن وفاءه لامرىء القيس الذى استودعه ودائع وهو فى طريقه للاستنجاد بمن يعينه على الأخذ بثأر والده ، جعله يضحى بولده فى سبيل هذا الوفاء .

فقد حدث الرواة أن أعداء امرىء القيس أحاطوا بحصن السموءل فأغلقه عليه دونهم ، وكان له ابن فى خارجه لم يتمكن من الدخول الى الحصن قبل إغلاقه ، فقبض عليه هؤلاء الأعداء ، وهددوا أباه بقتله ان لم يسلم مال امرىء القيس ومتاعه وسلاحه ، فأبى فقتلوه ، فأصبح أمره مثلا يقولون : أوفى من السموءل . .

والسموءل عربى وخلقه العربى الأصيل هو الذى أملى عليه الوفاء بعهده والتضحية فى سبيل ذلك بولده . .

وهو مثل نهديه لأهل زماننا الذين لايرعون للناس حرمة ولايحفظون للعهود ذمة ، ولايعرفون للانسانية طريقا ، ولايحترمون فى سبيل منافعهم المادية ومآربهم الذاتية حليفا أو صديقا .

والعرب فى الكرم مضرب الأمثال يمتدحون به ويفتخرون . . يبذل الواحد منهم مافى يده ومافى بيته إكراما لضيفه ، بل ربما ذبح له ناقته التى هى عماد حياته كلها يقتات بلبنها وينتقل عليها وتحمل متاعه إذا أراد الارتحال من مكان إلى مكان . . ولايقبلون لوم لائم فى الكرم ـ وينظرون إلى المال على أنه عرض زائل ومتاع حائل . . يقول حاتم :

أماوى إن المال غاد ورائح   ويبقى من المال الأحاديث والذكر . .

وربما دفعهم هذا الكرم إلى تبذير المال فى الشراب ، تفاؤلا باسم الخمر لأنها ابنة الكرم كما يقولون وعنترة يقول :

وإذا شربت فاننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى . .

وقد سجل لنا الحطيئة فى شعره قصة أعرابى هم يذبح ابنه إكراما لضيفه لأنه لم يجد مايقربه به . . لولا ان عناية الله ساقت اليه صيدا فدى ابنه من الذبح . وأكرم به ضيفه . ويستتبع الخمر الميسر ، لأنهم كانوا ينفقون مايربحونه منه فى الكرم .

ومن صفاتهم المحمودة إباء الضيم والحفاظ على العزة والكرامة وعدم الرضوخ للظلم وعدم الرضا بالذل ودفعهم ذلك الى الشجاعة والنجدة والمروءة والمسارعة إلى الحرب وتلبية دعوة الصريخ . .

لايسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ماقال برهانا

وكان شعارهم فى ذلك انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وهو شعار هذبه الاسلام ، بأن جعل نصرة الأخ الظالم كفه عن الظلم .

لقد كانت لهم مآثر كما كانت لهم رذائل . .

والشعوب كلها فى جميع بقاع الأرض لها محاسنها ولها مساوئها . . ولكن الأمة العربية جعل الله لها مكانة خاصة فهى تجاور حرم الله وتقيم فى منطقة جغرافية هى قلب العالم ووسطه . .

ولهذا جعلها الله مهد الدعوة الاسلامية الراشدة ، واختارها منبت نبينا الكريم الذى جمع الله له المجد من أقطاره واصطفاه من أعظم القبائل مجدا ، ومن أفضل البيوت منزلا ، ومن أكرم الآباء والأمهات نسبا ، وموئلا . .

تطلع الناس إلى الهداية والانقاذ :

وبسبب هذه الحالة تطلع كثير من الناس إلى الهداية وأخذوا يبحثون عن وسائلها بطرقهم المختلفة . .

وكان للمظالم الكثيرة التى أرهقت المستضعفين والأرقاء ، وأثقلت كاهل المظلومين والضعفاء أثر فى التطلع إلى من يأخذ بأيديهم إلى طريق الخلاص الذى يرفع عن كاهلهم الظلم ويأخذ بأيديهم إلى حياة آمنة مستقرة عادلة .

فساد فى كل مكان :

ولم يكن الأمر كذلك فى ربوع الجزيرة العربية فحسب ، بل كان الأمر كذلك فى أنحاء متفرقة من العالم ففى بلاد الروم مظالم ، وفى بلاد الفرس مظالم وفى كل صقع من الأصقاع ضجة وشكوى ففى اليمن فى جنوب الجزيرة العربية . . كان الأحباش يعيثون فى الأرض فسادا بعد أن استولوا عليها ، وقد عرفنا كيف أذلوا الشعب اليمنى اذلالا لامثيل له ، وامتهنوا كرامته ودينه ، وساقوه ليهدموا به الكعبة التى هى مناط عزتهم وشرفهم وكرامتهم .

وحين توجه ابن ذى يزن مستنجدا بقيصر حجبه عن لقائه ولم يسمح له بالدخول حتى يئس وعاد . . ثم توجه شطر كسرى ليعينه ، فاستنكف أن يمده بجيش منظم ، بل أمده بالمسجونين الذين وضعوا فى السجن ليقضوا مدة عقوبة جزاء إجرامهم وخروجهم على القانون الفارسى وعصيانهم للدولة ، فهم بين قاتل أو قاطع طريق ، أو سارق أو متهم فى جريمة من الجرائم التى يعاقب عليها القانون . .

واعتبر الفرس هذه فرصة للتخلص من هؤلاء الذين يعد وجودهم فى البلاد بلاء . . وقال كسرى : إن انتصروا فهو ظفر وإن انهزموا فهو ظفر .

وقُدِّ ر لهؤلاء أن ينتصروا على الحبشة فى اليمن فبقوا فيها ، وتولى سيف بن ذى يزن الحكم تحت حراب هؤلاء الذين كانوا بالأمس مجرمين وأطلق عليهم اليوم لقب فاتحين . .

وناهيك بما تحمله نفس مجرم أصبح بطلا بين عشية وضحاها . .
والذي يدل على عتو الفرس أنهم بعد انتصارهم على الحبشة تقدموا صوب صنعاء ليدخلوها ، ومع وهرز قائدهم راية ، فلما وصلوا الى باب صنعاء قال : لاتدخل رايتى منكسة أبدا اهدموا هذا الباب فهدموا باب المدينة العريقة لتدخل منه راية وهرز منصوبة . . فهل ترى هناك اعتدادا بالقوة أكثر من ذلك ؟
ثم كتب إلى كسرى يقول له : إنى قد ضبطت لك اليمن ، وأخرجت من كان بها من الحبشة ، وبعثت إليك بالأموال .

فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن . .
وفرض كسرى عليه جزية وخَرْجاً يؤديه إليه فى كل عام [١٠٣] .
واغتيل سيف بيد غادرة حبشية ، فأصبح وهرز الفارسى ملكا على اليمن وأورثها ابنه المرزبان بن وهرز وظل الفرس يتوارثونها بعد ذلك . .

وظلت اليمن تحت الولاية الفارسية حتى جاء الاسلام وهى كذلك . وهو الذى رد إليها اعتبارها وخلصها مما كانت فيه من شقاء وبلاء . .
أما الروم وفارس فقد كانتا متناحرتين فيما بينهما ، وقد شهد مطلع الاسلام لونا من هذا الصراع الدامى بينهما ، فقد هزمت الفرس الروم هزيمة

---

(١٠٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ص ٢ ص ١١٧

ساحقة استولت فيها على أماكن متعددة منها وخربت بيت المقدس وأخذت الصليب . . ولم تلبث الروم أن استردت النصر وطردت الفرس من البلاد التى استولت عليها وسيأتى الحديث عن ذلك فى موضعه .

وكانت الشام يحكمها عرب الغساسنة وهم نصارى تابعون للروم ولقيصر عليهم سيادة ، وكانت العراق وعاصمتها الحيرة يحكمها المناذرة وهم عرب موالون للفرس . . وكانت بين الشام والعراق مناوشات يتحكم الروم والفرس فى اشعالها واطفائها . . كانت الدولتان تتحاربان بجنود من العرب ، فالعرب هم وقود المعركة فى كل حال .

وكان كل من الفرس والروم ينظرون الى العرب نظرة ازدراء ، يعتقدون أنهم ليسوا أهلا للملك والحضارة والتقدم ، إنما خلقوا ليكونوا تابعين لامتبوعين . .

ولذلك غضبوا حين بعث النبى صلى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسل إليهم كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام ، استكثروا ذلك ، واستعظموه ، وأمر كسرى عامله على اليمن أن يقبض على النبى أو يقتله . . ولكن الله خيب ظنه فقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ارسلوا لقتله أو القبض عليه بمقتل كسرى ، قال لهم قولوا لمن أرسلكم : إن ربى قتل ربه .

هذا العالم الذى كان يغلى فى منتصف القرن السابع الميلادى كان يتطلع إلى من يطفىء عنه النار ويجعله يشعر بالراحة والاستقرار ، ويرد إليه برد السلامة والأمن بعد طول انتظار فكان ذلك إيذانا بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعثته .

التبشير بالنبوة

- نبوة "محمد صلى الله عليه وسلم" قديمة.
- أدلة تثبت علم أهل الكتاب بالنبي "صلى الله عليه وسلم".
- مصادر علم أهل الكتاب بالنبي "صلى الله عليه وسلم".
- قصة في سبب إسلام أبي بكر.
- شهادة شيخ من بني قريظة.
- حديث ربيعة بن نصر ملك اليمن.
- رؤيا مرثد بن عبد كلال.
- قصة إسلام عروة بن الثقفي.



المبشرات التى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم

هناك الكثير من المبشرات التى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم .. جاءت على ألسنة الرسل السابقين ، وذكرتها كتبهم المقدسة ، وتواردت على ألسنة الأحبار والرهبان وعلماء أهل الكتاب فى كل مكان .

وقد أخبر القرآن الكريم بذلك حين قال على لسان موسى - عليه السلام :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١٠٤)

---

(١٠٤) الأعراف ١٥٦ : ١٥٨

وحين قال على لسان عيسى - عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١٠٥)

وقد ذكر صاحب المنار فى تفسير قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (١٠٦)

قال : قد جاءنا رسولنا المبشر به فى كتبكم ، المنتظر فى اعتقادكم ، فان الله أخبركم على لسان موسى أنه سيقيم نبيا من نبى إسماعيل ، وعلى لسان عيسى بن مريم أنه سيجىء بعده رسول الحق الذى يعلمكم كل شىء ، ولاتزال هذه البشارات فى كتبكم ، وان حرفتموها بسوء قصد منكم . ذلك هو النبى الكامل المعهود الذى سأل أجدادكم عنه يحيى - عليه السلام .

فقد جاء فى الانجيل الرابع أن اليهود أرسلوا بعض الكهنة فسألوا يحيى - عليه السلام - يوحنا - أأنت المسيح ؟ قال : لا ، قالوا أأنت إيليا ؟ قال : لا ، قالوا : أأنت النبى ؟ قال : لا . . فقولهم : أأنت النبى إشارة الى أنهم كانوا يعرفون أن هناك نبيا سيبعث . .

---

(١٠٥) الصف ٦

(١٠٦) المائدة ١٩.

ذلك هو الرسول محمد النبى العربى الأمى الذى يبين لكم على فترة - اى انقطاع - من الرسول وطول عهد على الوحى - جميع ماتحتاجون إليه من أمر دينكم ، ومايصلح به أمر دنياكم من العقائد السليمة ، والأخلاق والآداب الصحيحة التى أفسدها عليكم الافراط والتفريط فى الأمور المادية والروحية كما يبين لكم العبادات والأحكام التى تصلح بها أموركم الشخصية والاجتماعية .

وقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكون انقاذ هذا العالم الذى يعانى من الضلال والفساد على يد النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى اصطفاه منذ الأزل ، واختاره ليكون خاتم الأنبياء والرسل ، وقد أخذ العهد والميثاق على كافة الانبياء السابقين عليه أن يؤمنوا به ، ويبشروا به ويدعون أممهم الى الايمان به عند بعثته . .

وقد جاء ذلك فى قوله - تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١٠٧)

---

(١٠٧) آل عمران ٨١ ، ٨٢

روى ابن كثير فى تفسيره عن على بن أبى طالب وابن عمه عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما : قال : مابعث الله نبيا من الانبياء إلا أخذ عليه الميثاق أن يؤمن بمحمد ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . .[108] .

ومقتضى هذا أن رسالته صلى الله عليه وسلم خاتمة وشريعته ناسخة ، والكتاب الذى جاء به مهيمن على ماسبقه من الكتب ففيه ماتضمنته وزيادة . .

قال ابن كثير : فالرسول محمد ـ صلوات الله ـ وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء وهو الذى يجب على جميع الخلق اتباعه والايمان برسالته وهو آخر الرسل والأنبياء والمقدم عليهم ولهذا كان إمامهم ليلة الأسراء ، لما اجتمعوا فى بيت المقدس ، وهو الشفيع فى يوم الحشر وصاحب المقام المحمود الذى لايليق إلا له ، والذى يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين فهو صاحب الشفاعة العظمى .

نبوة محمد قديمة :

وربما أسلم هذا الكلام إلى سؤال هو : متى كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا وللاجابة عن ذلك نقول : إن نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم فى علم الله قديمة ـ روى الترمذى فى صحيحه قال : حدثنا أبوصالح قال حدثنى معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبدالأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إنى

---

(١٠٨) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٥٥

عبدالله وخاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته ، وسأخبركم عن ذلك : دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت ، وان أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام .(١٠٩)

أما دعوة ابراهيم فيحققها قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١١٠)

وأما بشارة عيسى فهى التى أخبر بها قومه ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . .

وأما رؤيا أمه فقد فسرها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديثه . . .

وأخرج الحاكم فى المستدرك وصححه ، كما أخرجه غيره ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما اقترف آدم الذنب قال : يارب بحق محمد أن تغفر لى ، فقال الله : ياآدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه قال : يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقلت إنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت ياآدم ، إنه لأحب الخلق إلىَّ ، ادعنى بحقه فقد غفرت لك . .(١١١) .

---

(١٠٩) دلائل النبوة للبيهقى حـ ١ ص ٦٩

(١١٠) البقرة ١٢٩

(١١١) المستدرك حـ ٢ ص ٦٥١ البيهقى فى دلائل النبوة ـ الحافظ السيوطى فى الخصائص ـ والطبرانى فى الأوسط .

وذكر ابن تيمية فى فتاواه حديثا بهذا المعنى قال : روى أبوالفرج ابن الجوزى بسنده إلى ميسرة قال : قلت يارسول الله متى كنت نبيا قال :

﴿ لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الانبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء ، فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمى ، فأخبره الله أنه سَيِّد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه (١١٢) .

فهذه الآثار تشير إلى قدم نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن الله اختاره فى علمه الأزلى ليكون هاديا وبشيرا ونذيرا فى آخر الأمم ، وأنه قربه واصطفاه وأخذ العهود على الأنبياء أن يبشروا بقدومه ويأخذوا العهود والمواثيق على أممهم أن يؤمنوا به . .

بل لقد أشار بعض المفسرين إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر للأنبياء السابقين خصائص هذه الأمة التى شملها برحمته حتى أطلق عليها لقب الأمة المرحومة ، وهى أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

البشريات السابقة :

لقد أصبح لزاما على كل نبى يبعث ورسول يرسل بناء على ذلك الميثاق الذى أخذه الله على النبيين أن يخبر كل نبى أمته برسول آخر الزمان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر لهم أوصافه وهيئته وزمنه وربما تجاوز ذلك إلى ذكر بعض أوصاف قومه وأخص صحابته والسابقين الأولين من المؤمنين به .

---

(١١٢) فتاوى ابن تيمية جـ ٢ ص ١٥٠ ومفاهيم يجب ان تصحح لمحمد علوى المالكى ص ٤٧

وبذلك أخذ أهل الكتاب يتناقلون خبر بعثته فيما بينهم ويتحدثون عن البشارات الواردة فى كتبهم ، ولقد كان ذلك سببا فى إسلام كثير منهم حينما بعث صلى الله عليه وسلم . . ومن أئمة اليهود الذين أسلموا بناء على تلك البشارات التى وردت فى الكتب السابقة عبدالله بن سلام ، ومن أئمة النصارى تميم الدارى ، وكلاهما كان من أخلص الصحابة وأصدقهم ايمانا ، ومن غير هؤلاء سلمان الفارسى وكان مجوسيا وصل اليه علم هذه البشارات عن طريق النصارى الذين التقى بهم فى بلاده . . ومازال يكابد فى سبيل الوصول إلى الحقيقة حتى استرق فى ذلك ، وبيع بيع العبيد فى المدينة ، حتى هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها فأسلم وحسن إسلامه ـ وستأتى قصته إن شاء الله تعالى فيما بعد .

إلا أن الغالبية الساحقة من اليهود والنصارى كتموا هذه البشارات أو زيفوها وتوارثوا هذا الكتمان والتزييف الى يومنا هذا ، مع أن الحق أحق أن يتبع . . ومازالت شمس الحقيقة الساطعة تنادى راغبى النور إلى اعتناق الاسلام . . وهناك من يلبى دعوتها بعد ان تبين له الحق ، وهذه الأنباء المتوالية تقدم إلينا كل يوم أسماء لامعة تعلن عن إسلامها طائعة مختارة عن اقتناع كامل ويقين صادق . .

ولافائدة من مكابرة هؤلاء الذين يزعمون أن الكتب السابقة ليس فيها تبشير بالنبى المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إخبار عن رسالته . . ذلك أن الرد عليهم ميسور ، وأن كذبهم فى ذلك ظاهر .

ترسب هذه البشارات فى أعماق أهل الكتاب

على الرغم من إنكار أهل الكتاب لهذه البشارات وتعمدهم اخفاءها أو

تزييفها أو تأويلها بصرفها عمّن وردت فيه الى غيره .. إلا ان كثيرا منهم يؤمن بها ويعتقد صحتها ويكتم ايمانه خوفا أو حقدا أو حسدا وقد جاء فى القرآن الكريم مايشير إلى هذا المعنى . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (١١٣)

قال ابن كثير فى تفسير هاتين الآيتين : يخبر الله تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشىء بهذا . كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال لرجل معه طفل صغير :ابنك هذا ؟ قال : نعم يارسول الله ، أشهد به . قال : أما أنه لايجنى عليك ولاتجنى عليه (١١٤) .

ثم أخبر - تعالى - أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمى ليكتمون الحق وهو مافى كتبهم من صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - (١١٥) ولقد أصبحت صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - عند أهل الكتاب علما بينهم يتوارثونه ولايكادون يفشونه على الملأ ، حتى إذا حزبهم أمر فزعوا إلى الاستنصار بالنبى - صلى الله عليه وسلم - نبى آخر الزمان ، فينصرهم الله

---

(١١٣) البقرة ١٤٦ ، ١٤٧

(١١٤) مسند احمد ٥ / ٨١

(١١٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٠

به ، حتى إذا جاء هذا النبى من عالم الغيب إلى الظهور كفروا به .. وقد قص القرآن الكريم قصة ذلك حين قال :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١١٦)

قال محمد بن اسحاق : أخبرنى محمد بن أبي محمد ، أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ماكانوا يقولونه فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور ، أخو بنى سلمة : يامعشر يهود ، اتقوا الله ، وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ماجاءنا بشىء نعرفه ، وماهو بالذى كنا نذكر لكم ، فأنزل الله تعالى الآية السابقة . (١١٧) .

لقد كان هؤلاء اليهود يستنصرون على العرب المشركين بقولهم : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم ، فلما بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

---

(١١٦) البقرة ٨٩

(١١٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٧٨

أدلة تثبت علمهم بالنبى صلى الله عليه وسلم

ذكر وهب بن منبه قال : قرأت فى بعض الكتب المنزلة على بنى إسرائيل . . قم فى قومك وقل : ياسماء اسمعى وياأرض أنصتى ، لأن الله ـ تعالى ـ يريد أن يقص شأن بنى إسرائيل إنى ربيتهم بنعمتى وآثرتهم بكرامتى واخترتهم لنفسى ، وإنى وجدت بنى إسرائيل كالغنم الشاردة التى لا راعى لها ، فرددت شاردتها ، وجمعت ضالتها ، وداويت مريضها ، وجبرت كسيرها ، وحفظت سمتها ، فلما فعلت ذلك بها بطرت فتناطحت كباشها ، فقتل بعضها بعضا ، فويل لهذه الأمة الخاطئة ، ويل لهؤلاء القوم الظالمين ، إنى قضيت ذلك يوم خلقت السموات والأرض قضاء حتما ، وجعلت له أجلا مؤجلا لابد منه ، فإن كانوا يعلمون الغيب فليخبروك متى حتمته ، فى أى زمان يكون ذلك فإنى مظهره على الدين كله فليخبروك متى يكون هذا وَمَنْ القيم به ومن أعوانه وأنصاره إن كانوا يعلمون فإنى باعث بذلك رسولا من الأميين ، ليس بفظ ولاغليظ ولاصخاب فى السوق ، ولاقوَّال بالهجر والخنا ، أسدده لكل جَميل وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة على لسانه ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والإسلام ملته ، أرفع به الوضيعة ، وأغنى به من العيلة ، وأهدى به من الضلالة ، وأؤلف به بين قلوب متفرقة وأهواء مختلفة ، وأجعل أمته خير الأمم ، ايمانا بى وتوحيدا وإخلاصا لما جاء به رسولى ، ألهمهم التسبيح والتحميد والتمجيد لى فى مساجدهم وصلواتهم ومتقلبهم ومثواهم ، يخرجون من

ديارهم ويتركون أموالهم ابتغاء مرضاتى يقاتلون فى سبيلى صفوفا ، ويصلون لى قياما وركوعا وسجودا ، يكبرون على كل شرف رهبان الليل أسد النهار ذلك فضلى على من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم (١١٨) .

مصادر علم أهل الكتاب بالنبى :

لقد استقى أهل الكتاب علمهم بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفته من عدة مصادر . . أحدها تلك الكتب المنزلة ـ مابقى منها بدون تحريف أو تزييف ـ وقد توارث بعضها علماؤهم الذين عضوا عليها بالنواجذ ، إن لم يكن حفاظا عليها فخوفا من أن يستاقط مافيها من علوم إلى غيرهم . .

وثانيها : ماكانت تأتى به الجن إلى كهانهم ، وكانت الجن والشياطين تسترق السمع من السماء قديما قبل بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

جاء فى السيرة الحلبية : قال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه لما تقارب زمانه ، أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فَلِماَ وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه .

وأما الكهان من العرب فجاءتهم الجن فيما تسترق السمع ، إذ كانت لاتحجب عن ذلك كما حجبت عند ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثته .

وكان الكاهن والكاهنة لايزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، ولاتلقى العرب لذلك بالا حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرونها فعرفوها ، وهذا فيه تصريح بأن الملائكة كانت تذكره ـ صلى الله

---

(١١٨) خير البشر ص ٣٩

عليه وسالم ـ قبل وجوده . وكانت الجن تسترق بعض تلك الأخبار وتخبر بها .

من أخبار أحبار اليهود

(١) جاء عن سلمة بن سلامة وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بنى عبدالأشهل فَذَكَر عند قوم من أصحاب الأوثان القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار .

فقالوا له : ويحك يافلان ، أو ترى هذا كائنا ان الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم .

قال : نعم ، والذى يحلف به فهل تريدون طريقا للنجاة من تلك النار سيظهر ذلك قريبا .

فقالوا له : ويحك ، ومآية ذلك

قال : نبى يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن .

قالوا : ومن يراه

فنظر إلىّ وأنا من أحدثهم سنا ، فقال : إن يستكمل هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : والله مامضت مدة حتى بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ـ اى ذلك اليهودى ـ بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر بغيا وحسدا ، فقلنا له : ويحك يافلان ، ألست الذى قلت لنا فيه ماقلت قال : بلى ولكن ليس به (١١٩) .

---

(١١٩) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٩٩ ط دار المعرفة ببيروت ـ واسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٢ ص ٤٢٩ ترجمة سلمة رقم ٢١٧٠ .

إنه الحسد الذى حال بين هذا اليهودى وبين الإسلام ، وهذا ماأخبر به القرآن الكريم عنهم حين قال :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾ (١٢٠)

إنهم لم يكتفوا بعدم الإيمان بل تعمدوا التحريف وإخفاء الحقائق وكتمانها ، وليس هذا بجديد عليهم إنه ميراث لهم منذ عهد موسى ـ عليه السلام .

ألم يذهبوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ فيقولوا له : ياموسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك .

فطلب ذلك موسى إلى ربه ـ تعالى ـ فقال : نعم ، مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور ، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا ، فوقعوا سجودا ، وكلمه ربه ـ تعالى ـ فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم ، حتى عقلوا عنه ماسمعوا ، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل ، فلما جاءهم حرَّف فريق منهم ما أمرهم الله به ، وقالوا حين قال موسى لبنى اسرائيل : إن الله قد أمركم بكذا وكذا .

---

(١٢٠) البقرة ٧٥ : ٧٧

قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله : إنما قال كذا وكذا ، خلافا لما قال الله عز وجل لهم .

وقال أبوالعالية ـ فيما يحكيه ابن كثير : عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحرفوه عن مواضعه .

وقال ابن اسحاق روايا ماقاله ابن عباس : إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا أى بصاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لاتحدثوا العرب بهذا ، فإنكم كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم [١٢١]

(٢) وحدث ابن ظفر قال : روى أن أمير المؤمنين عليا ـ رضى الله عنه ـ نزل بالبليخ إلى جنب دير ، فأتاه قيِّم الدير فقال : ياأمير المؤمنين ، إنى ورثت عن آبائى كتابا قديما كتبه أصحاب المسيح ـ عليه السلام ـ فإن شئت قرأته عليك ، قال : نعم ، هات كتابك .

فجاء بكتاب فإذا فيه : الحمد لله الذى قضى فيما قضى ، وسطر فيما سطر أنه باعث فى الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدلهم على سبيل الجنة ، ليس بفظ ولاغليظ ولاصخاب فى الأسواق ولايجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وأمته الحمادون لله فى كل هبوط ونشز وصعود ، ذلّل ألسنتهم بالتكبير والتهليل ، ينصر دينهم على كل من ناوأه .

(٣) وروى عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا جاء الى كعب الأحبار من بلاده باليمن فقال : إن فلانا الحبر اليهودى أرسلنى إليك برسالة :

---

(١٢١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦٥

فقال له كعب : هاتها :

قال الرجل : إنه يقول لك : ألم تكن فينا سيدا شريفا مطاعا فما الذى أخرجك من دينك إلى أمة محمد .

فقال له كعب : أتراك راجعا ؟

قال : نعم .

قال : فان رجعت إليه ، فخذ بطرف ثوبه لئلا يفر منك ، وقل له : يقول لك كعب : أسألك بالذى رد موسى إلى أمه ، وأسألك بالذى فَرَق البحر لموسى ، وأسألك بالذى ألقى الألواح إلى موسى بن عمران فيها علم كل شيء ، ألست تجد فى كتاب الله أن أمة محمد ثلاثة أثلاث • فثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يدخلون الجنة برحمة الله ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة فإنه سيقول لك : نعم . فقل له : يقول لك كعب : اجعلنى فى أى هذه الأثلاث شئت . [١٢٢] .

(٤) قصة فى سبب إسلام أبى بكر

روى ابن الأثير فى أسد الغابة قصة فى سبب اسلام ابى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال : روى عبدالله بن مسعود عن ابى بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه قال : خرجت إلى اليمن فى تجارة قبل مبعث النبى - صلى الله عليه وسلم - فنزلت على شيخ من الأزد عالم ، قد قرأ الكتب وحوى علما كثيرا ، وأتى عليه من العمر ثلاثمائة وتسعون سنة .

فلما تأملنى قال : أحسبك حرميا . أى من أهل الحرم .

قال أبوبكر : نعم ، ، أنا من أهل الحرم .

---

(١٢٢) خير البشر ص ٤١

قال : أحسبك تيميا .

فقلت : نعم ، أنا من تيم بن مرة .

قال : بقيت لى فيك واحدة .

قلت : ماهى

قال : اكشف عن بطنك .

قلت : لاأفعل أو تخبرنى لم ذلك ؟

فقال : إنى أجد فى العلم الصحيح الصادق أن نبيا يبعث فى الحرم ، يعاونه على أمره فتى وكهل ، فأما الفتى فخواض غمرات وكشاف معضلات .

وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة ، وعلى فخذه اليسرى علامة ، فلا عليك أن ترينى ماخفى علىَّ .

قال ابوبكر : رضى الله عنه ـ فكشفت له عن بطنى ، فرأى شامة سوداء فوق سرق .

فقال : أنت هو ورب الكعبة ، وإنى متقدم إليك فى أمر فاحذره .

فقلت : وماهو ؟

قال : إياك والميل عن الهدى ، وتمسك بالطريقة المثلى ، وخف الله ـ عز وجل ـ فيما أعطاك وخولك قال أبوبكر ـ رضى الله عنه : فقضيت باليمن حاجاتى ، ثم أتيت الشيخ لأودعه .

فقال : أحامل أنت منى أبياتا إلى ذلك النبى ؟

قلت : نعم ـ فأنشأ يقول :

ألم ترانى قد سئمت معاشرى . ونفسى وقد أصبحت فى الحى راهنا [١٢٣]

حييت وفى الأيام للمرء عبرة ثلاث مئين ثم تسعين آمنا

وصاحبت أحبارا أناروا بعلمهم غياهب جهل ماترى فيه طابنا [١٢٤]

وكم عفشليل راهب فوق قائم لقيت وماغادرت فى الأرض كاهنا [١٢٥]

فكلهم لما تعطشت قال لى : بأن نبيا سوف يلقاه دائنا

بمكة والأوثان فيها عزيزة فيركسها حتى تراها كوامنا

فمازلت أدعو الله فى كل حاضر حللت به سرا وجهرا معالنا

وقد خمدت منى شرارة قوتى وألفيت شيخا لا أطيق الشواجنا [١٢٦]

وأنت ورب البيت تلقى محمدا بعامك هذا قد أقام البراهنا

فحيِّ رسول الله عنى فإننى على دينه أحيا وإن كنت واهنا

فياليتنى أدركته فى شبيبتى فكنت له عبدا وإلا العجاهنا [١٢٧]

عليه سلام الله ماذر شارق فألق هفهافا من النور هافنا [١٢٨]

وماسنخت بالجهلتين وشيجة وماخلد الطود المتالع عادنا [١٢٩]

---

(١٢٣) راهنا : مقيما ثابتا .

(١٢٤) طابنا : الطابن العارف بالشىء الخبير به

(١٢٥) العفشليل : الجافى الثقيل

(١٢٦)الشواجن : الأرض الغليظة ـ يقصد أنه لايطيق السير فيها لضعفه .

(١٢٧) العجاهن : هو الذى يتلهى ويضحك منه ، وهو فى الأصل رجل يحضر العرس للاضحاك .. يقصد أننى اكون فى خدمته وبعض حاشيته ولو للاضحاك .

(١٢٨) ذر شارق : أشرق صباح ، والق : برق ولمع .
والهفهاف : الرقيق المضطرب والهافن : الضعيف

(١٢٩) سنخت : تغيرت ـ الجهلتين : جانبى الوادى .
الوشيجة : عروق الشجر الملتفة المتداخلة المتالع : المطاول عادنا : مقيما .

قال أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فحفظت وصيته وشعره ، وقدمت مكة ، فجاءنى شيبة بن ربيعة ، وأبوجهل بن هشام ، وأبوالبخترى ، وعقبة بن أبى معيط ، ورجالات قريش مُسَلِّمِين علىَّ .

فقلت : هل حدث أمر ؟

قالوا : حدث أعظم الخطوب ، هذا يتيم أبى طالب زعم أنه نبى أرسله الله إلى الناس ، ولولا أنت ماانتظرنا به ، فإذْ جئت فأنت النهية .

قال : فأظهرت لهم تعجبا ، وصرفتهم فى أحسن حال ، وذهبت أسأل عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم فقيل لى : هو فى منزل خديجة بنت خويلد . فقرعت الباب عليه ، فخرج إلىَّ . .

فقلت : يامحمد ، فقدت من نادى قومك ، واتهموك بالغيبة ، وتركت دين آبائك .

فقال : ياأبا بكر ، إنى رسول الله إليك وإلى الناس كلهم فآمن بالله .

قلت : ومآآيتك

قال : الشيخ الذى لقيته باليمن .

فقلت : وكم من شيخ قد لقيت ، وبعت منه واشتريت ، وأخذت وأعطيت .

قال : الشيخ الذى أخبرك عنى وأفادك الأبيات .

قلت : ومن أخبرك بهذا ياحبيبى

قال : الملك المعظم الذى كان يأتى الأنبياء قبلى .

قلت : أشهد ألا اله إلا الله ، وأنك رسول الله .

قال أبوبكر ـ رضى الله عنه : وانصرفت ومامأحد أشد سرورا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باسلامى .[١٣٠]

(٥) شهادة شيخ من بنى قريظة

وروت السيرة الحلبية قالت : حدث شيخ من بنى قريظة قال : إن رجْلا من يهود أهل الشام يقال له ابن الهيبان ، قدم إلينا قبل الإسلام بسنين ، فحل بين أظهرنا ، والله مارأينا رجلا قط من اليهود أفضل منه .

فأقام عندنا ، فكنا إذا قحط المطر ـ احتبس ـ قلنا له : اخرج يابن الهيبان فاستسق لنا .

فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يدى نجواكم صدقة .

فنقول له :كم

فيقول : صاعا من تمر ، ومُدَّيْن من شعير ، فنخرجها .

ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى لنا ، فوالله مايبرح من محله حتى يمر السحاب ونسقى وقد فعل ذلك غير مرة . ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت قال : يامعشر يهود ماترينه أخرجنى من أرض الخمر والخمير[١٣١] إلى أرض البؤس والجوع

قلنا : أنت أعلم .

قال : فانما قدمت هذه الأرض أتوكف[١٣٢] خروج نبى قد أظلنا زمانه ، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه فقد أظلكم زمانه ، فلا تُسْبَقُن إليه

---

(١٣٠) اسد الغابة فى معرفة الصحابةلابن الاثير جـ ٢ ص ٣٠٩ ط دار الشعب ـ والابيات من ابن ظفر ص ٦٧ .

(١٣١) الخمير : الشجر الملتف

(١٣٢) انتظر واتوقع

يامعشر يهود ، فإنه يبعث بالرسالة الخاتمة فلا تخالفوه ولاتحاربوه حتى لاتسفك دماؤكم وتسبى ذراريكم .

فلما بعث الله رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاصر بنى قريظة قال لهم نفر من هَدَل [١٣٣] .

يابنى قريظة ، والله إنه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم . .

بشريات أخرى :

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنَّ هناك كهانا كانوا يتلقون الأخبار عن توابعهم من الجن ، فيخبرونهم بقرب ظهور نبى آخر الزمان فى مكة . .

ولقد سَرَتْ هذه الأخبار حتى عرفها كثير من العرب ، ومنهم المتحنفون الذين سبق أن تحدثنا عن بعضهم ، ومنهم غير المتحنفين ، ونذكر هنا بعض الشواهد التى تشير إلى ذلك .

حديث ربيعة بن نصر ملك اليمن :

جاء فى سيرة ابن هشام : رأى ربيعة بن نصر ملك اليمن فى منامه رؤيا هالته وفظع بها ، فلم يترك كاهنا ولاساحرا ولا عالما ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها . .

قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها .

قال : إنى انْ أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لايعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها .

---

(١٣٣) هدل ـ بفتح الهاء والدال وقيل بسكونها أخوة بنى قريظة وهم ثعلبة بن سعية واسد بن عبيد

فقال رجل منهم : إن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق ، فإنه ليس أحد أعلم منهما ـ فهما يخبرانه بما سأل عنه .

واسم سطيح : ربيع بن ربيعة بن مسعود الغسانى ـ وسمى بسطيح لأنه كان جسما ملقى لايستطيع الحركة ، ولايقدر على الجلوس إلا إذا غضب .

واسم شق : شق بن صعب بن يشكر من أنمار ، وسمى بشق لأنه كان شق إنسان ـ يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . .

فبعث الملك إليهما . . فجاء سطيح قبل شق ، فقال له الملك : إنى رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبرنى عنها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها .

قال سطيح : رأيت حممة خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة فأكَلَتْ منها كل ذات جمجمة .

فقال الملك : ما أخطأت منها شيئا ياسطيح . فما عندك من تأويلها

قال : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن مابين أبين إلى جرش .

فقال الملك : وأبيك ياسطيح إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن أفى زمانى هذا أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين .

قال أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع

قال : لا ، بل ينقطع بعد بضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال : من يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم

قال : يليه إرم ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع .

قال : ومن يقطعه ؟

قال : يقطعه نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى .

قال : وممن هذا النبى ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ، ويشقى المسيئون .

قال : أحق ماتخبرنى ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

ثم قدم شق . فسأله الملك كما سأل سطيح ، وكتمه ماقال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ؟

فقال شق : رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة .

فلما قال له ذلك ، عرف الملك أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ـ فى المعنى .

فقال الملك : ماأخطأت ياشق منها شيئا ، فما تأويلها

قال : أحلف بمابين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان وليملكن مابين أبين إلى نجران .

فقال الملك : وأبيك ياشق ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشد الهوان .

قال : ومن هذا العظيم الشان ؟

قال : غلام ليس بدنى ولامدن ، يخرج عليهم من بيت ذى يزن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، ويكون الملْك فى قومه إلى يوم الفصل .

قال : ومايوم الفصل ؟

قال : يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس الميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

قال : أحق ما تقوله ؟

قال : إى ورب السموات والأرض ، ومابينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ، مافيه أمض[١٣٥] فسطيح وشق بمالَهُماَ من كهانة قد أُخْبِرا

---

(١٣٥) الروض الانف للسهيلى جـ ١ ص ٢٦

عن طريق تابعيهما من الجن بمبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال السهيلى: لقد ولد سطيح وشق فى اليوم الذى ماتت فيه طريفة الكاهنة، امرأة عمرو بن عامر ودعت قبل أن تموت بسطيح، فأُتيت به، فتفلت فى فيه، وأخبرت أنه سيخلفه فى علمها وكهانتها .. وكانت الكهانة فى العرب قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بعث نبينا وحرست السماء بالشهب ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة بطل علم الكهانة وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذى فرق الله به بين الحق والباطل.

رؤيا مرثد بن عبدكلال:

ومما يقرب من هذه الرؤيا التى رآها ربيعة بن نصر، مارآه مرثد بن عبدكلال (١٣٦) وكان سيدا مطاعا فى قومه .. وكان قد غزا غزوة عاد منها مظفرا، فتوافد عليه زعماء العرب وشعراؤهم وخطباؤهم يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء، واشتد سروره بتقريظ الخطباء والشعراء وبينما هو على ذلك إذ رأى فى منامه ذات ليلة رؤيا أخافته وهالته فى حال منامه، فلما انتبه أنسيها حتى مايذكر منها شيئا.

وثبت ارتياعه لها فى نفسه، فانقلب سروره حزنا، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن.

ثم إنه حشد الكهان، فجعل يدعو بكل كاهن ويقول له: أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه. فيجيبه الكاهن بأنه لا علم عنده بذلك.

---

(١٣٦) هذا الخبر فى كتاب خير البشر ص ٩٦.

حتى انه لم يدع كاهنا عرفه إلا كان منه إليه ذلك الرد . أى أنه لايعلم شيئا عما يريده . . فتضاعف قلقه : وطال أرقه ، وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن إن الكواهن ـ جمع كاهنة ـ أهدى إلى ماتسأل عنه ، لأن اتباع الكواهن ألطف وأظرف من اتباع الكهان .

فأمر الملك بحشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكهان ، فلم يجد عند واحدة منهن ماأراد علمه ولما يئس من معرفة تلك الرؤيا سلا عنها . .

ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، فأوغل فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرأى بعض البيوت فى ذراجبل ، وقد لفحه الهجير ، [١٣٧] ، فعدل إليها ، وقصد بيتا منها كان منفردا عنها .

فبرزت إليه عجوز ، فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المذعذعة ، والعلبة المترعة . [١٣٨] .

فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الريح نام فلم يستيقظ حتى تصرم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلها جمالا ولاقواما .

فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك الهمام ، هل لك فى الطعام فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما أنها قد عرفته ، وتصامم عن كلمتها .

---

(١٣٧) الهجير : الحر .

(١٣٨) الجفنة المذعذعة : التى ملئت ثم حركت حتى تراص مافيها ثم ملئت بعد ذلك ، والعلبة : اناء اللبن ، المترعة : المليئة .

فقالت له : لا حذر ، فداك البشر ، فجدك الأكبر [139] وحظنا بك الأوفر .

ثم قربت إليه ثريدا قديدا وحَيْساً ، وقامت تذب عنه حتى انتهى أُكله ، ثم سقته صريفا وضريبا .[140] فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة ، فملأت عينيه حسنا وقلبه هوى .

فقال لها : ماسمك ياجارية ؟

قالت : اسمى عفيراء .

قال لها : ياعفيراء من الذى دعوت الملك الهمام ؟

قالت : مرثد عظيم الشان ، حاشر الكواهن والكهان ، لمعضلة بَعَلَ [141] بها الجان .

فقال : ياعفيراء ، تعلمين ماتلك المعضلة ؟

قالت : أجل ، أيها الملك الهمام ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام ،

قال الملك : أصبت ياعفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟

قالت : رأيت أعاصير وزوابع ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع ، يقفوها نهر متدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذى

---

(١٣٩) جدك : حظك

(١٤٠) الصريف : اللبن المحض ـ والضريب : اللبن الرائب .

(١٤١) بعل بها : ضاق بها ولم يستطع حلها .

جرس صادع ، هلموا إلى المشارع ، علموا إلى المشارع رَوِى جارع ، وغرق كارع .(١٤٢) .

قال الملك : أجل هذه رؤياى . فما تأويلها

قالت : الزوابع : ملوك تتابع - اى يتبع بعضها بعضا أو جمع تبع من ملوك اليمن - والنهر علم واسع والداعى نبى شافع ، والجارع ولى له يتابع ، والكارع عدو له منازع .

قال الملك : ياعفيراء أسِلْم هذا النبى أم حرب ؟

قالت : أقسم برافع السماء ومنزل الماء من العماء ، إنه لمبطل الدماء غير مفرق بين العقائل والإماء .

قال الملك : إلى ماذا يدعونا ياعفيراء .

قالت : إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام ، واجتناب آثام .

قال الملك : ياعفيراء مَنْ قومه ؟

قالت : مضر بن نزار ، ولهم منه نقع مثار (١٤٣) يجلى عن موت وإسار .

قال : ياعفيراء إذا عاداه قومه فَمَن أعضاده ؟

قالت : أعضاده غطاريف يمانون ، طائرهم به ميمون ، يأمرهم فيطيعون ، ويدمث بهم الحزون (١٤٤) والى نصره يعتزون .

---

(١٤٢) ساطع · مرتفع ، الجرس : الصوت ، المشارع : المداخل الى النهر - ، روى جارع : من شرب جرعا روى ، غرق كارع : من شرب حتى امتلأ غرق .

(١٤٣) النقع المثار : التراب المتصاعد تقصد حروبا تثير الخيل فيه التراب .

(١٤٤)يسهل بهم الصعاب

فأطرق الملك يؤامر نفسه فى خطبتها ، فقالت : أبيت اللعن ، إن تابعى غيور ، ولأمرى صبور ، وناكحى مقبور ، والكَلَف بى ثبور .

فنهض الملك مبادرا ، فجال فى صهوة جواده وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كوماء .

فانظر كيف رأى مرثد رؤياه التى تشير إلى بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستطاعت هذه الكاهنة أن تفسرها له عن طريق تابعها الذى كان يسترق السمع من السماء ، فيخبر بما يسمعه متبوعيه من الكواهن والكهان .

قصة إسلام عروة بن مسعود الثقفى :

ذكر الرواة أن عروة بن مسعود الثقفى كان غائبا عن الطائف حين حاصرها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح مكة ، فلما ارتحل النبى عنها جاء عروة ، فلقى غيلان بن سلمة ، فقال له عروة : ألا ترى علو أمر محمد واتباع الناس له :؟

قال له غيلان : بلى قد رأيت ، فماذا عندك فى أمره ؟
قال عروة : إن العرب يرون أن لنا رأيا ودهاء ، ولسنا كذلك إن لم نتبعه ونؤمن به .

قال غيلان : ما أحب أن يسمع أحد من ثقيف هذا القول منك ، وإنى

لأخافها عليك وان كنت سيدها قال عروة : والله ماينبغى أن تجهل صدق مقالتى وأن محمدا نبى ، وإنى معتمده فمتبعه وذاكر لك أمرا لم أذكره لأحد قط . .

قال غيلان : ماهو ؟

قال عروة : قصدت نجران لتجارة قبل أن يظهر محمد ويخالف قومه ، فغورت تحت سرحة منتبذا [١٤٥] من أصحابى ، فاذا جاريتان تسوقان بَهْماً إلى السرحة ، فحجرتا البهم [١٤٦] فى ناحية من ظل السرحة وجلستا وأنا مضطجع فتناومت .

فقالت إحداهما للأخرى : من هذا يابنة الاكرمين ؟

قالت الأخرى : هذا عروة بن مسعود ، سيد غير مسود ، مفيض جود ، وعصره منجود .

قالت لها : صدقت يابنة الأكرمين فمن أين هوى ؟ وإلى أين نوى ؟

قالت الأخرى : أتى من المعقل المنيف ، طائف ثقيف ، وهو ينوى نجران ذات المخاليف .

قالت : صدقت يابنة الأكرمين ، فما هو مصيب فى سفره هذا ؟

قالت الأخرى : تسهل طريقه ، وتنفق سوقه ، ويعلو فُوُقه [١٤٧] .

---

(١٤٥)غورت : نزلت ـ سرحة : شجرة عظيمة ـ منتبذا : منفردا

(١٤٦) حجرتا : حجزتا وحصرتا .

(١٤٧) الفوق : السهم .

قالت : صدقت ياابنة الأكرمين فما عاقبة أمره ؟ قالت يعيش زعيما ويتبع نبيا كريما ويتعاطى أمرا جسيما فيرتد عنه كليما . . قالت صدقت ياابنة الأكرمين ومن النبى الذى سيتبعه ؟

قالت : الأخرى : داع مجاب ، له أمر عجاب ، يأتيه من السماء كتاب ، يبهر الألباب ، ويقهر الأرباب .

قال عروة : ثم أمسكتا عن القول فغشيني النوم فما أيقظنى إلا رغاء الإبل ، وأصحابى يتحملون ، فاذا الجاريتان قد ذهبتا .

ولما بلغت نجران نزلت على أسقفها وكان صديقا لى ، فقال : يا أبايعفور ، هذا حين خروج نبى من أهل حرمكم يهدى إلى الحق .
قلت : ماهذا الذى تقول ؟

قال : إى والمسيح إنه لخير الأنبياء وآخرهم ، فان ظهر فكن أول من يؤمن به .

وقد كتمت عن ثقيف لِمَا كنت أرى من شدتهم عليه ، وكنت امرءا منهم وأما الآن فإنى معتمدة ومتبعه ومستكثر منه ، فاكتم على مخرجى هذا .
قال غيلان : إنى فاعل ذلك فانصرف راشدا .

فأتى عروة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم وحسن إسلامه .
أما الخطب الجسيم الذى ورد فى خبر هذه الفتاة فقد ذكره الرواة بقولهم :

بعد أن أسلم عروة بن مسعود قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مارأيت يارسول الله مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأْذن لى أن أنطلق إلى قومى بخير ما قَدِم به وافد على قومه ، فلعل الله يهديهم بى .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنهم قاتلوك ياعروة .

فقال عروة : يارسول الله إنى لأعز عليهم من أسماعهم وأبصارهم وأبكار أولادهم . .

ثم استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرة أخرى فقال له : إنهم قاتلوك .

قال : يارسول الله لووجدونى نائما ماأيقظونى .

ثم استأذنه الثالثة ، فقال له : إن شئت فاخرج .

فتجهز عروة للخروج ، فقال له المغيرة بن شعبة : ياعم إنى أريد الخروج معك فى هذا الوجه .

قال له عروة : يابن أخى ، إنى خائف منهم مع شرفى فيهم ، وقد سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول إنهم قاتلوك ـ وقوله الحق ، ولكنى وطنت نفسى على الموت ، ورجوت أن تكون لى شهادة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حى يشهد ويستغفر لى ، وماأحب أن أبقى بعده .

فخرج عروة بن مسعود حتى أتى الطائف عشاء ، فدخل منزله ، ولم

يذهب إلى الرَّبَّة ـ وهى اللات التى كانوا يعبدونها من دون الله ـ فيحلق رأسه عندها كما يصنع قومه عند عودتهم من سفرهم .

فأنكروا ذلك منه ، وتشوفوا له ، وتحدثوا فيه .

وحاولوا أن يلتمسوا له عذرا ـ إذ كان سيدهم ـ فقالوا : لعله عجز عن ذلك لِمَا ناله من نصب السفر . فأتوا منزله فحيوه بتحية الجاهلية فقال لهم : ياقوم ، أتعلمون أنى أوسطكم نسبا وأعزكم نفرا وأكثركم مالا ؟

قالوا : نعم .

قال : فاقبلوا نصيحتى ، فوالله ماقدم وافد بأفضل مما قدمت به عليكم ، واعلموا أن أمر محمد حق . فلما سمعوا مقالته أغلظوا له فى القول وآذوه ، وخرجوا من عنده يأتمرون به .

وبات عروة فى منزله ولما طلع الفجر صعد غرفة له ، فقام على سطحها وأذن ، فتداعت ثقيف لمَّا سمعوا أذانه ـ فأتوه من كل جهة ، فرماه أوس بن عوف من بنى مالك بسهم فقطع أكحله ، ونزف دمه بشدة ولبس قومه السلاح ، وقالوا : نقتل من بنى مالك به عشرة .

فدعاهم عروة وهو فى سكرات الموت وقال : إنى تصدقت بدمى على قاتلى ، وهذه كرامة ساقها الله إلىَّ وقد أخبرنى بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشهد أن قوله حق .

ثم قال لأهله : ادفنونى مع الشهداء الذين قتلوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين حاصرهم ففعلوا ذلك

ولما بلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - أمر عروة قال : مثل عروة فى قومه مثل صاحب يس دعا قومه إلى الله فقتلوه[148] .

لقد استطردنا الى ذكر بقية قصة عروة لما فيها من دلالة على قوة الإيمان التى تجعل صاحبها يستهين بالموت فى سبيل الله ، ويقدم روحه رخيصه فى سبيل المجد الباقى والنعيم الخالد ، ورفعة كلمة الله . . وهى مُثُل نذكر أنفسنا وشبابنا بها لعلنا ننتفع بذلك فنسعى جادين فى سبيل عودة روح الإيمان إلى النفوس وعزة الإسلام إلى القلوب .

لقد وضح بذلك كله أن إنكار المتعصبين الضالين من أهل الكتاب للرسالة المحمدية هو مكابرة لاجدوى فيها ولافائدة منها . فلا يستطيع أحد أن ينكر وجود الشمس . . اللهم إلا أن يكون أعمى البصر والبصيرة .

فالدين الاسلامى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دين ثابت ، وحقيقة واقعة لايستطيع اى عاقل انكاره . ولهذا لم يكن ممكنا ألا يبشر الأنبياء والرسل السابقون بهذا الرسول الخاتم وبذلك الأمر العظيم الذى جاء به ، وذلك لأسباب كثيرة منها :

أولا : لقد أخبر الأنبياء السابقون من بنى إسرائيل ، من أمثال أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى - عليهم السلام - بحوادث متعددة ، مثل : الاخبار

---

(١٤٨) انظر ذلك فى تفسير المنار جـ ٩ ص ٢٩٩ .

باجتياح بختنصر وقورش بيت المقدس ، والإخبار بالحوادث التى حدثت فى أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل . . فمن غير المعقول أن يخبروا بهذه الأحداث ولايخبروا ببعثة النبى - صلى الله عليه وسلم التى ملأت المشارق والمغارب وبلغ دينه شرقا وغربا حتى غلب الأديان وامتد على الزمان وسيمتد ان شاء الله إلى أن يطوى الله الأرض وماعليها . وظهر فى أمته ألوف من العلماء والحكماء والمتخصصين والسلاطين ، وهذه الحادثة تعد أعظم الحوادث ، فكيف يسوغ العقل إخبار هؤلاء الأنبياء عن الأحداث الصغار وترك هذا الحدث الكبير بدون تنبيه أو إخبار[١٤٩] .

ثانيا : النبى المتقدم إذا أخبر عن النبى المتأخر ، لايشترط أن يكون إخباره تفصيليا دقيقا ولكنه يخبر عن أوصاف عامة ، ويترك التفصيلات للخواص يدركونها بالقرائن ، وربما أدى ذلك إلى خفاء هذه الأوصاف على بعض الناس حتى يظهر النبى المخبر عنه فيقول : لقد أخبر النبى السابق بكذا وكذا . .

عند ذلك ينتبهون إلى الأوصاف السابقة فيجدونها مطابقة ، وقد عاتب المسيح - عليه السلام - علماء اليهود الذين أنكروا بعثته ، وأغفلوا الأوصاف التى ذكرت عنه فى كتبهم قال لهم : **ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ، مادخلتم أنتم والداخلون منعتموهم[١٥٠]** .

وحين جاء يوحنا وهو يحيى عليه السلام - ذهب إليه بعض الكهنة اللاويين ليسألوه عن هويته ، ذلك لأنهم لم يحاولوا تطبيق الأوصاف الواردة

---

(١٤٩) لوقا - الباب الحادى عشر - ٥٢ .

(١٥٠) انجيل يوحنا - الاصحاح السابع ٤٠ ، ٤١

عنه عليه ، بل ادعوا الجهل به ، قالوا له : من أنت ؟ هل أنت المسيح ؟ فقال : انى لست المسيح ، فسأوه : هل أنت إيليا ؟ فقال : أنا لست إيليا

فسألوه : هل أنت النبى ؟ النبى بالألف واللام - فأجاب لا . فقالوا له : من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ .

قال : أنا صوت صارخ فى البرية ، اتبعوا طريق الرب كما قال أشعيا النبى . . فسألوه وقالوا : فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبى ؟

والمعروف أن الألف واللام فى كلمة « النبى » للعهد ، يعنى النبى المعهود الذى اخبر عنه موسى - عليه السلام - وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - فذكره هنا يفيد أنهم كانوا على علم به . .

ثالثا : والذين يزعمون أن هل الكتاب حين ناقشوا يحيى - عليه السلام - المناقشة السابقة لم يكونوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وايليا زعمهم باطل ، لأنهم كانوا ينتظرون نبى آخر الزمان كذلك ، وهذا يدل على أن التوراة قد نبهت إليه كما نبهت إلى غيره ممن جاءوا قبله . والمسيح أمره ظاهر ، وأما

إيليا فقد أخبر المسيح - عليه السلام - عنه بأنه هو يحيى نفسه ، ولكن يحيى لم يكن يعلم بذلك ، لأن بعض الأنبياء لايعرفون نبوتهم إلا بعد حين ، وهذا يوضح الفرق بين النبى والرسول .

فلولا أن اليهود كانوا ينتظرون النبى كما كانوا ينتظرون المسيح لما اختلط الأمر عليهم فى شأنهما ، وعلى كل فلم يؤمنوا بواحد منهما ، وكانت نهاية عيسى - عليه السلام - على الصورة التى ذكرها القرآن الكريم عنه .

رابعا : لامجال لادعاء أنه لانبى بعد المسيح عليه السلام - ومن يدع ذلك فادعاؤه باطل فقد عرفنا أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح ، فظهور المسيح لايسقط ظهور غيره الذى كانوا ينتظرونه أيضا

والدليل على ذلك أنهم كانوا يعترفون بنبوة الحواريين ، وهم بعد المسيح - عليه السلام - بل بنبوة غيرهم أيضا ، انظر الى قولهم فى سفر « أعمال لرسل » : « وفى تلك الأيام انحدر الأنبياء من أورشليم إلى طاكية » [151] .

امسا : جرت عادة أهل الكتاب أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، فكثير ن الأخبار الواردة فى حق محمد - صلى الله عليه وسلم - أنكروها أو حرفوها أولوها على أنها واردة فى حق عيسى - عليه السلام .

وقد جرت عادتهم أيضا على أنهم يترجمون الأسماء ويوردون بدلها معانيها كثيرا ما تختلف عبارات المترجمين ومعانيهم حول اللفظ الواحد مما يحدث ضطرابا فى اللفظ والمعنى وقد قصدوا من وراء كل ذلك إخفاء الحقيقة الواضحة ولكن هيهات هيهات فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . . .

---

(١٥١)أعمال الرسل اصحاح ١١

دلائل النبوة

- أخبار سيف بن ذي يزن عبد المطلب بمبعث حفيده .
- رؤيا عبد المطلب .
- انتظار المتحنفين له .
- خبر سواد بن قارب .
- قصة إسلام وائل بن حجر .
- قصة في إسلام عمر رضي الله عنه .
- حديث خريم بن فاتك الأسدي .
- عبد الله بن أبي ذباب يخبر عن سبب إسلام أبيه .



إخبار سيف بن ذى يزن عبدالمطلب بمبعث حفيده :

ذكر البيهقى فى دلائل النبوة وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وغيرهما قالوا : لما ظهر سيف بن ذى يزن على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنتين أتاه وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته وذكر ماكان من بلائه وطلبه بثأر قومه .

وأتاه وفد قريش ، منهم عبدالمطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وعبدالله بن جدعان ، وأسد بن عبدالعزى ، ووهب بن عبدمناف ، وقصى بن عبدالدار . .

هؤلاء هم رؤوس قريش والمقدمون فيهم ، وزهرة بنى هاشم وعبدمناف . . وكان ما قام به سيف بن ذى يزن من عمل بطولى قد نال إعجاب العرب ورضاهم فقدموا إليه من كل فج ، واستقبلهم فى قصر غمدان ، وكان مما قاله أبو الصلت الثقفى فى قصيدة له يمدحه :

لم يدرك الثأر أمثال بن ذى يزن ... لجج فى البحر للأعداء أحوالاً

أتى هرقل لما حان رحلته ... فلم يجد عنده القول الذى قالا

ثم انثنى نحو كسرى بعد تاسعة ... من السنين يهين النفس والمالا

حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم ... انك عمرى لقد أسرعت قلقالا

أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... غادرت أوجههم فى الأرض أفلالا

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً ... فى رأس غمدان دار منك محلالا

ثم اطل بالمسك إذ شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم فى برديك اسبالا

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا [١٥١]

---

(١٥١) شالت نعامتهم : كناية عن رحيلهم وضعفهم وهلكتهم ـ القلقال : شدة الحركة

وكان الملك جالساً فى هذا القصر المنيف ، وقد تضمخ بالعنبر ، والمسك يبدو فى مفرق رأسه ، وقد ارتدى بردين أخضرين ، سيفه بين يديه ، وعن يمينه وشماله الملوك والزعماء . . فأُخْبِر بمكان هؤلاء الوافدين ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، ودنا منه عبد المطلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك .

فتقدم عبدالمطلب وقال : أيها الملك إن الله ـ عز وجل ـ قد أحلك محلاً رفيعاً ، شامخاً باذخاً منيعاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعظمت جرثومته (١٥٢) ، وثبت أصله (١٥٣) ، وبسق وفرعه ، فى أطيب موضع وأكرم معدن ، وأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب الذى له تنقاد وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد بعد رب العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا من بعدهم خير خلف ، فلن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه .

نحن أهل حرم الله ـ تعالى ـ وسدنة بيت الله ، أشخصنا إليك الذى أنهجك (١٥٤) لكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة .

قال الملك : من أنت أيها المتكلم ؟

قال : أنا عبد المطلب بن هاشم .

قال : ابن أختنا ؟

قال : نعم .

قال : ادن منى

---

(١٥٢) الجرثومة : الأصل

(١٥٣) بسق : طال

(١٥٤) أنهجك : هيأ لك طريقاً

ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحباً وأهلاً . . نزلتم أهلاً وحللتم سهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلاً ، وملكاً ربحلا (١٥٥) ، يعطى عطاء جزلاً ، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فإنكم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

ثم نهضوا الى دار الضيافة والوفود ، وأجرى عليهم النزل فأقاموا بذلك شهراً لا يصلون اليه ، ولا يؤذن لهم فى الانصراف .

ثم انتبه لهم انتباهة ، فأرسل إلى عبدالمطلب فأدناه ، ثم قال له : ياعبد المطلب إنى مفض إليك من سر علمى أمراً ، لو غيرك يكون لم أبح له به ، ولكنى رأيتك معدنه، فأطلعتك طلعة فليكن عندك مخبئاً ، حتى يأذن الله عز وجل فيه .

إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى ادخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا خيراً عظيماً ، وحدثاً كبيراً ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة .

فقال له عبد المطلب : مثلك أيها الملك سَرٌ وَبَرٌ ، فما هو فداك أهل الوبر ، زُمراً بعد زُمر .

قال : إذ ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة .

---

(١٥٥) ربحلاً بكسر الراء وفتح الباء : عظيم الشأن كثير العطاء

قال عبد المطلب : أيها الملك لقد أبتُ بخير ماآب وافدُ قَوْمٍ ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من سراره إياى ما أزداد به سروراً .

قال له الملك : هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد ، اسمه محمد يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، قد قرأنا عنه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه يستفتح بهم كرائم أهل الأرض ، يعبد الرحمن ، ويدحض الشيطان ، ويخمد النيران ويكسر الأوثان . . . قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال عبد المطلب : عز جدك ، ودام ملكك ، وعلا كعبك ، فهل يسعدنى الملك بإفصاح ، فقد وضح لى بعض الإيضاح ؟

فقال له الملك سيف بن ذى يزن : والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النقب ، إنى لأرى أنك جده ياعبد المطلب ، غير ذى كذب .

فانحنى عبد المطلب أمامه ، فقال له ابن ذى يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا كعبك فهل أحسست بشىء مما ذكرت لك ؟

قال : نعم ، أيها الملك ، إنه كان لى ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً ، وإنى زوجته كريمة من كرائم قومى : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ـ فجاءت بغلام سميته محمداً ، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه .

قال له ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحفظه ، واحذر عليه من اليهود ، فانهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً ، واطو ماذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تتداخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فينصبون له الحبائل ، ويبغون له الحوائل ، وينصبون له الغوائل ، وإنهم لفاعلون ذلك وأبناؤهم غير شك ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيل ورجل حتى أُصَيِّرَ بيثرب دار ملكى ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصره ، وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنته على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت على أسنان العرب كعبه ، ولكن سأصرف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك .

ثم دعا بالقوم ، فأمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد سود وعشر إماء سود ، وحلتين من حلل البرود وخمسة أرطال من ذهب ، وعشرة أرطال من الفضة ، ومائة من الإبل ، وكرش مملوءة عنبراً (١٥٦) .

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك ، وقال : إذا جاءك الحول فأتنى بخبره ، وما يكون من أمره فمات سيف بن ذى يزن قبل أن يحول عليه الحول .

فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل العطاء من الملك وإن كثر فإنه إلى الفناء ، ولكن يغبطنى بما يبقى لى ولعقبى ذكره ، وفخره ، فإذا قيل : وماهو ؟

---

(١٥٦) الكَرِشُ : وعاء الطيب

يقول : سيعلم ما أقول ولو بعد حين[157] .

لقد سر عبد المطلب حقاً ببشرى سيف بن ذى يزن له ، وعاد من رحلته والسعادة كلها فى ركابه ، ولكن أنّى لسيف بهذه الأنباء ؟

لقد أشار إلى ذلك بأنه من العلم الذى توارثه عن آبائه وأجداده ، ولقد كان سيف من أهل الكتاب . . فقد انتشرت اليهودية فى اليمن ، وكان أحبارهم يتناقلون أسرار التوراة فيما بينهم ، وإلى اليمن زحفت النصرانية التى ترتب عليها حادث الأخدود المشهور ، الذى ذهب ضحيته كثيرون ممن اعتنقوا هذا الدين الذى أقبل إلى نجران ليزاحم اليهودية فى اليمن .

ولا يبعد أن تكون تفصيلات المبعث مذكورة فى الكتب السابقة ، وقد سبق القول بأن أخبار أصحاب هذا الرسول الكريم وأوصافهم فى هذه الكتب أيضاً .

ولكن هل كان عبد المطلب غافلاً عن ذلك كله لا يعلم عنه شيئاً ؟ أغلب الظن أنه كان على يقين بمنزلة حفيده المرتقب ، ولولا ذلك ما أكثر من قوله : إن ابنى هذا سيكون له شأن ستعلمونه بعد حين .

رؤيا عبد المطلب بشأن ابنه :

وكان عبد المطلب قد رأى رؤيا فى منامه ، رأى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، وطرف فى

---

(١٥٧) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٢٩٥ ـ العقد الفريد جـ ١ ص ٩٩

المشرق ، وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها .

فقصها على من عنده علم بتأويل الرؤى ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه : محمداً

وقد ذكر ابن دريد أنه ألقيت عليه جفنة يوم ولادته لئلا يراه أحد قبل جده ، فجاء جده ، والجفنة قد انفلقت عنه ، ولما قيل له : ما سميت ابنك؟ فقال : سميته محمداً . .

فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟
قال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم [١٥٨] .

سوابق الإلهام فى تسميته محمداً :

وإننا لنرى أن كثيراً من الآباء يعدون لأبنائهم الأسماء قبل ولادتهم ذكوراً كانوا أو إناثاً ، ويتخيرون هذه الأسماء وفق بطولات رائعة أو شخصيات لامعة أو معانى راسخة فى أذهانهم يحبون أن تظهر فى الأبناء .

وأحياناً ترتبط هذه التسميات بأحوال معينة عند الولادة لم تخطر على البال ، كأن يطرق طارق اسمه « سعد » الباب عند ولادة طفل فيسمى الرجل ابنه بهذا الاسم تفاؤلاً ، أو يولد فى رمضان فيسميه رمضان ، أو يولد فى العيد فيسميه عيداً . . وهكذا

---

(١٥٨) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٢

وربما رسخ فى ذهن بعض العامة من الجهلاء أن صاحب الاسم الجميل لا يكتب له طول العمر فيعمد إلى اسم غير لامع ليسمى به ابنه حتى يضمن له طول البقاء ، والعصبية الجاهلية القديمة كانت تمنح العبيد أسماء حساناً ، وتحرم الأبناء ذلك ، حتى قيل لأحدهم : لم تسمون أبناءكم حرباً وكلباً وصخراً ، وتسمون عبيدكم رباحاً وبلالاً ومسروراً ؟ فقال : لأنا نسمى أبناءنا لأعدائنا ونسمى عبيدنا لأنفسنا .

وهو تعليل تمليه الجاهلية وتدفع إليه العصبية .

وقد وافق الالهام الفطرى ـ الذى يكاد أن يكون من إملاء الغيب ـ معنى رائعاً وأملاً منتظراً فى اسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين اختار له جده عبد المطلب بن هاشم هذا الاسم العظيم .

واسم محمد مشتق من الحمد على وزن مفعَّل ، قال ابن دريد فى كتاب الاشتقاق ، لما ولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجال قريش ، وكانت سنتهم فى المولود إذا ولد فى استقبال الليل كفأوا عليه جفنة بحيث تسمح بدخول الهواء له وذلك حتى يصبح ، ففعلوا ذلك بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأصبحوا وقد وانشقت هذه الجفنة وهو شاخص إلى السماء . فلما حضرت رجال قريش وطعموا قالوا لعبد المطلب : ما سميت ابنك هذا ؟

قال : سميته محمداً . .

قالوا : ماهذا من أسماء آبائك ؟

قال : أردت أن يكون محموداً فى السموات والأرض [١٥٩] .

وصدق حدس عبد المطلب ، وجاء حفيده محموداً فى الأرض والسماء ، ووافق اسمه ما سطره القلم فى الأزل ونطق به القرآن الكريم على لسان عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [١٦٠]

واذا كانت أقلام الحق ألسنة الخلق فإن لسان عبد المطلب فى تسمية النبى ﷺ كان استجابة لإرادة الله ـ جل وعلا ـ حين أراد أن يكون نبيه ﷺ بهذا الاسم المحمود .

وكانت آمنة حين حملت به أمرت أن تسميه عند ولادته أحمد [١٦١] فلعلها أخبرت جده بذلك فوافق ما ألهمه ما أخبرت به أمه .

تأكيد أن عبد المطلب كان يعرف منزلة حفيده :

سبق أن أشرنا إلى أن سيف بن ذى يزن أخبر عبد المطلب بما سيكون عليه شأن حفيده ﷺ وقد وافق ذلك ماوقع فى روع عبد المطلب .

---

(١٥٩) الاشتقاق لابن دريد ص ٧

(١٦٠) الصف ٦

(١٦١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٦٤ قسم ١

ذكر ابن سعد فى طبقاته قال : كان عبد المطلب إذا ذهب إلى اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير ، فنزل عليه مرة ، فوجد عنده رجلاً من أهل اليمن قد أمهل له فى العمر ، وقد قرأ الكتب فقال له : ياعبد المطلب إنى أرى فيك شيئاً عجيباً . .

قال له عبد المطلب : وما ترى ؟

فقال : أرى نبوة وأرى ملكاً ، وأرى أحدهما فى بنى زهرة .

فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فولدت له محمداً ﷺ

لقد كان عبد المطلب رجلاً حكيماً ذا حس صاف وتجربة صائبة وإلهام صادق . . والعرب يتميزون بالفراسة الصادقة ، فما بالك إذا كان صاحبها حكيماً عظيماً فى قومه تفد إليه الوفود من شتى الجهات فى الموسم فيلتقى بحكمائها وعلمائها وأحبارها ، فيلقون إليه من أخبارهم ما يشاءون ، وبخاصة حول ذلك الحدث الخطير الذى شغل أذهان المستقبلين له وقد أوشك على الظهور ؟

قال ابن سعد أيضاً فيما يحدث به عن مخرمة بن نوفل الزهرى قال : سمعت أمى رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبد مناف تحدث وكانت لدة عبد المطلب ـ قالت : تتابعت على قريش سنون ذهبن بالأموال وشفقن على الأنفس ، قالت : فسمعت قائلاً يقول فى المنام : يا معشر قريش سوف يكون النبى المبعوث منكم ، وهذا إبان خروجه ، وبه يأتيكم الحيا

والخصب ، فانظروا رجلاً من أوسطكم نسباً أبيض مقرون الحاجبين ، أهدب الأشفار جعداً ، سهل الخدين ،فليخرج هو وجميع ولده ، وليخرج من كل بطن رجل ، فتطهروا وتطيبوا ، ثم استلموا الركن ، ثم ارقوا ـ أى اصعدوا ـ رأس أبي قبيس [١٦٢] ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقى وتؤمنون فإنكم ستسقون . .

فأصبحت فقصت رؤياها عليهم ، فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب . .

فاجتمعوا إليه وخرج من كل بطن منهم رجل ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم علوا على أبي قبيس ومعهم النبى ﷺ وهو غلام . .

فتقدم عبد المطلب وقال : اللهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك ، واماؤك وبنات إمائك وقد نزل بنا ما ترى ، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف ، وشقت على الأنفس ، فأذهب عنا الجدب ، واتنا بالحيا والخصب . .

فما برحوا حتى سالت الأودية ، وبرسول الله ﷺ سقوا .

فقالت رقيقة بنت أبي صيفى بن هاشم بن عبد مناف

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا	**وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر**
فجاد بالماء جونى له سبل	**دان فعاشت به الأنعام والشجر**
مَنًّا من الله بالميمون طائره	**وخير من بشرت يوماً به مضر**
مبارك الأمر يستسقى الغمام به	**ما فى الأنام له عدل ولا خطر**

---

(١٦٢) اسم جبل بمكة

انتظار المتحنفين له :

وقد مر بنا القول حول ترقب المتحنفين له ، وتأكدهم من دنو موعد ظهوره ، وذكرنا أسماء بعضهم ونضيف إليهم هنا : أبا قيس صرمة بن أبى أنس بن مالك . .

وكان أبو قيس هذا رجلاً من بنى النجار فى المدينة . . سما بفكره حتى أدرك أن ما عليه الجاهليون ضلال ، وأن مايعبدونه من الأوثان شرك . .

فاعتزلهم . . ولبس المسوح وترهب ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة ، واجتنب الحيض من النساء وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً ، وقال : أعبد رب إبراهيم . .

وله شعر كان يقول فيه :

سبحوا الله عند كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
يابَنِىَّ الأرحام لا تقطعوها ... وَصِلُوها قصيرة من طوال
يابنىَّ النجوم لا تظلموها ... إن ظلم النجوم داء عضال

وظل على ذلك يلتمس الهدى ، وينتظر مبعوث آخر الزمان ، حتى بشر ببعثة النبى ﷺ وهجرته إلى المدينة فآمن به وصدقه وأسلم وقد كبرت سنه ، وقال عن إسلامه وذكر النبى ﷺ :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتياً
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم يلق من يؤمن ولم ير داعياً
فلما أتانا واطمأنت به النوى ... وأصبح مسروراً بطيبة راضياً

وأصبح لا يخشى عداوة واحد قريباً ولايخشى من الناس باغياً
بذلنا له الأموال من جل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآســيا
أقول إذا صليت فى كل بيعــة حنانيك لاتظهر علىَّ الأعاديا(١٦٣)

إنه يتحدث عن تجربته قبل ظهور النبى ﷺ وتجربته بعدها . . ويشير إلى تطلعه إلى رؤية ذلك النبى ﷺ الذى بشرت به الأخبار ، وجاء ذكره على ألسنة الأحبار ، كما يشير إلى خوفه من هؤلاء الأعداء الذين يحاربون هذه البشريات ، بل ويبحثون عمن يؤمنون بها ويدعون لها . . كما حدث من اعتدائهم على زيد بن نفيل وقتلهم له . . ولاذنب له إلا أنه هجر الكفر ونبذ الشرك ودعا إلى عبادة الواحد الأحد . .

تواتر الأخــبار :

لقد أخذت الأخبار بقرب ظهور النبى ﷺ تتواتر وتأخذ صوراً جديدة . . فقد أخذت تظهر على ألسنة الجن الذين كانوا يسترقون السمع قبل بعثته ﷺ

ومن أمثلة ذلك :

خبر سواد بن قارب :

سواد بن قارب الأزدى الدوسى ، كان كاهناً فى الجاهلية . . وحين جاء الاسلام أسلم وحسن إسلامه ولكن إسلامه هذا له قصة غريبة ذكرها الرواة فى كتبهم . .

---

(١٦٣) أسد الغابة جـ٣ ص ١٨

روى ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة قال : دخل سواد بن قارب الدوسى على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال له عمر : ياسواد ، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً ؟

قال سواد : سبحان الله . والله ما اسْتُقْبِلْت من أحد من جلسائى بمثل الذى استقبلتنى به . .

فقال عمر : سبحان الله ياسواد ماكنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك . . . والله ياسواد قد بلغنى عنك حديث عجيب فحدثنيه . .

قال سواد : كنت كاهناً فى الجاهلية ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى رَئِيِّى (١٦٤) ، فضربنى برجله وقال لى ياسواد اسمع ما أقول لك قلت:هات فقال :

عجبت للجن وأنجاسها ... ورحلها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمنوها مثل أرجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينك إلى رأسها

هذه رواية أسد الغابة . أما البيهقى فى دلائل النبوة فيذكر هذه القصة بتفصيل أكثر فيقول : قال سواد : بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، أتانى رئيى من الجن فضربنى برجله فقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى ، اعقل إن كنت تعقل ، انه قد بعث رسول الله ﷺ من لؤى بن

---

(١٦٤) الرئى : التابع من الجن

غالب يدعو إلى الله عز وجل ، وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلا بها وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كأذنابها

فقلت : دعنى أنام فانى أمسيت ناعساً . .

فلما كانت الليلة الثانية أتانى ، فضربنى برجله وقال قم ياسواد بن قارب ، فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ، انه قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، يدعو إلى الله عز وجل والى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتخبارها وشدها العيش بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمن الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روابيها وأحجارها

فقلت : دعنى أنام فإنى أمسيت ناعساً .

فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى ، وأعقل إن كنت تعقل ، انه قد بعث رسول من لؤى ابن غالب ، يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما خُيِّر الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم وارم بعينيك إلى رأسها

فقمت فقلت : قد امتحن الله قلبى ، فرحلت ناقتى ثم أتيت المدينة ، وفى رواية حتى أتيت مكة ، وهى أقرب إلى الصحة من الأولى ، لأن الجن إنما جاءت الى النبى ﷺ للإيمان به فى مكة .

يقول سواد : فوصلت فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه حوله ، فلما رآنى قال : مرحبا بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ماجاء بك . .

قلت يارسول الله قد قلت شعراً ، فاسمع مقالتى فقال : هات فأنشأت أقول :

أتانى رئيى بعد ليل وهجعة ... ولم يك فيما قد تلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤى بن غالب
فشمرت عن ساقى الإزار وَوَسَّطت ... بى الذعلب الوجناءَ بين السباسب[165]
فأشهد أن الله لا رب غيره ... وأنك مأمون على كل غائب
وانك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى الله يابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل ... وان كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال : ففرح النبى ﷺ وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً حتى رؤى الفرح فى وجوههم .

وقال : أفلحت يا سواد

---

(١٦٥) الذعلب : الناقة السريعة ، والوجناء : الصحراء - والسباسب : مفردها : سبسب وهى المفازة والأرض القفر

فرأيت عمر ـ رضى الله عنه ـ التزمه ، وقال : لقد كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك ، فهل يأتيك رَئِيُّك اليوم ؟

قال : منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله ـ عز وجل ـ ولما مات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخشي سواد على قومه من الردة قام فيهم خطيباً فقالْ :

يامعشر دوس ، من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم ، ومن شقائهم الا يتعظوا إلا بأنفسهم ، وان من لم تنفعه التجارب ضرت به ، ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل ، وانما تسلمون اليوم بما أسلمتم به أمس ، ولا ينبغى لأهل البلاء إلا أن يكونوا أذكر من أهل العافية للعافية ، ولست أدرى لعله يكون للناس جولة فإن لم تكن فالسلامة منها الأناة ، والله يحبها فأحبوها .

فأجاب القوم بالسمع والطاعة (١٦٦)

ولقد كثر هذا اللون من الإخبارات حتى وردت فيه أحاديث طريفة منها :

أن الجن كانت تتكلم من داخل الأصنام لتضل أصحابها ، فلما رميت بالشهب ، وبلغتهم الرسالة أخذت تنذر الناس ، وتخبرهم ببعثة النبى ﷺ

قصة إسلام وائل بن حجر :

كان وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمى قيلاً من أقيال حضرموت ، وكان أبوه من ملوكهم .

---

(١٦٦) دلائل النبوة جـ ١ ص ٣٢٢

وقد قص ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة قصة وفادته على النبى ﷺ ليعلن إسلامه فقال :

وفد وائل على رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد بشر أصحابه بقدومه قبلَ أن يصل بأيام ، وقال : يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة : من حضرموت طائعاً راغباً فى الله ـ عز وجل ـ وفى رسوله ، وهو بقية أبناء الملوك .

فلما دخل وائل على النبى ﷺ رحب به وأدناه من نفسه وقرب مجلسه وبسط له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه ، وقال : اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده .

واستعمله النبى ﷺ على الأقيال من حضرموت وأقطعه أرضاً ، وأرسل معه معاوية بن أبى سفيان ، وقال : أعطها إياه . . . فخرج وائل راكباً ، وكان معاوية راجلاً : فقال له معاوية : أردفنى خلفك ـ وشكا إليه حر الرمضاء ـ فرفض وائل .

وقال له : سر فى ظل الناقة

قال : وما يغنى ذلك عنى ؟

وكان وائل قد قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن أهلى غلبونى على الذى لى ، فقال له النبى ﷺ : أنا أعطيك ضعفه .

وعاش وائل حتى أدرك أيام معاوية ، ووفد عليه ، فأحسن معاوية استقباله وأجلسه معه على السرير وذكّره ما جرى بينهما ، فقال وائل : وددت

لو أنى كنت حملتك بين يدى[167]

هذا مارواه ابن الأثير ، أما قصة إسلامه فلنستمع إلى مارواه ابن ظفر فيها قال :

كان وائل بن حجر ملكاً مطاعاً ، وكان له صنم من العقيق الأحمر يعبده ويحبه حباً شديداً ، وكان يتمنى أن يكلمه الصنم أو يرد عليه لذلك كان يكثر من السجود له ، ويعقر له العقائر وهى ذبائح كانوا يتقربون بها إلى الأصنام .

وبينما هو نائم فى الظهيرة أيقظه صوت منكر من المخدع الذى فيه الصنم .

فقام من مضجعه وأتاه فسجد بين يديه ، واذا بقائل يقول :

واعجبا لوائل بن حُجْرِ يخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا يُرَجَّى من نحيت صخر ليس بذى عُرف ولا ذى نكر
ولا بذى نفع ولا ذى ضر لو كان ذا حِجْرٍ أطاع أمرى[168]

قال وائل : فرفعت رأسى ، واستويت جالساً ثم قلت : قد سمعت أيها الناصح فماذا تأمرنى ؟

قال :

---

(١٦٧) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٣٥ ترجمة رقم ٥٤٣٦
(١٦٨) حِجر : عقل

ارحل إلى يثرب ذات النخل وسر إليها سير مُشْمَعِل [١٦٩]
قبل تقضى العُمُر المولى تدن بدين الصائم المصل
محمد المرسل خير الرسل

قال وائل : ثم خر الصنم لوجهه وانكسر أنفه ، واندقت عنقه ، فقمت إليه فجعلته رُفَاتاً ثم سرت حتى أتيت المدينة ، وأتيت المسجد ، فلما رآنى رسول الله ﷺ أدنانى وبسط رداءه ، فجلست عليه ، ثم صعد المنبر وأقامنى دونه ثم قال : أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة حضرموت ، راغباً فى الإسلام .

فقلت : يارسول الله ، بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم ، فمنَّ الله علىَّ أن رفضت ذلك كله وآثرت دين الله .

قال : صدقت ، اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده .

قال وائل : فما لقينى أحد من أصحابه إلا قال لى : بشرنا بك رسول الله ﷺ قبل قدومك بثلاث [١٧٠]

قصة فى إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ :

قد ذكر الرواة أسباباً متعددة فى إسلام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ والمشهور منها أنه توجه لقتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقيه فى طريقه

---

(١٦٩) مشمعل : سريع نشيط
(١٧٠) خير البشر ص ١١٣

رجل سأله عن وجهته ، فأخبره بما هو قاصد إليه ، فقال له الرجل : ألم تعلم أن أختك وزوجها قد أسلما ؟

فغير اتجاهه ، وقصد إلى بيت أخته غاضباً ، وفى بيتها سمع القرآن الكريم فلان قلبه وهداه الله إلى الإسلام .

ويذكر العقاد ـ رحمه الله ـ أن عمر كان معجبا بالقرآن فكان يختبىء بين أستار الكعبة ليصغى إلى النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن بالليل فتمتلىء نفسه رضا بما يسمع .. وكان ذلك مقدمة لإسلامه ..

أما الذى لم يشتهر فى سبب إسلامه فهو مايقصه ابن ظفر فيمايلى :

قال : روى عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ توجه عمر لما ضمنه لقريش من قتل رسول الله ﷺ فمر بقوم من خزاعة قد اعتمدوا صنماً لهم كانوا يريدون أن يتحاكموا إليه ، فقالوا لعمر : ادخل معنا لتشهد الحكم .

فلما مثلوا أمام الصنم سمعوا هاتفاً يقول :

يا أيها الناس ذوو الأجسام ... ما أنتم وطائش الأحلام

ومسند الحكم إلى الأصنام ... أصبحتم كراتع الأغنام

أما ترون ما أرى أمامى ... من ساطع يجلو دجى الظلام

قد لاح للناظر من تهامى ... وقد بدا للناظر من شآمى

محمد ذو البر والاكرام ... أكرمه الرحمن من إمام

قد جاء بعد الشرك بالإسلام ... يأمر بالصلاة والصيام

والبر والصلات للأرحام ... ويزجر الناس عن الآثام

فبادروا سبقاً إلى الاسلام ... بلا فتور وبلا إحجام

قال : فتفرق القوم عن الصنم ، ولم يحضره يومئذ أحد إلا أسْلم . .

ثم إن ابن عباس - رضى الله عنهما - ذكر انطلاق عمر - بعد ذلك - إلى منزل أخته زوج سعيد بن زيد ،وامتحانه إياها على إسلامها ، ومبيته عندها ، وأنه لما أصبح سأل عن النبى ﷺ أين هو؟

فأخبر بأنه فى منزل عمه حمزة ، فخرج من بيت أخته واضعاً سيفه على عاتقه ، فلقيه رجال من بنى سليم قد تنافروا إلى صنم لهم ليحكم بينهم اسمه (الضمار)

فدعوا عمر إلى الدخول معهم إليه ففعل ، ولما قاموا بين يدى الصنم سمعوا هاتفاً من جوفه يقول :

أودى الضمار وكان يعبد مرة قبل الكتاب وقبل بعث محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهتدى
سيقول من عبد الضمار ومثله ليت الضمار ومثله لم يعبد
أبشر أبا حفص بدين صادق تهدى اليه وبالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلاً إنه يأتيك عز فوق عز بنى عدى
لا تعجلن فأنت ناصر دينه حقا يقينا باللسان وباليد[١٧١]

فعجب القوم ، وانكسر عمر - رضى الله عنه - وأذهب الله ما كان فى نفسه من عداوة النبى ﷺ

---

(١٧١) خير البشر ص ١١٢

إن هذه الروايات - إن صحت - فهي إرهاصات حركت دوافع الإيمان فى نفس عمر ليقوم بدوره الكبير فى بناء هذا الدين ، ذلك الدور الذى أعده

له القدر ، وليس عجيباً أن يسوق الله حديثاً على لسان هذا الجنى الذى يسكن ذلك الصنم فى المرتين ، لينذر عباده عامة وعمر خاصة حتى يقلع عما كان فى نفسه من عزم وتصميم وتعهد لقريش بأن يخلصها من هذه الدعوة الجديدة .

وما كان لعمر أن يغير اتجاهه هذا إلا بإنذار غريب بصورة غريبة .

وقد تكون هذه الأبيات الشعرية التى ذكرت والتى قيل ان عمر فقد سمعها وكانت من أسباب تغيير وجهته من الكفر إلى الإيمان ومن الخير إلى الشر ، نقول قد تكون هذه الأبيات لرجل من المتحنفين الموحدين الذين كانوا يعرفون نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته وكان عمر يسمع هذه الأبيات ويحفظها ، فلما وقف أمام الصنم وفكر بعقله أدرك مدى سخف هذه العقول التى تعتقد فى حجارة صماء فتذكر هذه الأبيات التى تدعو الى الإيمان الصحيح وذكرها بقلبه ولسانه وفكر فيها بعقله وكأنه يسمعها فكانت بداية الهداية إلى طريق النور . .

حول إسلام تميم الدارى - رضى الله عنه - :

أما تميم بن أوس بن خارجة الدارى فقد كان يدين بالنصرانية وأسلم سنة تسع من الهجرة ويُذكر فى سبب إسلامه القصة التالية :

روى الواقدى عن خالد بن سعيد عن تميم الدارى قال : سرت إلى الشام فأدركنى الليل فأتيت وادياً فقلت : أنا فى جوار عظيم هذا الوادى الليلة .

فلما أخذت مضجعى إذ بصوت أسمعه دون أن أراه يقول : عذ بالواحد الأحد ، فإن الجن لاتجير على الله أحداً ، وأنه قد خرج رسول الأميين وصلينا بالحجون وأسلمنا واتبعناه وآمنا به وصدقناه ، فأسلم تسلم . .

قال تميم : فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب ، فسألت الراهب الموجود به عما سمعت من الهاتف .

قال : صدق يخرج خير الأنبياء من الحرم ، ويهاجر إلى الحرم فلا تُسْبَق إليه .

فسرت إلى مكة فلقيت النبى ﷺ وكان مستخفياً فآمنت به .

وكان تميم ـ رضى الله عنه ـ كثير التهجد بعد إسلامه ، وهو أول من أسرج السراج فى المسجد ، وأقام بفلسطين وأقطعه النبى ﷺ أرضا وكتب له كتاباً بذلك .

وروى عدة أحاديث عن النبى ﷺ وقد ذكر للنبى ﷺ حديث الجساسة وهى الدابة التى رآها فى إحدى جزر البحر ، وسميت بذلك لأنها تجس أخبار الدجال :

قال ابن الأثير : وهو حديث صحيح (١٧٢)

لقد كان إسلام تميم - رضى الله عنه - نتيجة دليلين .

أما أحدهما فهو إخبار الجن له : بمبعث النبى ﷺ

وثانيهما إخبار الراهب له بذلك ، وقد جاء ذلك موافقاً لما علمه من الكتب التى درسها ، والتى كانت سبباً فى إسلام كثير من أهل الكتاب الذين لم يحجبهم الحقد والحسد والتعصب الأعمى ، ولكن الهدى هدى الله .

حديث خريم بن فاتك الأسدى :

ذكر ابن الأثير فى ترجمة مالك بن مالك الجنى خبراً عجيباً قال فيه :

روى محمد بن خليفة الأسدى عن الحسن بن محمد ، عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ذات يوم لابن عباس - رضى الله عنهما - حدثنى بحديث تعجبنى به - فقال : حدثنى خريم بن فاتك الأسدى قال : خرجت فى ابتغاء أبل لى ، فأصبتها بأبرق العزاف (١٧٣) ، فعقلتها وتوسدت ذراع بكر منها ، وذلك حدثان (١٧٤) خروج النبى ﷺ ثم قلت : أعوذ بكبير هذا الوادى ، - وكذلك كانوا يفعلون - فإذا هاتف يهتف بى ويقول :

ويحك عذ بالله ذى الجلال ... منزل الحرام والحلال

ووحد الله ولا تبال ... ماهول ذى الجن من الأهوال

---

(١٧٢) أسد الغابة جـ ١

(١٧٣) أبرق العزاف : ماء لبنى أسد بن خزيمة ، وهو فى طريق القاصد إلى المدينة من البصرة

فقلت :

يأيها الهاتف ما تخـــيل أرشـــد عـــندك أم تضـــليل ؟

فقال :

هذا رسول الله ذو الخـــيرات جـــاء بياســـين وحاميمات

وســـور بعـــد مفصـــلات محـــرمات ومحـــللات

يأمـــر بالصـــوم والصـــلاة ويزجر الناس عن الهنات[175]

قال : قلت : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا مالك بن مالك ، بعثنى رسول الله ﷺ على جن أهل نصيبين . .

قال : قلت : لو كان لى من يكفينى إبلى هذه لأتيته حتى أومن به .

قال : أنا أكفيكها حتى أؤديها إلى أهلك سالمة ، إن شاء الله تعالى ـ

فاعتقلت بعيراً منها ، ثم أتيت النبى ﷺ فوافقت الناس يوم الجمعة وهم فى الصلاة ، فبينما أنيخ راحلتى إذ خرج أبو ذر فقال لى : يقول لك رسول الله ﷺ ادخل ، فدخلت ، فلما رآنى قال : ما فعل الشيخ الذى ضمن أن يؤدى إبلك إلى أهلك ؟ أما إنه قد أداها إلى أهلك سالمة .

فأسلم خريم رحمه الله وحسن إسلامه[176]

لقد آمن كثير من الجن إذن برسول الله ﷺ وقد أُرْسِلَ إليهم كما أرسل إلى الإنس ، وقد تحدثنا عن ذلك فى حديثنا السابق عن الجن .

---

(١٧٤) حدثان : أول خروجه

(١٧٥) الهنات : جمع هنة ، وهى السيئة والأمور المعيبة والقبيحة

(١٧٦) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٧

وفى هذا الخبر دليل جديد يؤيد ما سبق ، وفيه من الجديد أن النبى ﷺ اختار منهم من يتولى أمرهم ، فهو لم يكتف بتبليغ الرسالة إليهم بل جعل منهم نقباء وولاة ، وهذا مالك بن مالك قد بعثه الله على جن نصيبين .

وكان الجن يتوافدون على النبى ﷺ ليتعلموا الدين ويتفقهوا فيه ، وذلك من دلائل نبوته ورسالته العامة ﷺ

ولئن كان سليمان ـ عليه السلام ـ قد سخر الله له الجن يعملون بين يديه ماشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بعث نبيه محمداً ﷺ إلى الجن هادياً ومبشراً ونذيراً . .

والله ـ تعالى ـ يقول :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ (١٧٧)

خبر هامة بن الهيم :

وأورد ابن الأثير كذلك خبراً عن الهامة بن الهيم بن لاقيس فى سند متصل ذكره بأنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال :

---

(١٧٧) الأحقاف ٢٩ : ٣٢

كنت مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خارجاً من جبال مكة ، إذ أقبل شيخ متكىء على عكازه ، فقال : النبي ﷺ مشية جني ونغمته . .

قال : أجل

قال : من أي الجن أنت ؟

قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس

قال : لا أرى بينك وبينه إلا أبوين

قال : أجل

قال : كم أتى عليك ؟

قال : أكلت عمر الدنيا إلا أقلها ، كنت وقت قتل قابيل هابيل غلاماً ابن أعوام ، وذكر أنه تاب على يد نوح ـ عليه السلام ـ وآمن معه ، وأنه لقى شعيباً ـ عليه السلام ـ وإبراهيم الخليل ـ صلى الله على نبينا وعليه وسلم ـ أفضل الصلاة والسلام ، ولقى عيسى ـ عليه السلام ـ فقال له عيسى : إن لقيت محمداً فأبلغه منى السلام ، وقد بلغت وآمنت بك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عيسى السلام وعليك ياهامة

وعلمه رسول الله ﷺ عشر سور من القرآن الكريم ، قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : فمات رسول الله ﷺ ولم ينعه لنا ، ولا أراه إلا حيا (١٧٨)

---

(١٧٨) أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٧٩

وقد لا يوافق البعض على صحة هذا الخبر ، لبعده عن نطاق العقل ، ولكن الإعجاز النبوى لا يعارضه ، وقد ثبت أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يلقى الجن ويحادثهم ويحادثونه ، ولقد حكموه فى خلاف بينهم ، فقد روى بلال بن الحارث قال : نزلنا مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره فى مكان يسمى العرج ، فتوجهت نحوه فلما قاربته سمعت لغطاً وخصومة رجال لم أسمع أَحَدًّ من ألسنتهم ، فوقفت حتى جاء النبى ﷺ وهو يضحك ، فقال : اختصم إلىَّ الجن المسلمون والمشركون ، وسألونى أن أسكنهم فأسكنت المسلمين من الجلس وأسكنت المشركين الغور (١٧٩)

عبد الله بن أبي ذباب يخبر عن سبب إسلام أبيه :

روى قتادة بن دعامة السدوسى عن عبد الله بن أبي ذباب السعدى عن أبيه قال :

كنت مولعاً بالصيد ، وكان لنا صنم اسمه « فراض » كنت كثيراً ما أذبح له ، ولم أكن أتخذ جارحاً للصيد إلا رمى بآفة ، ولم أكن أدخل إلى الحى بصيد حى إلا ما ندر لأنى كنت لا أدركه إلا وقد أشرف على الهلاك .

فلما طال بى ذلك أتيت فراضاً فعترت له عتيرة (١٨٠) ولطخته من دمها وقلت :

فـراض أشكو أنكـد الجـوارح من طـائر ذى مخـلب ونابـح
وأنت للأمـر الشـديد الفـادح فافتح فقد أسـهلت المفاتـح

(١٧٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ١ ، والجلس كل مرتفع من الأرض والغور : كل منخفض
(١٨٠) العتيرة : القربان يذبح على الصنم

وظل أمرى على ذلك مدة من الزمن حتى أصبت كلباً خلاسياً بهيماً عظيماً ، أهرت الشدقين ، شابك الأنياب غليظ البراثن [١٨١] ، أشعر مهول المنظر .

فصفرت به فأتى فلاذ بى فسميته « جياضا » واتخذت له مربطاً بازاء فراشى وأكرمته ثم خرجت إلى الصيد ، فإذا هو أبصر بالصيد منى ، وكان لايثبت له شيء من الوحش ، فقلت فيه :

جـياض إنك مـأمول منافـعه ..... وقد جـعلتك موقوفاً لفـراض

فكنت أعتر أى أذبح لفراض من صيده ، وأقرى الضيف ، فلم أزل به من أوسع العرب وأكثرهم ضيفاً ، إلى أن ظهر رسول الله ﷺ فنزل بى ضيف كان قد رأى رسول الله ﷺ وسمع منه القرآن ، فحدثنى عنه فرأيت جياضاً كأنه ينصت لحديثه .

ثم إنى غدوت اقتنص بجياض فجعل يجاذبنى ويأبى أن يتبعنى ، فأجذبه وأمسحه ، إلى أن عنَّ لى تولب [١٨٢] ، فأرسلته عليه فقصده ، حتى إذا قلت قد أخذه حاد عنه ، فساءنى ذلك ، ثم إنى أرسلته على رأل [١٨٣] ، فصنع مثل ذلك .

ثم أرسلته على بقرة ، ثم على خشف [١٨٤] كل ذلك لا يأتى بخير فقلت :

---

(١٨١) خلاسيا : مختلفاً بين لونين ـ أهرت : واسع ـ البراثن : الأظافر

(١٨٢) عن : ظهر ـ التولب : الجحش من حمر الوحش

(١٨٣) الرأل : فرخ النعام

(١٨٤) الخشف : بكسر الخاء ـ ولد الظبى

ألا ما لجياض يحيد كأنما يرى الصيد ممنوعاً بزرق اللهازم [185]

قال : فأجابنى هاتف لا أراه فقال :

يحيد لأمر لو بدا لك غيبه لكنت صفوحاً عاذراً غير لائم

قال : فأخذت الكلب وانكفأت راجعاً ، فإذا شخص عظيم الخلق قد ركب حماراً وحشياً فتربع على ظهره وهو يساير شخصاً مثله يركب على قرهب [186] ، وخلفهما عبد أسود يقود كلباً عظيماً بساجور [187] ، فاشار أحد الراكبين إلى جياض ، وأنشد ، وجعل يقول :

ويلك جياض لم تصيد ؟ اخنس وحد عما حوته البيد

الله أعلى وله التوحيد وعبده محمد السديد

سحقاً لفراض وما يكيد قد ظل لا يبدى ولا يعيد

قال : فملئت رعباً ، وذل الكلب فما يرفع رأساً ، وأتيت أهلى مغموماً كاسفاً ، فبت أتململ على فراشى من آخر الليل ، فإذا نغمة ، ففتحت عينى ، فرأيت الكلب الذى كان العبد الأسود يقوده ، واذا جياض يقترب منه ثم قصدنى جياض فتأملنى ورجع اليه ، ثم سارا معاً . .

فقمت أنظر فلا عين ولا أثر

---

(١٨٥) زرق اللهازم : السيوف القواطع

(١٨٦) قرهب : ثور ضخم

(١٨٧) الساجور : القلادة أو الخشبة فى عنق الكلب

ولما أصبحت أخبرت قومى بما رأيت وسمعت وقلت لهم : تخيروا من ينطلق معى إلى هذا النبى من حكمائكم وخطبائكم ، فقالوا : ترغب عن دين آبائك ؟

فقلت لهم : إذا كرهتم شيئاً كرهته ، فما أنا إلا واحد منكم ، ثم انسللت منهم ، فكسرت الصنم ، ثم قصدت المدينة ، فقدمتها ورسول

الله ﷺ يخطب فجلست بإزاء منبره ، فعقب بأن قال : بازاء منبرى رجل مَن سعد العشيرة قدم راغباً فى الإسلام ، ولم يرنى ولم أره إلا هذه الساعة ، ولم أكلمه ، ولم يكلمنى قط ، وسيخبركم خبراً عجباً .

ونزل فصلى ، ثم قال ادن ياأخا سعد الشعيرة ، فدنوت فقال : أخبرنا خبر جياض وفراض ، وما رأيت وسمعت .

قال : فقمت على قدمى فقصصت القصة ، والمسلمون يسمعون ، فسرَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعانى إلى الإسلام وتلا على القرآن فأسلمت على يديه وقلت فى ذلك :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى ... وخلفت فراضاً بدار هوان
شددت عليه شدة فتركته ... كأن لم يكن ، والدهر ذو حدثان
رأيت له كلباً يقوم بأمره ... يهدد بالتنكيل والرجفان
فلما رأيت الله أظهر دينه ... أجبت رسول الله حين دعانى

وأصبحت للإســلام ماعشت ناصراً وألقيت فيه كلكلى وجرانى [188]

فمن مبــلغ ســعد العشيرة أننى شريت الذى يبقى بما هو فانى [189]

وإنا لنرى فى هذه القصة من علامات النبوة ملامح كثيرة .

منها إيمان الجن بالنبى ﷺ

ومنها تجنيد المؤمنين من الجن لإعلان إخوانهم بنبوة محمد ﷺ ودعوتهم إلى الإسلام ، وترك خدمة الأصنام .

ومنها معرفة النبى ﷺ بهذا الخبر قبل أن يحضر صاحبه ، وإخبار أصحابه به ودعوته إلى قص خبره الغريب عليهم .

إن ما ذكرناه من دلائل تشير إلى أن نبوة محمد ﷺ كانت معروفة لكثير من الناس قبل بعثته وذلك عن طريق الأخبار التى وردت فى الكتب السابقة التى يعلمها علماء أهل الكتاب ، ومن تلقاها عنهم من غيرهم ، أو عن طريق الجن الذين سمعوا بخبر النبى ﷺ من السماء حين كانوا يسترقون السمع فعادوا إلى كهانهم يخبرونهم بذلك .

وهناك دلائل فى حياة النبى ﷺ نفسه تشهد له بأنه هو النبى المنتظر وهناك إرهاصات كثيرة قدمت لمولده وبعثته ، وهو مانتحدث عنه فيمايلى .

---

(١٨٨) الكلكل : الصدر ـ والجران : مقدم العنق

(١٨٩) أسد الغابة جـ ٦ ص ٩٩ وخير البشير ١٢٧

إرهاصات النبوة

- أخذ الميثاق على الرسل .
- تبشير الأنبياء به .
- رصد الكهان للنجوم .
- علامات النبوة فى جبهة الآباء .
- ما رأته آمنة بنت وهب من علامات النبوة .
- تنكيس الأصنام .
- هلاك أصحاب الفيل .
- ترصد اليهود له .

إرهاصات النبوة

جاء فى كتب اللغة : رهصه فى الأمر استعجله فيه ،
وأرهصه الله للخير أى جعله معدناً له
ويقال : رهصنى فلان بحقه أى أخذنى أخذاً شديداً
والإرهاص : الإثبات
والرهص أيضاً تثبيت البنيان

هذا بعض ماجاء فى مادة « رهص » فى اللغة ، ومن هذه المعانى ندرك المقصود من إرهاصات النبوة ، فهى إعداد لها ، واستعجال لها ، واثبات وتبييت لها . . . ومن يتابع حياة النبى ﷺ قبل مولده وبعد مولده وقبل بعثته وبعد بعثته يستنبط آيات متعددة منها تشهد له بالنبوة ، وتؤكد أنه جدير بها ومختار لها منذ الأزل .

اختيار منذ الأزل :

وردت عدة أحاديث تذكر أن الله سبحانه وتعالى ـ اختار نبيه قديماً ، وأخر ظهوره إلى آخر الزمان لتكون رسالته المختارة خاتمة الرسالات السماوية التى يقول الله فى حقها :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ ﴾ (١٩٠)

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ وقد سئل متى كنت نبياً ؟ قال :

« كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » (١٩١)

ومنها :

« كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث » (١٩٢)

ومنها :

« كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » (١٩٣)

ومنها :

« وكنت وآدم فى الجنة فى صلبه ، وركب بى نوح السفينة وأنا فى صلبه ، وقذف بى فى النار فى صلب أبى إبراهيم ، لم يلتق أبواى قط على سفاح ، لم

---

(١٩٠) المائدة ٣

(١٩١) الحديث فى الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ٤١ فى ترجمة عبد الله بن أبى الجدعاء العبدى قال : قلت يارسول الله متى كنت نبيا ؟ قالَ : إذ آدم بين الروح والجسد ، وأورده الطبرانى فى الكبير جـ ١٢ ص ٩٢ برقم ١٢٥٧١ وفى الأوسط برقم ٣١٣ ، وفى مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٢٢٣ تحت عنوان : قدم نبوته ، ورواه السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٦٤٢٤ ورمز له بالصحة .

(١٩٢) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٩٦ بعنوان نبوة رسول الله ﷺ وفى الجامع الصغير برقم ٦٤٢٣ عن قتادة

(١٩٣) أخرجه ابن لال عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة فى جمع الجوامع برقم ٤٤١/١٦٨٣٤ ، وذكره المناوى عند شرحه للحديث السابق .

يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفًى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما ، قد أخذ الله بالنبوة ميثاقى ، وبالإسلام عهدى ، ونشر فى التوراة والإنجيل ذكرى ، وبيَّن كل نبى صفتى ، تشرق الأرض بنورى ، والغمام لوجهى وعلمنى كتابه ، ورقانى فى سمائه ، وشق لى اسما من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد ، ووعدنى أن يَحْبُونِ بالحوض والكوثر وأن يجعلنى أول شافع وأول مشفع ، ثم أخرجنى من خير قرن لأمتى ، وهم الحمادون ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (١٩٤)

وجاء فى كتاب المواهب اللدنية : « أن الله أنزل على آدم عصيا بعدد الأنبياء والمرسلين ، ثم أقبل آدم على ابنه شيث فقال : ابنى أنت وخليفتى من بعدى ، فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى ، وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإنى رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش ، وأنا بين الروح والطين ، ثم إنى طفت السموات فلم أر فى السموات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه ، وإن ربى أسكننى الجنة فلم أر قصراً ولا غرفة إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه ، ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على ورق قصب آجام الجنة ، وعلى ورق شجرة طوبى ، وعلى ورق سدرة المنتهى ،

---

(١٩٤) الحديث فى تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ١ ص ٣٤٩ ـ باب ذكر مولده وطهارة أصله وكرم محتده عن ابن عباس قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت فداك أبى وأمى يارسول الله أين كنت وآدم فى الجنة ؟ قال : فتبسم حتى بدت ثناياه ثم قال : كنت فى صلبه وهبط إلى الأرض وأنا فى صلبه .. وفى جمع الجوامع للسيوطى برقم ١٦٨٣٥/٤٤٢

وعلى أطراف الحجب ، وبين أعين الملائكة ، فأكثروا ذكره فأن الملائكة تذكره فى كل ساعاتها »[١٩٥]

قال الشيخ محمد علوى المالكى : قال الزرقانى فى شرحه : رواه ابن عساكر ، وقد ذكر نحو هذا الخبر الشيخ ابن تيميه فقال : وقد روى أن الله كتب اسمه على العرش وعلى مافى الجنة من الأبواب والقباب والأوراق وروى فى ذلك عدة آثار . .

وروى ابن الجوزى عن ميسرة قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء . . . وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى ، نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه »[١٩٦]

إن هذه الآثار لتشهد بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ مختار الله فى الأزل ، ومصطفاه منذ القدم . . .

ولأن الله تعالى اعتنى بخيرته من خلقه ، فقد نقش اسمه ـ كما رأينا ـ على الأماكن المتعددة فى الجنة . . جاء فى كتاب حجة الله على العالمين للنبهانى :

---

(١٩٥) المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٨٦ ومفاهيم يجب أن تصحح للمالكى ص ٤٩
(١٩٦) الفتاوى لابن تيمية جـ ٢ ص ١٥٠

قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : بلغنى فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢ ﴾ (١٩٧)

قال : كان لوحاً من ذهب وقيل : كان لوحاً من رخام كُتِبَ فيه :

: عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل ، عجباً لمن أيقن بالقضاء كيف يحزن ، عجباً لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا عند رسول الله ﷺ واذا بطائر فى فمه لؤلؤة خضراء فألقاها ، فأخذها النبى ﷺ فوجد فيها درة خضراء مكتوباً عليها بالأصفر : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقد ذكر ذلك الحلبى فى سيرته (١٩٨)

وأمثال ذلك كثير جمعها المعنيون بذلك فى كتبهم .

ويدل على اصطفاء الله لرسوله ﷺ قديماً ذلك الميثاق الذى أخذه الله على الرسل . .

---

(١٩٧) الكهف ٨٢

(١٩٨) حجة الله على العالمين ص ٢١١

أخذ الميثاق على الرسل :

قال - تعالى -

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١٩٩)

وأخذ الميثاق على الأنبياء السابقين تزكية للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتشريف له فكأنهم مابعثوا إلا ليبشروا بقدومه ويمهدوا الطريق لرسالته الخاتمة التى اختارها الله للبشر .

وأصبح لزاماً أن يخبر كل نبى قومه بأمر هذا النبى المصطفى ، ويأخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا به عند ظهوره .

قال الإمام تقى الدين السبكى فى تعليقه على هذه الآية الكريمة : فى هذه الآية من التنويه بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وتعظيم قدره مالايخفى ، وفيها كذلك أنه مرسل لجميع أمم الأنبياء قبله ، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة ، وتكون الأنبياء

---

(١٩٩) آل عمران ٨١

وأممهم كلهم من أمته ، ويكون قوله : بعثت للناس كافة شاملاً لكل الخلق ولجميع الأمم ويتبين من معنى قوله ﷺ « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » أن النبوة ثابتة له صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت ، ولهذا رأى آدم اسمه مكتوباً على العرش « محمد رسول الله » ولو كان المراد بذلك مجرد

العلم بما سيصير فى المستقبل لم يكن فى ذلك خصوصية له صلى الله عليه وسلم ، لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم أزلاً . . . فلا بد من خصوصية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أجلها أخبر بهذا الخبر إعلاماً لأمته ليعرفوا قدره عند الله فيحصل لهم الخير . .

وقد روى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه ـ قال : « لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى شأن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه »

ليكونوا تحت لوائه . . ثم يوم القيامة تشملهم شفاعته العظمى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢٠٠)

تبشير الأنبياء به :

وقد تمت بشارات الأنبياء فى كتبهم واخبارهم لأممهم به ، وقد سبق أن

---

(٢٠٠) الأنبياء ١٠٧

عرضنا نماذج من هذه البشارات التى ينكرها أو يحرفها أو يصرفها عن وجهها اتباع هؤلاء الأنبياء بغياً وعدواً بغير علم .

إلا أن منهم من تبين له وجه الحق فآمن ، ومن هؤلاء « مخيريق » وكان حبراً عالماً كثير المال من النخل وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته ، وغلبت عليه ألفة دينه ، فلم يزل كذلك حتى كان يوم أُحُد ، وكان يوم السبت ، فقال : يا معشر اليهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق . .

قالوا : فإن اليوم يوم سبت ، فقال : لا سبت ، ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبى ﷺ بأحد ، وعهد إلى مَنْ وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فمالى لمحمد يصنع فيه ماأراده الله تعالى فقاتل حتى قتل .

فكان رسول الله ﷺ يقول : مخيريق خير يهود ، وَقَبضَ رسول الله ﷺ أمواله ، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها .

مناظرة بين ابن القيم وبعض العلماء من أهل الكتاب :

ذكر ابن القيم فى كتابه زاد المعاد مناظرة جرت بينه وبين أهل الكتاب حول التبشير بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كتبهم ، يقص ذلك بنفسه فيقول :

قلت لهم فى أثناء الكلام : لا يتم لكم القدح فى نبوة نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بالطعن فى الرب ـ تعالى ـ والقدح فيه ـ سبحانه ـ ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ

فقالوا : كيف يلزمنا ذلك ؟

قلت : بل لا يتم ذلك لكم إلا بجحوده وانكار وجوده تعالى . . . وبيان ذلك :

إن كان محمد ﷺ عندكم ليس بنبى صادق ، وهو بزعمكم ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفترى على الله ، ويتقول عليه مالم يقله ، ثم يتمم له ذلك ويستمر حتى يحرم ويحلل ، ويفرض الفرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل ، وهم أهل الحق ، ويسبى نساءهم وأولادهم ويغنم أموالهم وذراريهم ، ويتم له ذلك حتى فتح الأرض ، ونسب ذلك كله إلى الله ، وأنه تعالى أمره به ، والرب ـ تعالى ـ يشاهده وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل ، وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة ، وهو مع ذلك يؤيده وينصره ، ويعلى أمره ، ويمكّن له من أسباب النصر الخارجة عن طوق البشر . .

وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته ، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ، بل تارة بدعائه وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع ذلك يقضى له كل حاجة سأله إياها ، وَيَعِدُه كل وعد جميل ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه وأهنئها وأكملها . . . هذا وهو عندكم فى غاية الكذب والافتراء والظلم فإنه لا أكذب ممن كذب على الله واستمر على ذلك ، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله وسعى فى رفعها من الأرض وتبديلها . . فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين لابد لكم من القول بواحد منهما . .

الأول : أن تقولوا لا صانع للعالم ، ولا مدبر ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه وجعله نكالاً للصالحين . .

الثانى : نسبة الرب تعالى إلى ما لايليق به من الجور والسفه والظلم وإغفال الخلق دائماً ونصرة الكاذب والتمكين له فى الأرض وإجابة دعواه . . وإحرازه النصر تلو النصر على رءوس الأشهاد فى كل مجمع وناد . . فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين ؟

فرد مناظره قائلاً : معاذ الله أن نقول انه ـ أى محمد ـ ظالم أو كاذب بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه واقتفى أثره فهو من أهل النجاة والسعادة فى الأخرى .

قال ابن القيم : فكيف يكون سالك طريق الكذاب بزعمكم من أهل النجاة والسعادة ؟ فلم يجد مناظره بُدًا من الاعتراف برسالته ولكنه زعم أنه لم يرسل إليه . .

قال له : فقد لزمك تصديقك ولابد وهو قد تواتر عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين أن تصدق به . . فبهت الكافر ، ونهض من فوره . .

فتبشير الأنبياء به فى كتبهم كان إرهاصاً للنبى ﷺ وإثباتاً لنبوته . .

قرب الظهـــــور :

ولما قرب ظهوره صلى الله عليه وسلم تهيأت الأذهان لذلك بأسباب عديدة . .

وقد يكون من هذه الأسباب شيوع الفساد وتفشيه ، حتى تتهيأ الألسنة بالدعاء إلى الله واستصراخه ليبعث للناس من يأخذ بأيديهم إلى العدالة ، وينجيهم من الظلم ويرفع عنهم غشاوة القهر وجبروت العنف ، وقد ورد فى حكمة الحكماء : « أشد الساعات أقربها إلى طلوع الفجر » وقد سبق أن تحدثنا عن الظروف القاسية التى مرت بالعالم فى الجزيرة العربية وغيرها من الأمم ، حتى جأر الناس جميعاً بالشكوى . .

وربما وجد فى البيئة العربية بعض الاستعدادات الطيبة والنفوس الخيرة التى ظهر لها أثر فى بعض التصرفات الحسنة كحلف الفضول الذى يقول فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد شهده : « لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ماأحب به حمر النعم ، ولو دعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت » وكاستجابة بعض العقلاء لنداءات التوفيق والصلح بين المتخاصمين ، وكنأى بعضهم عن الانغماس فى رجس الجاهلية . . إلا أن هذه البوادر الطيبة كانت لا تلبث أن تنزوى فى طيات الظلام الذى ألقى رواقه فى ربوع الجزيرة العربية التى اضطرمت بالشر وماجت بالحروب فاصطلى الجميع بنارها ، وربما امتدت الحروب بين قبيلتين أو أكثر سنين طويلة .

ولم يكن ذلك إلا صورة مما كان يحدث فى خارج الجزيرة العربية من حروب طاحنة بين الدولتين العظميين فى ذلك الوقت - فارس والروم - وربما امتد أوار هذه الحرب إلى العرب أنفسهم حيث كان أبناؤهم وقوداً لهذه الحرب فى بعض الأحيان ، فقد كان الغساسنة وهم عرب يناصرون الروم ،

والمناذرة وهم عرب أيضاً يناصرون الفرس [٢٠١]

بل قد يمتد الصراع إلى ماوراء ذلك ... إلى تلك الدول التى كانت تحت نفوذ إحدى الدولتين .. كان من الطبيعى أن تضيق النفوس وتضطرب الأفئدة ويتعطش الناس إلى منقذ يأخذ بأيديهم ، وهاد يهديهم إلى السبيل الصحيح ... وإنه لا يبعث الأمن والأمان إلا الدين السوى ولا يأتى

الشعور بالاطمئنان إلا من التحصين بالإيمان الحق والالتجاء إلى إله قادر يجد الانسان فى ظله الهدى والسعادة والحماية .. فأخذ الناس يتطلعون إلى من يأخذ بأيديهم إليه ويدلهم إلى الصواب ..

وقد كثر ذلك التطلع قرب البعثة .. وأصبحت له مظاهر متعددة منها :

رصد الكهان للنجـــوم :

العلم بالنجوم قديم ، وقد برع فيه العرب .. فقد كان ما انبسط لأعينهم من رقعة السماء داعياً إلى إدمان النظر فى الكواكب ، وتعرف صورها وألوانها ومطالعها وأنوائها ، وتوصلهم بذلك إلى معرفة زمان الخصب والحمل ، وأوقات الريح والمطر ، واهتدائهم بها فى ظلمات البر والبحر ،

وهم مدينون بشيء غير قليل من علم النجوم أو الفلك للكلدانيين ـ بقايا بابل القديمة ويسمون بالصابئة ، وهم عبدة الكواكب ولا يزال كثير من أسماء البروج والكواكب فى اللغتين متقارباً أو متحداً ، فبرج الثور يسمى فى

---

(٢٠١) هدى السيرة لعبد الحفيظ فرغل ص ١٩ دار الفكر العربى

الكلدانية « ثوراً » والجدى يسمى فى الكلدانية « كديا » والمريخ يقابل « مرادخ » وهكذا . .

وهذا علم وفن يقوم على دقة الملاحظة وقوة الفراسة والذكاء . . ولكن الذى لا يحمد هو ربط النجوم بالقدر والاعتقاد بأن هذه الكائنات لها ارتباط بحياة الناس ومستقبلهم وأقدارهم ، فهذا نوع من الكهانة التى يدعيها قوم لا صلة لهم بالله .

وكان بعض الكهان يرصدون النجوم ويرقبونها ويعرفون من خطوط سيرها وطلوعها وغروبها دلائل يزعمون أنها تشير إلى أحداث هامة . .

وقد روى ابن إسحاق قائلاً : حدثنى صالح بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة الأنصارى قال : حدثنى من شئت من رجال قومى عن حسان بن ثابت قال : والله إنى لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ماسمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب : يا معشر يهود : حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به (٢٠٢)

فهذا يعنى أن الأحبار والكهان كانوا يرصدون النجوم ترقباً لمجىء ذلك المولود المنتظر .

---

(٢٠٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨١

جاء فى السيرة الحلبية عن كعب الأحبار ـ رضى الله عنه ـ قال : رأيت فى التوراة أن الله ـ تعالى ـ أخبر موسى عن وقت خروج محمد ﷺ أى من بطن أمه ، وموسى ـ عليه السلام ـ أخبر قومه أن الكوكب المعروف عندكم اسمه كذا إذا تحرك وسار عن موضعه فهو وقت خروج محمد ﷺ وصار ذلك مما يتوارثه العلماء من بنى إسرائيل .

وجاء فيها أيضاً عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان يهودى يسكن مكة ، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول اله ﷺ قال فى مجلس من مجالس قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلمه ، قال : احفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة : وهو منكم معاشر قريش ، على كتفه أى عند كتفه علامة ، أى شامة ـ فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس وتلك العلامة هى خاتم النبوة ، والدليل عليها .. لا يرضع ليلتين ، وذلك فى الكتب القديمة من دلائل نبوته ,

وعند قول اليهودى ماذكر تفرق القوم من مجالسهم وهم متعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم آله بما سمع ، فقالوا : لقد ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً ,

فالتقى القوم حتى جاءوا اليهودى وأخبروه الخبر قائلين له : أعلمت ؟ ولد فينا مولود

قال : اذهبوا معى حتى أنظر إليه

فذهبوا معه حتى وصل الدار فقال لأمه : أخرجى إلينا ابنك ، فأخرجته وكشفوا عنه ظهره ، فرأى تلك الشامة فخر مغشياً عليه .

فلما أفاق قالوا : ويلك مالك ؟ قال : ذهبت النبوة من بنى اسرائيل ، أفرحتم به يا معشر قريش ؟[٢٠٣]

فها نحن أولاً ندرك من خلال هذه الأخبار أن العلماء والأحبار كانوا يترصدون النجوم لترقب نجم أحمد ﷺ

وليس فى ذلك غرابة ، فقد كان استطلاع النجوم لمعرفة ماتهدى إليه من أخبار عند المتخصصين فى استخبارها أمراً قديماً . .يدل عليه مايأتى :

ذكر الدميرى فى كتابه حياة الحيوان : أن والد ذى القرنين كان لديه علم بالنجوم ولم يراقب أحد الفلك كما راقبه ، وكان يتطلع إلى ظهور نجم فى السماء فظهر وكان يرتب على ذلك بعض الأمور والأحداث[٢٠٤]

وحين رميت الشياطين بالشهب ارتاع العرب ، فلم يكن تساقط الشهب أمراً ملموساً عندهم ولكنهم فوجئوا به ، عند ولادة النبى ﷺ وقد سألوا عن هذا الأمر كهانهم فأفادوهم بأن ذلك لم يكن إلا لمولد نبى آخر الزمان .

وقد تم بناء على ذلك :

إخبارهم ببعث النبى ﷺ :

روى الواقدى ـ رحمه الله ـ أنه كان بمكة يهودى يقال له يوسف ، فلما

(٢٠٣) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١١٣

(٢٠٤) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٣٦

كان اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ قبل أن يعلم به أحد من قريش قال : يامعشر قريش قد ولد نبى هذه الأمة الليلة فى ناحيتكم ..

وجعل يطوف فى أنديتهم فلا يجد خبراً ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب بن هاشم ، فسأل فقيل له : قد ولد لابن عبد المطلب أى لعبد الله غلام ، فقال : هو نبى والتوراة .

وكان هناك راهب من أهل الكتاب يدعى « عيصا » وقد آتاه الله علماً كثيراً ، وكان يلزم صومعةً له ، وكان يأتى مكة فيلقى الناس ويقول :

يوشك أن يولد فيكم مولود ياأهل مكة تدين له العرب ، ويملك العجم ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته .

فكان لايولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول : ماجاء بعد ، فلما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى « عيصا » فوقف على أصل صومعته فناداه ..

فقال : من هذا ؟

قال : أنا عبد المطلب ، وأخبره بمولد محمد ﷺ

فقال : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه ، وان نجمه طلع البارحة ، وعلامة ذلك أنه الآن وَجِع فيشتكى ثلاثاً ثم يعافى [٢٠٥]

---

(٢٠٥) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١١٣

ولتوقع ذلك النبى كان بعضهم يسمى ابنه محمداً ، على أمل أن يكون هو النبى المنتظر ، ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

تسميتهم بمحمد :

ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة أن كل الذين سموا بمحمد قبل بعثة النبى ﷺ كان أبوه يتوقع أن يكون هو النبى المنتظر ،واستشهد بما رواه أبو نعيم الأصفهانى قال : حدثنى أحمد بن إسحاق بهذه الأسامى ـ وهى : محمد بن عدى ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن البراء ، ومحمد بن حمران ، ومحمد بن خزاعى بن علقمة ـ قال : حدثنا محمد بن سليمان المروى فى كتاب الدلائل أن هؤلاء المحمدين ممن سماهم قبل بعثة رسول الله ﷺ سموا بذلك لما أخبرهم الراهب بقرب مبعثه . .

وذكر قصة الراهب فى ترجمة محمد بن عدى :

روى عبد الملك المنقرى عن جد أبيه خليفة ، وكان خليفة مسلماً قال : سألت محمد بن عدى بن ربيعة بن سعد بن سواءة بن جشم بن سعد : كيف سماك أبوك محمداً ؟

فضحك : ثم قال : أخبرنى أبى عدى بن ربيعة قال : خرجت أنا وسفيان بن مجاشع بن دارم ويزيد بن ربيعة بن كابية بن حرقوصى بن مازن ، وأسامة بن مالك بن العنبر ـ نريد ابن جفنة ، فلما قربنا منه نزلنا إلى شجرات وغدير ، فأشرف علينا راهب من دير ، فقال : إنى أسمع لغة ليست لغة أهل هذه البلاد ،

فقلنا : نعم ، نحن قوم من مضر

قال : أي المضريين ؟

قلنا : من خندف

قال : إنه يبعث وشيكاً نبى منكم ، فخذوا نصيبكم منه تسعدوا . .

قلنا : ما اسمه ؟

قال : محمد

قال : فأتينا ابن جفنة ، فقضينا حاجتنا من عنده

ثم انصرفنا ، فولد لكل منا ابن ، فسماه محمداً (٢٠٦)

وذكر السهيلى أن الذين تسموا بهذا الاسم طمعاً فى النبوة ثلاثة هم محمد بن سفيان بن مجاشع جد جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد بن حمران بن ربيعة ، وعزا السبب فى ذلك إلى أنهم وفدو على بعض الملوك وكان عنده علم من الكتاب فأخبرهم بمبعث النبى ﷺ وباسمه ، وكان كل منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ففعلوا ذلك (٢٠٧)

علامات النبوة فى جبهة الآباء :

وشاءت إرادة الله أن يجعل أثر نور النبى ﷺ بادياً فى جبهة آبائه من لدن آدم ـ عليه السلام ـ حتى عبد الله والد النبى ﷺ

---

(٢٠٦) أسد الغابة جـ ٥ ص ١٠٤

(٢٠٧) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٢

يروى العلماء عن كعب الأحبار ـ رضى الله عنه ـ كان نور محمد ﷺ يرى فى دائرة غرة آدم ـ عليه السلام ـ كالشمس فى فلكها ، وكالقمر فى ديجور ليلة ظلماء ، وقال الله تعالى لآدم ـ عليه السلام ـ خذه يعنى النور النبوى بعهدى وميثاقى وسوف تودعه فى الأصلاب الطاهرة والمحصنات الزاهرة ، قال : نعم ، ياإلهى وسيدى قد أخذته بعهدك على أن أودعه فى المطهرين من الرجال والمحصنات من النساء (٢٠٨)

وذكر النبهانى سِلْسِلَةً من الذين انتقل النور إلى جبهتهم بعد آدم ـ عليه السلام ـ فقال : انتقل إلى جبهة شيث بن آدم ـ عليهما السلام ـ ثم انتقل منه إلى ابنه « آنوش » ومنه انتقل إلى ابنه « قينان » ثم إلى « مهلائيل » ثم إلى « أخنوخ » وهو « ادريس » ـ عليه السلام ـ ومازال ينتقل من طيب إلى طيب حتى وصل إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ومنه إلى ابنه « قيدار » الذى أوصاه أبوه بأن يحافظ على ماورثه من نور النبوة ، وظن « قيدار » أن الذى يرث الحكمة منه سيكون من بنات إسحاق عمه ، فأكثر من الزواج منهن دون أن يعقب ، حتى ألهمه الله أن يتزوج امرأة من العرب اسمها « الغاضرة » فتزوجها وأعقب منها ولداً سماه « حمل » ورأى قيدار النور فى جبهة هذا الولد ، فسر سروراً بالغاً . . ومازال هذا النور ينتقل فى بنى إسماعيل حتى وصل إلى « أد » ومن « أد » انتقل الى عدنان .

قال : ولما انتهى النور إلى « نزار » قرب قرباناً عظيماً ، ثم انتقل إلى « مضر » . .

---

(٢٠٨) حجة الله على العالمين للنبهانى جـ ١ ص ٢١٧

ولما انتهى النور إلى « النضر بن كنانة » رأى مناماً عرضه على الكهان ، فقالوا له : إن صدقت رؤياك فقد صرف الله العز والكرم إليك ، وقد خصصت بحسب وسؤدد لم يحظ به أحد من العالمين .

وانتقل النور إلى هاشم بن عبد مناف ، ثم إلى ابنه عبد المطلب ثم إلى ابنه عبد الله والد النبى ﷺ

وقد ظهر النور واضحاً فى جبهة عبد الله حتى افتتنت به بعض نساء العرب اللاتى كان عندهن علم من أهل الكتاب . .

المرأة التى عرضت نفسها على عبد الله :

وقد ذُكِرَ أن أم قتال رقية بنت نوفل كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أن فى الإنجيل والتوراة علامات النبى الخاتم ، وكان ورقة يحتل منزلة عليا وشهرة فى الحياة الفكرية والدينية عند العرب ، وكانت أخته أم قتال أكثر الناس سماعاً منه وكان اتصالها به ميسراً وثقتها فيه كبيرة .

وبفراستها العربية شاهدت فى جبين عبد الله بن عبد المطلب أنوار النبوة ، فتمنت للحظتها أن تكون هى أم ذلك النبى المرتقب . .

واندفعت وهى منفعلة بلهب أمنيتها ودون تحفظ ولا اختيار تطلب من عبد الله أن يتزوجها وله من الإبل مثل الإبل التى نحرت عنه (٢٠٩)

---

(٢٠٩) بشائر النبوة الخاتمة ص ١٥٦

ولكنه يرفض ذلك العرض .. وينصرف مع أبيه حيث يخطب له أم النبى المرتقب : آمنة بنت وهب وتزف إليه فى يومها .. وتحمل من ليلتها بالنبى الخاتم ﷺ

وقد ذكر أن أم قتال هذه قد حاولت إغراء عبد الله ودعته إلى نفسها فقال لها :

أما الحرام فالحِمام دونه والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه ودينه

ولا يبعد ـ وهذا ماحدث فعلاً ـ أن تكون المرأة قد تعرضت للوم النساء لها خصوصاً وأنها كانت مشهورة بالعفة والنقاء ، فما بالها تندفع مع عواطفها هذا الاندفاع الملوم ، ولكنها دافعت عن نفسها قائلة :

إنى رأيت مُخيلة نشأت فتلألأت بحناتم القطر
فلمأتها نوراً يضىء به ما حوله كإضاءة الفجر
ورأيت سقياها حيا بلد وقعت به وعمارة القفر
ورأيته شرفاً أبوء به ما كل قادح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت منك الذى استلبت وماتدرى (٢١٠)

وقد اختلف الرواة حول هذه الفتاة التى عرضت نفسها على عبد الله ، فمنهم من يقول : إنها أم قتال رقية بنت نوفل ، ومنهم من يقول : إنها

---

(٢١٠) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٠ والمخيلة : السحابة ـ والحناتم : السحاب الأسود ـ لمأتها : أبصرتها .

فاطمة بنت مر ، ومنهم من يقول : إنها ليلى العدوية ، وربما تكرر ذلك منهم لما كان فى وجه عبد الله من نور يغرى هؤلاء المتطلعات الى المجد الباقى والشرف الخالد بالإقدام على هذه المغامرة . . ويدل ذلك على أن الإخبار بقدوم النبى ﷺ كان قد شاع وكثر ، وأن علامات خاصة تظهر فى أبيه ، وقد توفرت هذه العلامات فى عبد الله . . فتنافست الفتيات فى شرف الفوز بالزواج منه . .

قال أبو نعيم فى دلائل النبوة : كان عبد الله بن عبد المطلب أجمل شباب قريش . . خرج يوماً على نساء قريش مجتمعات ، فقالت امرأة منهن : أيّكن تتزوج بهذا الفتى فتصيب النور الذى بين عينيه ، فإنى أرى بين عينيه نوراً » [٢١١]

وقد ذهب هذا النور فور حمل آمنة بمحمد ﷺ . . . وقد ذكر بعض الرواة أن عبد الله أراد أن يسأل تلك المرأة التى عرضت نفسها عليه عن سبب ذلك ، فذهب إليها بعد أن تزوج فلم يجد لديها ذلك الاقبال الذى رآه منها قبل ذلك ، وسمعها تقول : لقد فارقك النور الذى كان معك بالأمس . .

ولعل الذى دفع عبد الله إلى الذهاب إلى تلك المرأة لسؤالها هو أن ما فعلته أمر غريب غير مألوف ـ فالمفروض أن تكون عقيلات العرب

---

(٢١١) دلائل النبوة للأصفهانى جـ ١ ص ٣٩

مطلوبات غير طالبات ، وخصوصاً أنها قد عرضت عليه فى نظير ذلك مائة من الابل . . ففى الأمر ـ إذن ـ سر خفى أراد أن يستجليه ويعرف حقيقته . . فقالت متمثلة :

لا تطـــلبى الأمر إلا مقـبلاً ۝ قد كان ذلك مـرة فاليوم لا

فذهبت هذه الجملة مثلاً ، ثم قالت مستخبرة : أى شىء صنعت بعدى ؟

قال : دخلت على زوجتى آمنة .

فقالت : والله لست أنا بصاحبة ريبة ، ولكنى رأيت نور النبوة فى وجهك ، فأردت أن يكون ذلك لى فأبى الله إلا أن يجعله حيث جعله . .

وذكر البيهقى فى دلائله أنها قالت فى ذلك شعراً منه :

عليك بـآل زهـرة حيـث كانوا ۝ وآمنـة التى حـــملت غلاما

تـرى المهـدى حين ترى عليه ۝ ونـوراً قد تقـــدمه إماما

فكل الخـلق ترجـــوه جميعـــا ۝ يســود الناس مهتدياً إماما

بـــراه الله من نـــور صـفاء ۝ فأذهـب نـــوره عـنا الظلاما

وذاك صـــنيع ربك اذ حـــباه ۝ إذا ما ســار يومـاً أو أقاما

فيهـــدى أهـــل مكـة بعد كفر ۝ ويفـرض بعد ذلكم الصـــياما

قال أحمد ـ رحمه الله ـ وهذا الشىء قد سمعته « أم قتال » من أخيها فى صفة رسول الله ﷺ ويحتمل أنها كانت امرأة عبد الله مع آمنة بنت وهب .

ويؤكد البيهقى ذلك برواية عن إسحاق بن يسار قال : حُدثت أنه كان لعبد الله بن عبد المطلب امرأة مع آمنة بنت وهب . . وكانت ترجو أن يكون هذا النور لها . فلما ذهب لآمنة ، قالت له : لا حاجة لى بك ، مررت بى وبين عينيك غرة فرجوت أن أصيبها منك ، فلما دخلت على آمنة ذهبت بها منك .

قال ابن اسحاق : فحدثت أن امرأته تلك كانت تقول ، فمر بى وإن بين عينيه لنوراً مثل الغرة فدعوته رجاء أن يكون لى ، فدخل على آمنة فحملت برسول الله ﷺ (٢١٢) وهذا الخبر الذى ذكره البيهقى من أنه كان لعبد لله زوجة أخرى مع آمنة غير دقيق وتعوزه الصحة . .

ولقد كان عبد الله أهلاً لأن يكون أباً لأطهر مخلوق وأشرف مرموق ، فقد كان يرضى الخلاّق ويتمسك بمكارم الأخلاق ، ويدل ذلك كله على استمرار التوحيد فى ذرية إبراهيم - استجابة لقوله فيما حكاه عنه القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢١٣)

---

(٢١٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٨٥

(٢١٣) ابراهيم ٣٥

وقد تحققت دعوته لاسيما فى آباء النبى ﷺ

حـفظ الاله كـرامة لمحمـد آباءه الأمجاد صـوناً لاسمه
تركوا السفاح فلم يصبهم عاره من آدم وإلى أبيه وأمه (٢١٤)

روى ابن الأثير عن خريم بن أوس قال : هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك وأسلمت ، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله أريد أن أمدحك فقال رسول الله ﷺ لا يفضض الله فاك ، فأنشأ العباس يقول :

من قبلها طبت فى الظـلال وفى مستودع حيث يخصف الورق (٢١٥)
ثم هـبطت البـلاد لا بشـ ـر أنت ولا مضـغة ولا عـلق
بل نطـفة تركـب السـفين وقد ألجم نسراً وأهله الغرق (٢١٦)
تنقـل من صـالب الى رحـم إذا مضى عالم بدا طـبق (٢١٧)
حتى احـتوى بيتك المهيمن من خنذف علياء تحتها النطق (٢١٨)
وانت لما ولـدت أشـرقت الأرض وضـاءت بنـورك الأفـق
فنحـن فى ذلك الضـياء وفـى النور وسبل الرشاد نخترق (٢١٩)

---

(٢١٤) محمد ﷺ ، رفاعة الطهطاوى جـ ١ ص ٦٢ دار الفكر والفن .
(٢١٥) أى كنت فى صلب آدم فى الجنة حيث كان هو وحواء عليهما ورق الجنة .
(٢١٦) أى ركبت فى صلب نوح السفينة حين أغرقت الأرض وما عليها من أصنام
(٢١٧) الصالب : الصلب ، والطبق : القرن
(٢١٨) يقول : حتى احتوى بيت ابيك امرأة من علياوات خنذف
(٢١٩) أسد الغابة لابن الأثير ج ٢ ص ١١١

حمل آمنة وما رأته من علامات النبوة :

ومن إرهاصات النبوة ودلائلها أيضاً ما رأته آمنة فى أثناء حملها بالنبى ﷺ فقد روى كعب الأحبار عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه ليلة حملت آمنة برسول الله ﷺ لم يبق كاهن ولا كاهنة من قريش ولا من قبيلة من قبائل العرب ، إلا حجب عن صاحبه وحجبت عن صاحبها وانتزع علم الكهانة من الكهنة ولم يبق سرير من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً .

وبقى فى بطن أمه تسعة أشهر كملاً لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا غير ذلك مما يعرض للنساء عادة من أعراض الحمل ، وكانت آمنة تحدث عن نفسها وتقول : أتانى آت فى المنام حين مر من حمله ستة أشهر فوكزنى برجله وقال لى : ياآمنة إنك حملت بخير العالمين قاطبة ، فإذا ولدته فسميه محمداً ، واكتمى شأنك .

فلما استوفت أيام حملها قالت : لقد أخذنى ما يأخذ النساء ولم يعلم أحد من القوم وإنى لوحيدة فى المنزل ، وعبد المطلب فى طوافه ، قالت : فسمعت رجة شديدة وأمراً عظيماً ، فهالنى ذلك فرأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادى فذهب عنى كل رعب وكل فزع وكل وجع كنت أجد ، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء ظننتها لبنا ، وكنت عطشى فتناولتها فشربتها ، فأضاء منى نور عال .

وعن العباس - رضى الله عنه - قال : قلت يا آمنة ما الذى رأيت فى ولادتك من علامة هذا الصبى ؟ فقالت : رأيت عَلَماً من سندس على قضيب من ياقوت قد ضرب بين السماء والأرض ، ورأيت نوراً ساطعاً من رأسه قد بلغ السماء ، ورأيت سرباً من القطا قد سجدت له ونشرت أجنحتها ، ورأيت تابعة شعيرة الأسدية قد مرت وهى تقول : مالقى الأصنام والكهان من ولدك هذا ؟ هلكت شعيرة ، والويل للأصنام ، ثم الويل لها . ورأيت شاباً من أتم الناس طولاً وأشدهم بياضاً فأخذ المولود منى ومعه طاس من ذهب فشق بطنه ، ثم أخرج قلبه كالدرة البيضاء فحشاه ثم رَدَّه إلى مكانه ثم مسح على بطنه فاستيقظ فنطق فلم أفهم ما قال : إلا أنه قال : أنت فى أمان الله وحفظ الله وكلاءته ، قد حشوتك علماً وحلماً ويقيناً وإيماناً وشجاعة ، وأنت خير البشر . .

إن ما رأته آمنة من حمل رسول الله ﷺ ومولده يدخل فى باب الخوارق والمعجزات وليس ذلك عجيباً بالنسبة لهذا المولود الذى تسعد البشرية باستقباله ، وسيكون سبباً فى إنقاذها مما هى فيه من تعب وشقاء . . إنه أعظم من وطىء الأرض فلتستقبله الأرض بما هو جدير به من العظمة التى ألبسه الله إياها . .

ولقد صدقت هذه الخوارق لإخبار النبى ﷺ بها ، فقد أخرج أحمد والبزار والطبرانى والحاكم والبيهقى عن العرياض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : إنى عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت ـ وكذلك أمهات الأنبياء يرين وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاء له قصور الشام حتى رأتها[٢٢٠]

وروى الطبرانى وغيره عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : من كرامتى على ربى أنى ولدت مختوناً ولم ير أحد سوأتى . .

وأخرج ابن سعد فى طبقاته قال : أنبأنا يونس بن عطاء المكى ، حدثنا الحكم بن أبان العدنى ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال : ولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مختوناً مسروراً ، وأعجب ذلك عبد المطلب وحظى عنده وقال : ليكونن لأنبى هذا شأن . .

وكون النبى ﷺ يولد مختوناً كرامة له من الله ، حتى لا تنكشف عورته على أحد وقد أكرم الله بهذه الخصيصة بعض الأنبياء . .

قال ابن الكلبى : بلغنا عن كعب الأحبار أنه قال : نجد فى بعض كتبنا أن آدم خلق مختوناً واثنى عشر نبياً من ولده خلقوا مختونين آخرهم محمد ﷺ . .

---

(٢٢٠) ورواه الحاكم فى السمتدرك جـ ٢ ص ٦٠٠ ، وفى جمع الجوامع ٨٠٦٠/٣٥٧٢ جـ ١ ص ٢٨٧٤

وهؤلاء هم شيت وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسف وموسى وسليمان وشعيب ويحيى وهود وصالح .. صلى الله عليهم أجمعين ..

والختان من شعائر الفطرة ، وقد أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالختان . . .

أما الامام الماوردى فإنه يحدث فى كتابه « أعلام النبوة » قائلاً :

« ولما حملت آمنة بنت وهب برسول الله ﷺ حدثت أنها رأت فى المنام من يقول لها : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع على الأرض فقولى :

أعـيذه بالواحـــد   من شـر كل حاسـد

ثم سميه محمداً ..

لقد ألهمت تسميته من السماء .. ولم تكن تسميته اجتهاداً كما يسمى الآباء أبناءهم ..

أما أم عثمان بنت العاص ، ـ وكانت قد حضرت إلى آمنة عندما علمت بأمر ولادة النبى ﷺ فقد حدثت عن ذلك قائلة : وكانت الولادة ليلاً ، فما من شىء أنظر إليه من البيت إلا أضاء ، وحتى أنظر إلى النجوم تدنو ، وإنى أقول : لتسقطن علىّ .. ولما وضعته أمه تركت عليه فى يوم ولادته جفنة فانفلقت عنه ، ثم أرسلت إلى جده عبدالمطلب أن قد ولد لك غلام فأته وانظر اليه ، فأتاه ونظر إليه ، وحدثته بما رأته منه وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه به ، فقال وقد رأى فيه سمات المجد وتوسم فيه أمارة السؤدد :

إن محمداً لن يموت حتى يسود العرب والعجم ، وأنشأ يقول :

الحـــمد لله الذى أعطـــانى   هـذا الغـــلام الطـــيب الأردان
قد ســـاد فى المهـــد على الغلمان   أعـــيذه بالله ذى الأركـــان
حـــتى أراه بالـــغ البنيـــان   أعيـــذه من شـــر ذى شـــنآن
من حاســـد مضطـرب العـــنان (٢٢١)

وقد حدثت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وكانت قد حضرت لتساعد آمنة : قالت : لما حملته على يدى استهل فسمعت قائلاً يقول : رحمك الله ورحم بك ، قالت : وأضاء لى ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم . .

قالت الشفاء : فلم يزل الحديث منى على بال حتى بعثه الله ـ تعالى ـ فكنت أول الناس اسلاماً (٢٢٢)

وفى قولها : أضاء لى مابين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم خارقتان ، إحداهما إضاءة النور ، والثانية دنو قصور الروم إلى مكة حتى لتراها وهى فى مكة . .

إن ذلك من إرهاصات النبوة التى لا شك فيها . . ومن الشهادات على أن ذلك القادم ليس طفلاً عادياً ولكنه مبعوث العناية الإلهية الذى سيحرر هذه البقاع من الظلم والكفر الذى تنغمس فيه . . وسيكون مقدمه بشرى

---

(٢٢١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ قسم ١ ص ٦٤
(٢٢٢) حجة الله على العالمين جـ ١ ص ٢٢٧

خير ومطلع نور وتبديد ظلام وتحطيم أصنام .. لقد آن للإنسانية أن ترى عهداً سعيداً وديناً جديداً وعصراً مجيداً ..

تنكيس الأصنام :

وهل هناك شيء أدل على ذلك أكثر من هذا الخبر الذى يرويه السيوطى فى الخصائص ؟ قال : أخرج الخرائطى فى الهواتف وابن عساكر عن عروة أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل وعبدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، مروا على صنم فى إحدى الليالى فرأوه مكبوباً على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه الى حاله فلم يلبث أن انقلب انقلابا عنيفاً ، فردوه الى حاله فانقلب الثالثة ، فقال عثمان بن الحويرث : إن هذا لأمر قد حدث ، وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ فهتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول :

تردى لمولود أنارت بنوره ... جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخرت له الأوثان طراً وأرعدت ... قلوب ملوك الأرض طرا من الرعب
ونارُ جميع الفُرْسِ باخت وأظلمت ... وقد بات شاه الفرس فى أعظم الكرب
وصدت عن الكهان بالغيب جنها ... فلا مخبر عنهم بحق ولا كذب
فيالقصى ارجعوا عن ضلالكم ... وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب[223]

وأخرج الخرائطى من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل يذكران أنهما أتيا النجاشى بعد رجوع أبرهة من مكة .. قالا : فلما دخلنا عليه قال :

---

(٢٢٣) حجة الله على العالمين جـ١ ص ١٩٧ ـ ومعنى باخت : أطفئت

أصدقاني أيها القرشيان هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ، ونحرت عنه جمال كثيرة ؟ قلنا : نعم

قال : فهل لكما علم بما فعل ؟

قلنا : تزوج امرأة يقال لها آمنة تركها حاملاً وخرج .

قال : فهل تعلمان ولدت أم لا ؟

قال ورقة : أخبرك أيها الملك أني الليلة قد مررت على وثن لنا إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول :

ولد النبي فذلت الأملاك [٢٢٤] ونأى الضـــلال وأدبر الإشـــراك

ثم انتكس الصنم على رأسه .

فقال زيد : عندي خبر كخبره ،أيها الملك . . ذلك أني مثل هذه الليلة خرجت حتى أتيت جبل أبي قبيس إذ رأيت رجلاً ينزل من السماء له جناحان أخضران فوقف على أبي قبيس ، ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان وبطلت الأوثان وولد الأمين ، ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب . . وأومأ إلى الأصنام التي كانت على الكعبة فسقطت .

قال النجاشي : ويحكما أخبركما عما أصابني ، إني لنائم في قبتي ، وقت خلوتي ، إذ خرج عليَّ من الأرض عنق ورأس ، وهو يقول : حل الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل ، هلك الأشرم

---

(٢٢٤) الأملاك جمع ملك ـ بضم الميم ـ أو ملك بفتح الميم وكسر اللام

المعتدى الأجرم ، ولد النبى الأمى الحرمى المكى ، من أجابه سعد ومن أباه شقى ثم دخل الأرض فغاب [٢٢٥]

هلاك أصحاب الفيل :

ويسوقنا هذا الخبر إلى إرهاصة قوية من إرهاصات النبوة ، هى هلاك أصحاب الفيل ، فقد هلكوا فى العام الذى ولد فيه النبى ﷺ وقد أهلكهم الله بالطير الأبابيل التى رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول .

لقد كان حادث الفيل ـ كما يقول كثير من الرواة ـ والنبى ﷺ جنين فى بطن أمه فقد ولد بعد هلاك أصحاب الفيل بخمسين يوماً .

وكان هلاكهم كرامة للنبى ﷺ من وجهين أحدهما : أن الأحباش لو ظفروا لسبوا واسترقوا فنجى الله قريشاً من ذلك لصيانة رسول الله ﷺ من أن يجرى عليه السبى حملاً ووليداً .

والثانى : أنه لم يكن لقريش من القوة أو التدين مايستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم ، فالغالبية العظمى منهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة ومانع من الرجعة . .

فكان مَنْعُ الله بيته واهلاك عدوه لما أراده من ظهور دينه تأسيساً للنبوة وتعظيماً للكعبة ليجعلها قبلة للصلاة ومنسكاً للحج .

---

(٢٢٥) حجة الله على العالمين جـ١ ص ٢٠١

وقد ترتب على هذا الحادث تعظيم العرب للبيت وازدياد هيبته فى نفوسهم ، ودانوا لقريش وأكبروها وأذعنوا لها بالطاعة وقالوا : أهل الله قاتل الله عنهم .

وقد شاهد الحادث قوم كانوا فى زمن النبى ﷺ منهم حكيم بن حزام وحويطب بن عبد العزى ونوفل بن معاوية ، فلو أن هناك أدنى شك فى هذه القصة لأخبروا بذلك وكذبوا الواقعة . .

وعلى كل فإن مولد النبى ﷺ فى هذا العام كان دليلاً على رعاية الله لنبيه وتكريم العرب جميعاً بمولده . . حيث أنجاهم الله من معرة الهزيمة وخزى الاحتلال الذى يستتبعه الأسر والإذلال .

حراسة السماء بالشهب :

وكان من أقوى الإرهاصات المشاهدة بالحس لكثير من الناس تلك الشهب التى أخذت تتساقط من السماء وماكان لهم عهد أن تكون بهذه الكثرة التى ظهرت بها . .

جاء فى الروض الأنف : روى فى مأثور الأخبار أن إبليس كان يخترق السموات قبل عيسى ـ عليه السلام ـ فلما بعث عيسى أو ولد حجب عن ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد ﷺ حجب عنها كلها وقذفت الشياطين بالنجوم ، وقالت قريش حين كثر القذف بالنجوم قامت الساعة ، فقال عتبة ابن ربيعة : انظروا إلى العيوق ، فإن كان قد رمى به ، فقد آن قيام الساعة وإلا فلا . .

ويبدو أن القريشيين كانوا يصدقون قيام الساعة ، ولكنهم لا يصدقون بالبعث بناء على هذا الخبر . .

وقد ذكر ابن إسحاق العلة فى قذف الشياطين بالنجوم قال : ظهر القذف بالنجوم لئلا يلتبس الكذب بالوحى ، وليكون ذلك أظهر للحجة وأقطع للشبهة ، وعلق السهيلى على ذلك بقوله : والذى قاله صحيح . . . ويرى البعض أن القذف بالنجوم قد كان قديماً ، وذلك موجود فى أشعار القدماء من الجاهليِّين ومن ذلك قول أوس بن حجر وهو شاعر جاهلى :

فانقض كالدرى يتبعه   نقع يثور تخاله طنبا

والجاحظ ينكر ذلك ويقول كل شعر روى فيه مثل هذا فهو مصنوع ، وإن الرمى لم يكن قبل المبعث (٢٢٦)

وحجة الجاحظ قوية يؤيدها قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾ (٢٢٧)

ولكن الذين يقولون : إن الرمى كان موجوداً يقررون أنه فى الإسلام غلظ وشدد . . وهذا التغليظ والتشديد من علامات النبوة ، ويقولون فى

---

(٢٢٦) تفسير القرطبى ـ سورة الجن ـ ص ٦٨٠٥ ط دار الشعب
(٢٢٧) الجن ٨ ، ٩

الآية السابقة إن الله سبحانه وتعالى يقول على لسان الجن : ملئت ، ولم يقل حرست

وذكر ابن قتيبة أن الجن كانوا يسترقون السمع فى بعض الأحوال فلما بعث صلى الله عليه وسلم منعوا من ذلك أصلاً . . وذكر نافع أن الشياطين فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كانت تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رميت بالشهب (٢٢٨)

إن الله سبحانه وتعالى ـ ملأ السماء بالحرس والشهب لينحسم أمر الشياطين وتخليطهم ، لتكون الآية أبين والحجة أقطع وقد سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الكهان فقال : ليسوا بشىء ، فقيل : إنهم يتكلمون بالكلمة فتكون كما قالوا . .

فقال : تلك الكلمة من الجنى ، فيقرها فى آذان وليه قر الزجاجة ـ أو قر الدجاجة فى رواية أخرى ـ فيخلط فيها أكثر من مائة كذبة (٢٢٩)

لقد انقطعت أخبار السماء عن الكهان بمولد رسول الله ﷺ وكان كهان الجاهلية يرسلون توابعهم من الجن لاستراق السمع من السماء ومن ذلك مارواه ابن هشام عن الغيطلة وصاحبها قال :

قال ابن اسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن امرأة من بنى سهم يقال لها الغيطلة ، كانت كاهنة فى الجاهلية فلما جاءها صاحبها فى ليلة من الليالى

---

(٢٢٨) انظر تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣٠٦
(٢٢٩) الروض الانف جـ ١ ص ٢٢٤

فانقض تحتها ثم قال : ادر ماادر ـ وفى رواية مابدر يوم عقر ونحر . .
فقالت قريش : حين بلغها ذلك : ما يريد ؟

ثم جاءها فى ليلة أخرى فانقض تحتها ، ثم قال : شعوب ، ما شعوب ، تصرع فيه كعب لجنوب فلما بلغ ذلك قريشاً قالت : مايريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن ، فانظروا ماهو ؟

فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب ، فعرفوا أنه الذى كان جاء به التابع إلى صاحبته (٢٣٠) ومن ذلك أيضا . .

ما حدث به السهيلى قال : كان لفاطمة بنت النعمان النجارية تابع من الجن ، وكان إذا جاءها دخل عليها فى بيتها ، فلما كان أول البعث أتاها فقعد على حائط الجدار ، ولم يدخل ، فقالت له : لم لا تدخل ؟ فقال : قد بعث نبى فمنعنا من العبث واستراق السمع ، فكان ذلك أول ما ذكر النبى ﷺ بالمدينة (٢٣١)

أما كيف عرف الناس أن تساقط الشهب إبطال للكهانة وإحراق للشياطين فإليك هذا الخبر :

روى أبو جعفر العقيلى فى كتابه الصحابة عن رجل من بنى لهب يقال له لهب أو لهيب .

---

(٢٣٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ .
(٢٣١) انظر الروض الانف ج ١ ص ٢٣٩

قال لهيب : حضرت إلى رسول الله ﷺ فذكرت عنده الكهانة ، فقلت : بأبي وأمي ، نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم . وذلك أننا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له « خطر بن مالك » وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مائتا سنة أو أكثر وكان من أعلم كهاننا ، فقلنا : يا خطر هل عندك علم عن هذه النجوم التى يرمى بها ، فإنا فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها ؟ فقال :

ائتونى بِسَحَر
أخبركم الخبر
أبخير أم ضرر
أو لأمن أو حذر

قال : فانصرفنا عنه يومنا ، فلما كان من غد فى وجه السحر أتيناه ، فإذا هو قائم على قدميه ، شاخص فى السماء بعينيه ، فناديناه : أخطر ياخطر ؟ فأومأ إلينا : أن أمسكوا .

فانقض نجم عظيم من السماء ، وصرخ الكاهن رافعاً صوته :

أصابه أصابه خامره عقابه
عاجله عذابه أحرقه شهابه
زايله جوابه
ياويله ما حاله بلبله بلباله
عاوده خباله تقطعت حباله
وغُيِّرت أحواله

ثم أمسك طويلاً وهو يقول :

يامعشـــر بنـى قحطـــان	أخـــبركم بالحـــق والبيـــان
أقســمت بالكعـبة والأركـان	والبـلد المـؤتمن الســدان
لقد مُنع السمعَ عتاة الجان	بثـاقب بكــف ذي ســلطان
من أجل مبعوث عظـيم الشان	يبعـث بالتنزيـل والقـرآن
وبالهــدى وفاصــل القــرآن	تبطـل به عـبادة الأوثـان

قال : فقلنا : ويحك ياخطر ، إنك لتذكر أمراً عظيماً ، فماذا ترى لقومك ؟ فقال :

أرى لقــومي ما أرى لنفســى	أن يتبعــوا خــير بنى الإنس
برهــانه مثــل شـعاع الشمس	يبعــث فى مــكة دار الحـمس

بمحكم التنزيل غير اللبس

فقلنا له : ياخطر ، وممن هو؟

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، ما فى حلمه طيش ، ولا فى خلقه هيش - أى قبيح - ، يكون فى جيش وأى جيش ، من آل قحطان وآل أيش (٢٣٢)

---

(٢٣٢) آل قحطان هم الأنصار لأنهم قحطانيون ، وأما آل أيش ، فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين ينسبون إلى أيش ، وإلا فله معنى فى المدح غريب ، تقول : فلان أيش وهو ابن أيش ، ومعناه أى شيء عظيم هو ؟ فكأنه أراد من آل قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا

فقلنا له : بين لنا من أى قريش هو؟

فقال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحائم[٢٣٣] ، إنه لمن نجل هاشم ، من معشر كرائم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع من الجن الخبر .

ثم سكت وأغمى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة ، فقال : لاإله إلا الله . .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد نطق عن حق ، وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده[٢٣٤] .

وقد كان محل هذا الخبر تحت عنوان بشريات النبوة ، ولكن لما فيه من إشارات إلى رجم الشياطين كان من إرهاصات النبوة ودلائلها ، ولذلك ذكرناه هنا ـ

ترصـد اليهـود له :

إن هذه الدلائل التى ظهرت حتى ماتكاد تخفى على أحد ، غاظت غير المنصفين من أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود الذين كانوا يزعمون أن النبوة محصورة فيهم ، وغاظهم أن يتخطاهم هذا الشرف إلى غيرهم من الأميين

---

(٢٣٣) الإحائم : كناية عن رواد زمزم الذين يحومون حول مائها .

(٢٣٤) أشار إليه ابن الأثير فى أسد الغابة ج ٤ وذكر الخبر السهيل فى الروض الانف جـ ١ ص ٢٣٩

الذين يرون أنهم أدنى منهم وأقل شأناً أو خطراً من أن يكون فيهم رسول يبعث .

ولذلك كانت منة الله على العرب قوله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ (٢٣٥)

ووجه المنة كما يقول الماوردى : ثلاثة أشياء : موافقته ما تقدم من بشارات الأنبياء به ، فقد أخبروا بأن الرسول المبعوث آخر الزمان أمى ، ومشاكلة حاله حال المبعوث اليهم فهو أمِّى وهم أميون ، والأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك لينتفى الشك أو الادعاء فى أن ماجاء به إنما هو من الكتب التى قرأها أو الحكم التى درسها وهذا كله دليل معجزته وصدقه . . (٢٣٦)

قال ابن منظور فى لسان العرب : قيل لسيدنا محمد ﷺ الأمى ، لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة لأنه صلى الله عليه وسلم تلا عليهم كتاب الله منظوماً بالنظام الذى أنزل عليه ، فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبته ثم أعادها زاد فيها ونقص ، فحفظه الله - عز وجل - على نبيه كما أنزله وأبانه عن سائر من

---

(٢٣٥) الجمعة ٢

(٢٣٦) تفسير القرطبى سورة الجمعة ص ٦٥٧١

بعثه إليهم بهذه الآية التى باين بينه وبينهم بها وفى ذلك أنزل الله قوله ـ تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢٣٧)

ولقالوا إنه وجد هذه الأقاصيص مكتوبة فحفظها من الكتب (٢٣٨)

لذلك ترصد اليهود النبى ﷺ وهو طفل ليقضوا عليه قبل أن يكبر ويبعث ويستفحل أمره فيقضى على رسالتهم .

وقد رأينا أن بحيرى الراهب حين رآه وعرف مافيه من علامات النبوة أقبل على عمه أبى طالب وقال له : ارجع بابن أخيك واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوه لألحقوا به الشر فإنه سيكون لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به عمه راجعاً إلى بلاده .

وذكر أن عمه قد خرج به سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ، وقد روى أن نفراً من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رأى بحيرى فأرادوه ، فردهم عنه بحيرى وذكرهم بما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وانهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ولن يصلوا إليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه (٢٣٩)

---

(٢٣٧) العنكبوت ٤٨

(٢٣٨) لسان العرب جـ ١ ص ١٣٨ ـ مادة أمم ـ

(٢٣٩) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٦

وأخبر ابن هشام أيضاً قال : قال ابن اسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أنه مما هاج أمه السعدية على رده ـ وكان مسترضعاً عند حليمة السعدية فى بادية بنى سعد ـ إلى أمِّه آمنة بنت وهب ، أن نفراً من نصارى الحبشة رأوه معها فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ثم قالوا لها : إن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره ، قال : فذكر الذى حدثنى أنها لم تكد تنفلت به منهم إلا بصعوبة . .

وهذا الخبر يشير إلى أن النصارى كانوا على علم بأخباره كما كان اليهود كذلك . . إلا أن نية الغدر به لم تكن مبيتة عند النصارى كما كانت مبيتة عند اليهود . . ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢٤٠)

---

(٢٤٠) المائدة ٨٢ : ٨٥

ولقد كان اليهود ـ ومازالوا ـ يكنون العداوة للنصارى كما يكنونها للإسلام ، ومازالوا يأتمرون بالمسيح الذى بعثه الله إليهم مصححاً لعقائدهم وهادياً لهم حتى أنجاه الله من شرهم ، وقد كانوا أعدوا له من الشر ماأخبرت به الكتب وتحدثت به الأخبار .

وقد نقض اليهود العهود التى أبرمت معهم مرات مما اضطر النبى ﷺ إلى حربهم تخلصاً من شرهم .

لقد كانت عداوتهم للنبى مبكرة جداً قبل ولادته . . غذَّاها الحقد الدفين الذى توارثوه عبر الأجيال المتوالية . . فقد طُبعوا على التقلب ومُقابلة الإحسان بالإساءة . . ولقد أساءوا مصاحبة أنبيائهم الذين هم منهم فكيف يحسنون مصاحبة نبى آخر الزمان وهو ليس منهم ؟

وقد لقى أنبياؤهم منهم أشد أنواع البلاء والعذاب ولم يسلموا من الاعتداء عليهم بالقتل فى بعض الأحيان على النحو الذى أخبر به القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢٤١)

---

(٢٤١) آل عمران ٢١ : ٢٢

ويقوله :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ (٢٤٢)

ويقوله :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾ (٢٤٣)

فلماذا لايترصدون طلوع نجم آخر الأنبياء ، وهو من بنى اسماعيل لا من بنى إسحاق ، فيتخلصون منه قبل أن يحرمهم من ذلك الشرف الذى كانوا يدعونه لأنفسهم ؟

إنه لشرف حقاً ، ولكنهم لم يعرفوا قدره ، ولم يرتقوا بأنفسهم إلى مستواه ولم يحسنوا الاحتفاظ به . .

---

(٢٤٢) البقرة ٦١

(٢٤٣) آل عمران ١١٢

وقد مرت بنا آنفاً قصة اليهودى الذى رآه . . وعرف بالعلامات التى هى فيه أنه هو النبى الذى أخبرت به الكتب السابقة فأخذ يبكى وينتحب ، فسئل عن ذلك فقال : ذهبت النبوة من بنى إسرائيل . .

وحدث ابن هشام عن ابن إسحاق قال : كان رجل من لِهْب عائفاً ، فكان اذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم . . أى يخبرهم عما سيكون عليه شأنهم فى المستقبل - ، قال : فأتى أبو طالب بمحمد ﷺ وهو غلام مع من يأتيه ، فنظر اللهبى إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شىء ، فلما فرغ قال : أين الغلام علىَّ به

فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيَّبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ردوا علىَّ الغلام الذى رأيت آنفاً ، فوالله ليكونن له شأن .

قال : فانطلق به أبو طالب . .

وكان هذا اللهبى هو لِهْب بن أحجن بن كعب بن الحارث ، من قبيلة لِهْب ، وهى حى من الأزد مشهورة بالعيافة والزجر ، وفى هذه القبيلة يقول الشاعر :

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقاله لهبى إذ الطير مرت

كانت لديهم خبرة بالعيافة والزجر . . قال ابن منظور : العائف هو الذى يعيف الطير فيزجرها ، ويتفاءل بأسمائها وأصواتها واتجاه سيرها . . .

وممن اشتهر مع بنى لهب فى ذلك بنو أسد أيضاً ، ومما رواه ابن منظور من الطرائف فى ذلك : أن قوماً من الجن تذاكروا عيافة بنى أسد فأتوهم ،

فقالوا : ضلت لنا ناقة فلو أرسلتم لنا من يعيف ؟

فقالوا لغلام صغير لهم : انطلق معهم ... فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا ، فلقيهم عقاب كسر أحد جناحيها فاقشعر الغلام وبكى ، فقالوا : مالك ؟

فقال : كَسَرت جناحا ، ورفعت جناحا ، وحلفت بالله صراحا ، ما أنت بإنسى ولا تبغى لقاحا [٢٤٤]

والعيافة لون من الفراسة وقوة الذكاء كالقيافة التى هى استدلال القائف بهيئة الشخص وكلامه وظاهر أعضائه على أخلاقه وصفاته ..

لقد رأى ذلك اللهبى الذى تفرس فى النبى ﷺ رأى فيه مخايل النبوة وعرف فيه اتصالاً بينه وبين السماء على صورة لا تكون فى الناس عامة ، بل هى لذلك الذى تواترت الأخبار عنه بأنه نبى هذه الأمة ..

وإذن ، فعلامات النبوة التى جاءت بها أخبار الكتب وأثبتها أحبار أهل الكتاب وتبينوها فى النبى ﷺ صدقتها أخبار الكهان الذين كانوا يتسقطون الأخبار من السماء بواسطة الجان وصدقتها أيضاً فراسة المتفرسين من أذكياء العرب وعُيَّافهم ..

لقد كان علماء أهل الكتاب يكادون يجزمون بمعرفة اليوم الذى سوف يبعث فيه النبى ﷺ جاء فى السيرة الحلبية مايلى : يروى ابن الجوزى أن طلحة بن عبيد الله قال : حضرت سوق بصرى فإذا راهب فى صومعة يقول :

---

(٢٤٤) لسان العرب جـ ٤ ص ٣١٩٣

سلوا أهل الموسم : هل فيكم أحد من أهل الحرم
قال طلحة : فقلت نعم ، أنا

قال لى : هل ظهر بمكة أحمد ؟
قلت : من أحمد ؟

قال : ابن عبدالمطلب ، هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، ومخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخلة وحرة وسباخ .

قال طلحة : فوقع فى قلبى ما قال الراهب ، فخرجت حتى قدمت مكة فقلت : هل كان مِنْ حَدَث ؟

قالوا : نعم ، محمد بن عبد الله الأمين تنبأ ، وتابعه ابن أبى قحافة ، فخرجت حتى أتيت أبا بكر فأخبرته ، وقلت له : هل بعث هذا الرجل ؟

قال : نعم ، انطلق فتابعه فإنه يدعو إلى الحق . .

قال طلحة : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته خبر الراهب وما قال لى . . (٢٤٥)

وأسلم طلحة وكان من السابقين إلى الإسلام ـ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . .

---

(٢٤٥) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣١٣ ـ وبشائر النبوة الخاتمة د . رؤوف شلبى ص ١٦٩

جاء في الطبقات الكبرى على لسان حليمة السعدية : لقد أمرتني أمه - أم النبي ﷺ أن أسأل عنه ، فَرَجَعْتُ به إلى بلادها ، فأَقَمتُ به حتى قامت سوق عكاظ ، فانطلقتُ برسول الله ﷺ حتى أتيت به إلى عرّاف من

هذيل ، يريه الناس صبيانهم ، فلما نظر إليه صاح : يا معشر العرب ، فاجتمع إليه الناس من أهل الموسم فقال : اقتلوا هذا الصبي . .

وانسلت به حليمة ، فجعل الناس يقولون : أى صبي ؟

فيقول : هذا الصبي ، فينظرون ولا يرون شيئاً فقد انطلقت به حليمة بعيداً عنهم ،

فيقال له : ماهو ؟

قال : رأيت غلاماً ، وآلهته - يعني أقسم بآلهته - ليقتلن أهل دينكم ،وليكسرن آلهتكم ، وليظهرن أمره عليكم .

فبحث الناس عنه بعكاظ فلم يجدوه ، ورجعت به حليمة إلى منزلها ، فكانت بعد لا تعرضه لعراف ولا لأحد من الناس . .

وفي رواية أخرى : أن هذا الشيخ الهذلي جعل يصيح : ياللهذيل ، وآلهته ، إن هذا لينتظر أمراً من السماء - يعني بذلك النبي ﷺ وجعل يغرى بالنبي ﷺ وظل الرجل على ذلك حتى دَلِهَ عقله ومات كافراً (٢٤٦)

---

(٢٤٦) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٩٨ ومعنى دله عقله : ذهب وجن

من دلائل نبوته صغيراً :

لقد صَحِبَتْ النبى ﷺ فى صغره علامات تشهد بأنه محل نظر الله فى الأرض ، وبأنه محفوف بعناية الله مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢٤٧)

لقد رأت حليمة منه فى رضاعه الأعاجيب . .

فما أن ضمته إلى صدرها حتى فاض ثدياها باللبن على صورة لم تعهدها ولم تألفها من قبل . .

وما أن امتطت حمارها حتى سبقت به الركب ، وكان هزيلاً وانيا فى أثناء قدومها حتى كان فى مؤخرة القوم ، فلم تستطع التسابق مع المتسابقات إلى بيوت الأثرياء لتحصل على رضيع موسر كما حصلت صواحبها .

وكان من نصيبها ذلك اليتيم الذى قبلته على مضض . . ولكنها حصلت بحصولها عليه على كل السعادة والغنى والبركة والخير . . حتى قال لها زوجها : تعلمى يا حليمة لقد أصبت نسمة مباركة .

ومأن عادت به إلى بادية بنى سعد حتى أخصب مرعاها وفاض الخير لديها حتى تعرضت لحسد الحاسدين من ذوى قرباها . .

---

(٢٤٧) الطور ٤٨

وكان يشب بصورة غير معهودة فلم يبلغ سنتيه عند حليمة حتى كان غلاماً جَفْراً ـ كما تقول حليمة السعدية (٢٤٨)

لقد تفتحت مخايل النبوة فى هذا الغلام الناضر الذى أشرقت الدنيا بطلعته واستنار الكون ببهجته

وأقبل على مهام الأمور وعنى بها على الرغم من صغر سنه ، وشغلت مكارم الأخلاق قلبه ، فلم يعد يعنى بسفاسف الأمور ، وربما استرعى انتباهه ما يسترعى انتباه أترابه من الأطفال فتتدخل العناية الإلهية لتحفظه وتوجهه إلى الوجهة التى اختاره الله لها .

قال ابن هشام : « فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى سماه قومه الصادق الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة » (٢٤٩)

---

(٢٤٨) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨٦

(٢٤٩) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٦

« وفى حسن أخلاق نبينا ﷺ صغيراً مُثُل تهيب بنا أن نجعلها الأسس الكاملة فى برامج التربية لأطفالنا حتى يشبوا على مُثُل كاملة من الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة الكريمة . .

ولقد عرف النبى ﷺ هذه المنة الكريمة التى أكرمه الله بها ، حيث آواه ورباه ، فكان يحدث عن ذلك شكراً لله على رعايته وحفظه ويقول « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

ومما حدث به فى ذلك وذكره ابن هشام فى سيرته قوله : « لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلهم قد تعرى وأخذ إزاره ، فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، وإنى لأقبل معهم وأدبر فهممت أن أفعل مثلهم إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك ، قال : فأخذته وشددته علىَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وازارى علىَّ من بين أصحابى »

وقد وردت هذه الرواية الصحيحة فى الحديث الصحيح فى قصة بناء الكعبة ، فقد كان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها ، وكانوا يجعلون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة وكان رسول الله ﷺ يحملها على عاتقه وازاره مشدود به ، فقال له العباس ـ رضى الله عنه ـ يابن أخى

لو جعلت إزارك على عاتقك ، ففعل فسقط مغشيا عليه ، ثم قال : إزارى ، إزارى فشد عليه إزاره ثم قام بعد ذلك بحمل الحجارة .

وفى حديث آخر : أنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه ، فأخبره أنه سمع من يقول له : أن اشدد عليك ازارك يامحمد ، قال : وإنه لأول ما نودى . .

فهذه الروايات تدل على ملاحظة العناية له ، وأنه كان يُوَجَّهُ أولا بأول إلى ما ينبغى أن يفعل فلم يُتْرك منذ صغره يفعل إلا ما يليق بالكبار ، وإلا ما يتفق مع الحياء ، وآداب الإسلام ، التى ستتقرر بعد ذلك .

ومما تجدر روايته فى هذا الصدد ما يرويه ابن الأثير فى خبر عن رسول الله ﷺ قال : ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين .

حال بينى وبينه الله ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله برسالته . . . قلت ليلة للغلام الذى يرعى الغنم معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . .

فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حرارة الشمس . .

فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته . .

ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء . .

فهذه الرواية أيضاً تدل على أن الله قد لحظ صفيه بعين التوجيه السديد ، حتى لا يحدث منه ما يحدث من لداته عادة ، وهذه تربية النبوة ودلائلها وارهاصاتها . . وقد ورد مثلها مع أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى قال الله تعالى فى حقه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢٥٠)

ومع موسى الذى قال الله له :

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ (٢٥١)

ولقد كان جو مكة مهيئاً لأن ينساق الشباب فى تيار الضلال ، والفساد الذى كان يضرب برواقه على مجتمعها ولم يستطع أن ينكره سوى عدد قليل من العقلاء لا يجاوز عددهم أصابع اليدين ، أما أن يستنكره ناشىء صغير فذلك من عظمة القدر أو قل من توجيهات السماء التى لا تريد أن تترك هذا

---

(٢٥٠) الأنبياء ٥١

(٢٥١) طه ٤١

الفتى ـ الذى اختاره الله وهيأه للقيام بالمهمة الكبرى ـ لتصرفات المجتمع الحمقاء (٢٥٢)

لقد كانت الصفات الأثيرة التى وصف بها القرشيون محمداً ﷺ قبل بعثته هى الصدق والأمانة وحسن الخلق . وهى صفات لم تتولد من فراغ ، ولكنهم شاهدوها منه وجربوها فيه ، فلقد عرفوا عنه أنه لم يكذب قط وعرفوا أنه لم يخن قط ، فسموه الصادق الأمين والصدق والأمانة هما أساس كل خلق كريم ومعدن قويم ..

حادث شق الصدر

يعد شق صدر النبى ﷺ من إرهاصات النبوة التى لا شك فيها .. وقد تكرر حادث الشق مراراً على إثر كل مرة كانت هناك مرحلة هامة من مراحل حياته ..

وقد ذكرنا أن شقاً حدث فور ولادته ﷺ فقد روى العباس قائلاً : سألتِ آمنة بنت وهب ما الذى رأيت فى ولادتك ؟ فكان مما قالت رأيت رجلاً من أتم الناس طولاً وأشدهم بياضاً ، فأخذ المولود منى وحمله على يديه وكان معه طاس من ذهب فشق بطنه ، ثم أخرج قلبه فشقه شقاً ، فأخرج منه نكتة سوداء فرمى بها ، ثم أخرج صرة من حرير أخضر ففتحها فإذا فيها شىء كالدرة البيضاء فحشاه بها ، ثم رده إلى مكانه ، ثم مسح على بطنه فاستيقظ

---

(٢٥٢) هدى السيرة ـ عبد الحفيظ فرغلى القرنى ص ٣٤ ط دار الفكر العربى

فنطق ، فلم أفهم ماقال ، إلا أن الرجل قال : أنت فى أمان الله وحفظه وكلاءته ، قد حشوتك علماً وحلماً ويقيناً وإيماناً وعقلاً وشجاعة ، وأنت خير البشر (٢٥٣)

كان هذا الشق لصدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى المهد . . وهو يستقبل الحياة لأول مرة بعد ولادته . . فاستقبلها بهذا الاستعداد الربانى الذى وضعه فيه . .

وفى بادية بنى سعد حدث شق آخر . .

قالت حليمة ـ فيما يرويه ابن هشام ـ : بينما محمد ﷺ مع أخيه (٢٥٤) خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه (٢٥٥)

قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً متغيراً وجهه ، فالتزمته ، والتزمه أبوه .

فقلنا له : مالك يابنى ، قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ماهو ، قالت : فرجعنا إلى حياتنا .

وقد قص النبى ﷺ بعد النبوة ذلك فقال : فيما يرويه خالد بن معدان الكلاعى : أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يارسول الله :

---

(٢٥٣) حجة الله على العالمين ص ٢٢٦
(٢٥٤) أى فى الرضاعة
(٢٥٥) يسوطانه : يحركانه

أخبرنا عن نفسك ، قال : نعم ، أنا دعوة ابراهيم ، وبشرى أخى عيسى ،ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ خلف بيوتنا نرعى بُهْماً لنا إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض ، ثم أخذانى فَشَقَّا بطنى ، واستخرجا قلبى ، فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال : دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها (٢٥٦)

وهذه الرواية متواترة . . وتؤكد أن حادث الشق تم فى بادية بنى سعد . .

وهناك حديث يشير إلى أن حادثاً مثل ذلك كان بصحراء مكة . .

روى ابن أبى الدنيا وغيره باسناد يرفعه إلى أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يارسول الله كيف علمت أنك نبى؟ وبم علمت؟

قال : ياأبا ذر أتانى ملكان ، وأنا ببطحاء مكة ، فوقع أحدهما بالأرض ، وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ قال : هو هو

قال : فزنه برجل ، فوزننى برجل فرجحته ، ثم قال : زنه بعشرة ، فوزننى فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة فوزننى فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف ، فوزننى فرجحتهم . . . .

---

(٢٥٦) سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٧٨

فقال أحدهما لصاحبه : شق بطنه فشق بطنى ، فأخرج قلبى ، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطرحهما .

فقال أحدهما لصاحبه : اغسل بطنه غسل الإناء ، واغسل قلبه غسل الملاء .

ثم قال أحدهما لصاحبه : خِط بطنه ، فخاط بطنى ، وجعل الخاتم بعد كتفى كما هو الآن ، ووليا عنى وكأنى أعاين الأمر معاينة (٢٥٧)

وحدث شق آخر ليلة الإسراء وحين عرج به إلى السماء ، وفيه أتى بطشت من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغ فى قلبه . وعلق السهيلى على تكرار هذا الحادث بقوله : لقد تكرر هذا التطهير مرتين : الأولى : فى حالة الطفولة لينقى قلبه من مغمز الشيطان وليطهر ويقدس من كل خلق ذميم ، حتى لا يتلبس بشىء مما يعاب على الرجال ، وحتى لا يكون فى قلبه شىء إلا التوحيد ، ولذلك قال : فوليا عنى وكأنى أعاين الأمر معاينة . .

والثانية : فى حال الاكتهال ، وبعدما نبىء ، وعندما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة التى لا يصعد اليها إلا مطهر مقدس ، وعرج به من هنالك لتفرض عليه الصلاة وليصلى بملائكة السموات ، ومن شأن الصلاة الطهور ، فطهر ظاهراً وباطناً وغسل بماء زمزم .

مناقشة من ينكرون شق الصدر :

ولا ندرى لماذا يشكك بعض الناس فى مسألة شق الصدر وكأنهم

---

(٢٥٧) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ ص ١٨٩ وروى مثل هذا عن أبى هريرة وسياتى

يستكثرون هذا الحادث ، أو كأنهم لا يريدون أن يثبتوا معجزات مادية للنبى ﷺ اكتفاء بالمعجزة الخالدة الباقية وهى القرآن الكريم . .

ولكن شق الصدر قد ثبت حدوثه حقيقة . . وفيه رموز لا ينبغى إغفالها . .

ذاك أن غسل الصدر بالماء المثلج بعد شقه فيه رمز إلى برد اليقين الذى تحلى به سيد المرسلين ﷺ وكان فى قمة التخلق به .

وقد ناقش العلماء دعاوى الذين ينكرون هذا الحادث ، ونقتطف من هذه المناقشات مايلى :

قال صاحب كتاب بشائر النبوة الخاتمة :

« التنقية حسياً ومعنوياً فى عالم البشر شىء مألوف ومرغوب فيه ، فاستحمام الإنسان استعداداً للقاء عزيز . عمل يزينه العقل وتدعو إليه العادة ، وتأسف الإنسان لصديق عن خطأ ألم به فى حقه مثل أخلاقى محمود ومعقول . . ذلك شأن الإنسان العادى الذى يرتبط فى حياته بأخلاقيات الأرض ويتصل فى شئون عمره بأنظمة البشر » . .

أما الأنبياء فهم أصحاب بشرية سوية ، لأنهم يعيشون على الأرض وهم متصلون بالسماء رعاية وتربية وإعداداً لرسالة المستقبل ، وتنقية هؤلاء الأنبياء وتربيتهم تأخذ مستوى سلطان المربى وما يملك من وسائل الإعداد والتربية والتطهير . .

إن حياة الأنبياء منذ الاصطفاء حياة ربانية ، واصطفاؤهم عند الله منذ الأزل . . فإعدادهم يكون على هذا المستوى الربانى ، وليس عند العقل ما يرفض ذلك الواقع لإدراكه الفرق الكبير بين التربية الربانية والتربية البشرية العادية ، ونحن نرى أن البشر يتفاوتون فى استخدام أفضل وسائل التربية وذلك باختلاف نظم الشعوب ومناهجها وطرق علمائها وتربية الأنبياء لا يمكن أن تخضع لهذا التخبط . إن حياة الأنبياء لها ميزة خاصة لأنهم يربون فى رحاب الله كما قال سبحانه :

« فإنك بأعيننا »

ولقد كان شق الصدر الشريف عملية تربية وتنقية لرسول الله ﷺ وذلك لكى يتخلص من علائق الحياة العادية لتبقى الذات سوية لا تشوبها شائبة من شوائب الحياة المادية وطبيعتها . .

ومن جانبنا نرى أن هذه العملية كانت طبيعية بالنسبة لإعداد الرسول ﷺ للرسالة ، فمن أجل أن يكون رسولاً كان لزاماً أن تنقى ذاته النبوية من الشوائب البشرية لتظل تربيته ربانية .

جاء فى المواهب اللدنية : واستخراج العلقة من قلبه تطهير له عن حالات الصبا وعبث الصبيان حتى يتصف فى سن الصبا بأوصاف الرجولة ، ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان وغيره . .

وإنما خلقت فيه هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقها تكملة للخلق الإنسانى ولابد ، ونزعها كرامة ربانية ورعاية إلهية . فإخراجها بعد خلقها أدل على مزيد من الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية .

وقال العلامة السبكى : لو خلق سليماً منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته ، فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما يرون كمال الظاهر .

ولهذه الخاطرة أسانيد ، وقد تكررت هذه التنقية فى أوقات توحى ظروفها أن الذات النبوية أو البشرية السوية تستلزم التنقية من مظاهر البشرية العادية الناجمة عن تغذية الأرض فى مراحل متعددة .

وقد تحدث عن سر هذا التكرار فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله فقال : وهذا الحادث وقع للرسول ﷺ منذ طفولته المبكرة . . لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان ـ على مايرويه الإمام مسلم ـ أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا خط الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعنى مرضعته ـ قائلين إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر . . . فقد روى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن كعب أن أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ كان جريئاً يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يا رسول الله ، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال :

لقد سألت أبا هريرة : إنى لفى الصحراء وأنا ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو؟ قال : نعم ، فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلىَّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد أحدهما مساً فقال أحدهما لصاحبه :

أضجعه ، فأضجعانى بلا قسر ولاهصر ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع . .

فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها .

فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرجه يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغد واسلم .

فرجعت أغدو رقة على الصغير ورحمة على الكبير .

ويقول : بينما كان فى الحطيم أو الحِجْر مضجعاً بين النائم واليقظان أتاه فشق عن صدره حسبما يروى البخارى ومسلم ـ واستخرج قلبه . . ثم أتى بطست من ذهب قد مُلِء إيماناً ، فغسل قلبى ثم حشى ، ثم أعيد . .

وكان المعراج فتكرر شق الصدر . .

ولايعنينا هنا ـ لا فى قليل ولا فى كثير ـ أن نمارى الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل والكيف والزمان والمكان . .

والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التى تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة [٢٥٨] ، وروت كتب السيرة [٢٥٩] ، هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ منذ طفولته المبكرة .

وإن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله خط الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل .

إن الله سبحانه وتعالى ـ وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل .

والانسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب وتصفية النفس والتوبة والإخلاص ، أو بتعبير آخر بشق الصدر واستخراج خط الشيطان منه .
وأرسل الله ملائكته فشقوا عن صدر رسول الله ﷺ واستخرجوا خط الشيطان منه

وأرسلهم فشقوا عن صدره وملأوه سكينة .
وأرسلهم فشقوا عن صدره وملأوه رأفة ورحمة
فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ رقة على الصغير ورحمة على الكبير . .

---

(٢٥٨) ورد هذا الخبر فى البخارى جـ ١ ص ١٨٢ ـ مسلم جـ ١ ص ١٠١ ط الحلبى
(٢٥٩) الوفا بحقوق المصطفى جـ ١ ص ٢١٩ ـ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٤ ـ الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٩ ـ تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٨ ـ الخصائص جـ ١ ص ١٣٤ ـ دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٢٩٣ ـ أعلام النبوة ص ١٥٣

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره فملأوه إيماناً . .
ثم شقوا عنه فملأوه حكمة .

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعد ليكون الأسوة الحسنة والمثل الكامل للنقاء والصفاء والرحمة والسمو

إنه سيكون المقياس والدليل والإمام ، فلابد وأن يتحقق فيه سنام النقاء ، وذروة الصفاء وغاية السمو ، حتى يكون هو القدوة والمثل .

ولقد كانت هذه الإجابة من النبى ﷺ على سؤال أبى هريرة : إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر . .

هذه الرواية إشارة إلى تنقية بدأت مصاحبة لطفولته ، وليس ذلك بغريب إذا تصورنا القضايا فى جوها المتناسق ، نبوة المصطفى من رب العالمين . .

ولقد كان محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ذروة النقاء والصفاء والسكينة والرحمة والإيمان والحكمة ، وصدق الله العلى العظيم :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٦٠)

وصدق الرسول الكريم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

ويمضى صاحب بشائر الرسالة الخاتمة ويناقش منطق الدكتور هيكل الذى ينساق مع المستشرقين فى إنكار حادث شق الصدر . . فيقول :

---

(٢٦٠) القلم ٤

« غير أن بعض الشواذ من الكتاب الإسلاميين الذين يستحبون الاستشراق على الذاتية الإسلامية لا يستريحون لرواية شق الصدر . . . يقول الدكتور هيكل :[٢٦١]

قصة لا يطمئن إليها المستشرقون ولا يطمئن اليها جماعة من المسلمين كذلك . . قصة الملكين هذين ، ويرونها ضعيفة السند ، فالذى رأى الرجلين فى رواية كتاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلاً ، وكانت كذلك سن محمد يومئذ .

والمستشرقون ومعهم جماعة من المسلمين الملتفين معهم فى غلالة الشك مخطئون فى الفهم والبحث من عدة جوانب :

الجانب الأول : زاوية تفهم حياة الرسول ﷺ فيما قبل البعث وفيما بعده
الجانب الثانى : زاوية التحمل التاريخى لرواية الحادثة
الجانب الثالث : محاولة تحقيق القصة برواية تتمشى مع الزاوية التى يريدون أن يفهموا منها شخصية الرسول ﷺ ومستوى الرواية فى الحديث .

أما فيما يتعلق بالجانب الأول ، فالمخطئون حينما يدرسون السيرة النبوية العطرة يركزون فى دراساتهم على جانب البشرية البحتة فى شخصية الرسول ﷺ ولا يتنبهون إلى أن هذه البشرية داخلة فى إطار « يوحى إليه » فينبغى إذا درس هؤلاء القوم حياة الرسول ﷺ أن يلاحظوا جوانب

---

(٢٦١) حياة محمد ﷺ ص ١١١

الشخصية النبوية الكريمة فى إطار الرسالة والبشرية معا من قبل الابتعاث ومن بعده . .

وهذا أمر واضح جداً فى عصرنا الحديث ، عصر الإيمان بالتخصص ، فليس هناك مجال من المجالات يقوم على شأنه مدير أو رئيس غير متخصص ، وإلا فسد العمل ، بل لا يسمح البتة لطبيب متخصص فى جراحة العيون أن يقوم بإجراء جراحة فى القلب أو فى الأمعاء مثلاً .

بل إن المتخصصين أنفسهم يتفاوتون فى مجال تخصصهم نتيجة لتفاوت الذكاء والنشاط والاستفادة من التدريب واستيعاب المعلومات والقدرة على دقة تطبيقها . .

والنبوة مجال أعظم من كل مجالات الحياة وأخطر كثيراً جدا من كل مجالات التخصص ، فإن الأنبياء هم المصطفون عند الله لتبليغ وحيه وإرساء قواعد الحياة التى يريدها الله للانسان ليحيا عليها .

وبالطبع وحسب مجريات الأمور فى الحياة العادية لابد وأن يكون للأنبياء حظ وافر من التهيئة والإعداد الربانى قبل الرسالة ، والذى يتولى هذه التهيئة والتربية والإعداد هو صاحب الكون والملكوت الذى سينيبهم عن جلاله فى تبليغ أحكامه .

وعلى سبيل المثال مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فإن رئيس الدولة يتخير الممثل له الذى سيتحدث باسمه ، ويجرى له تدريبات واختبارات حتى يتحقق من قدرته على النيابة عنه . هذا فى جانب البشر . . فما بالك إذا كان الأمر

يتعلق بتبليغ رسالة الله جل جلاله وهو الذى سيختار ويصطفى وهو فعال لما يريد فكيف يكون الاختيار ؟

واذا كان هو جل شأنه المربى وهو الذى أتقن كل شىء فكيف تكون التربية ؟

يقول الإمام الماوردى : تَدَرَّجَتْ إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحواله فى النبوة حتى علم أنه نبى مبعوث ورسول مبلغ ، وترتبت هذه الأحوال والمراتب وتنقل فيهن من منزلة إلى منزلة حتى بلغ غايتها .

ثم يقول : والمنزلة الثانية ما ميز به عن سائر الخلق من ترفعه على الأرجاس وتطهيره من الأدناس ليصفو فيصطفى ويخلص فيستخلص فيكون ذلك انذاراً لأمر ، وتنبيها على العاقبة . .

ويقول : ولا منزلة فى العالم أعلى من النبوة التى ـ هى سفارة بين الله ـ تعالى ـ وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق ، فكان أفضل الخلق بها أخص . . . وأعلمهم بشروطها أحق وأمس . . . ولم يكن فى عصر الرسول ﷺ ولا قبله ولا بعده من يساويه فى فضله ، ولا فى كماله وخلقه وبذلك وصفه الله تعالى بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . .

فالعصمة للنبى طبيعة وجبلة منذ اصطفاه الله وآدم منجدل فى طينته ، إنها له جبلة منذ تعلقت إرادة الله جل شأنه فى الأزل البعيد بأن سيكون محمد ﷺ رسولاً . .

وعلى هذا فينبغى أن يلاحظ أن بشرية الرسول ﷺ بشرية معصومة منذ

طفولتها المبكرة منذ وجوده فى الحياة ، منذ ولادته . .

ومن الإشارات اللطيفة لفضيلة الدكتور محمد بن فتح الله بدران ـ رحمه الله ـ قوله : إن القرآن الكريم يقرن محمداً ﷺ دائماً بالرسالة ، وكأنها مقصورة عليه ، وكأنه مقصور عليها ، واقرأ فى ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (٢٦٢)

وقوله :

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ ﴾ (٢٦٣)

وقوله :

﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ (٢٦٤)

وقوله :

﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ ﴾ (٢٦٥)

وقوله :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾ (٢٦٦)

---

(٢٦٢) آل عمران ١٤٤
(٢٦٣) هـــود ١٢
(٢٦٤) الشورى ٤٨
(٢٦٥) فاطـــر ٢٣
(٢٦٦) ســـبأ ٢٨

وتدبر معى قوله - تعالى - فى سورة الأحزاب :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢٦٧)

واتخذ شعارك دائماً من سورة الفتح قوله تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (٢٦٨)

فقد وضح أنه من الخطأ البين الذى بسببه لا يطمئن المستشرقون وإخوانهم من تلاميذهم فى الشرق الاسلامى إلى قضية شق الصدر - أنهم غير قادرين على أن يتفهموا شخصية الرسول الكريم ﷺ إنْ قبل البعثة وإنْ بعدها - وهم ينظرون إليها من زاوية البشرية البحتة فقط ، ويجعلون عقولهم وما أصغرها فى ساحة هذا الشرف العظيم-هى المقياس فى إدراك حقائق عليا تخص نبينا ﷺ الذى شاء الله - تعالى - له منذ الأزل أن يكون للعالمين نذيراً .

ولفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود استفاضات جيدة فى عرض منهاج الباحثين الذين يرغبون فى تفهم سيرة النبى ﷺ يقول فيه :

بعض الناس حينما يقرأون القرآن فتمر عليهم الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (٢٦٩)

---

(٢٦٧) الأحزاب ٤٠

(٢٦٨) الفتح ٢٩

(٢٦٩) الكهف ١١٠

يقفون عند كلمة بشر . .

ويحاول الواحد منهم التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كله إليها ، وتحويل الأنظار نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ويندفع فى هذا الاتجاه اندفاعاً لا يتناسب قط مع قوله تعالى « يوحى إلى » ويهملها إهمالاً . .

وينسى فى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ ﴾ (٢٧٠)

وينسى في ذلك قوله تعالى : « يوحى إلىَّ » وينسى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لست كهيئتكم »

وينسى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (٢٧١)

ثم يقول : ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه النظرة هى نظرة أبى جهل إلى النبى ﷺ وهى نفسها النظرة التى تبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحديث ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم . .

وماكان المستشرقون فى التركيز على بشرية الرسول إلا متابعين لزعيمهم الأكبر فى هذه النزعة وهو أبو جهل ، وكل من يركز من الكتاب على بشرية الرسول ﷺ فقط دون نظر إلى ما يتلوها من النبوة والرسالة وهو الأهم إنما هو

---

(٢٧٠) النجم ٣

(٢٧١) النور ٦٣

بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة ، أو هو يتابع أبا جهل . .
وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين ، بل هم من الرجعيين لأن هذا القول ترجع فكرته إلى ما قبل أربعة عشر قرناً مضت يتزعمهم فيها أبو جهل وغيره من كفار العرب الذين كانوا يريدون البقاء فى الظلمة القلبية . . .

ثم يحدد الدكتور عبدالحليم محمود ـ رحمه الله ـ الموقف فيقول :

« هناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس :

طرف « بشر » أى الذين يركزون على قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم » .

وطرف « يوحى إلىَّ » أو الذين يركزون على قوله تعالى « وما محمد إلا رسول الله » وبين الطرفين يتأرجح عدد لايحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا ، انخفاضا وسموا ومقياس درجة الإيمان الذى لا يخطىء إنما هو فى الجمع بين الأمرين فلا نغلب البشرية ولانتفيها عنه ونخرجه منها فهو صلى الله عليه وسلم بشر رسول . . بشر لاكسائر البشر ، وإنما يوحى إليه إنهما يمثلان مايوضع فى كفتى ميزان :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وإذن فالزاوية التى يجب أن يلتزمها المؤمنون والباحثون فى السيرة النبوية هى البشرية السوية ، البشرية التى رباها ربها ، بشرية يوحى إليها حتى لايخطئوا ، وتلك هى الزاوية التى يتجنبها الدكتور هيكل وجماعة المسلمين الذين معه فى حلقة الاستشراق . . [٢٧٢] .

---

(٢٧٢) انظر بشائر الرسالة الخاتمة د . رؤوف شلبى ص ١٩٤ وما بعدها

تعليق على ماقالوه بشأن الراوى

ولقد قال هؤلاء المشككون فى قضية شق الصدر : إن الراوى طفل لايتجاوز سنه عامين أو أكثر قليلا .

ولكن الواقع أن التى روت هذه القصة إنما هى حليمة السعدية ذاتها ، فالتحمل التاريخى لهذه الرواية ـ كما يقول الدكتور رءوف شلبى ـ مرتبط بإخبار السيد حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهى لم تحمل الرواية من إخبار ولدها الذى جاءها وهو يشتد ، بل لقد انتقلت هى وزوجها إلى مكان الحادث .

وبنفس الألفاظ التى نقلها إليها ولدها ، أخبرها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما حدث له . فى كل الروايات التى تناقلها الرواة كان الراوى لهذه القصة فيها هى حليمة السعدية نفسها . وهى وان كانت قد تلقت الخبر لأول مرة من طفلها الذى سعى إليها وهو يشتد إلا أنها أخبرت بأنها انتقلت إلى مكان الحادثة ثم قصت بأسلوبها ماحدث ، وإن أول دليل على صدق القصة أنها تمت فى جوها الطبيعى والجو الطبيعى هو انفعال ولدها الصغير ورعبه من هول الحادث وفزعه إلى والدته ليخبرها ثم انتقال حليمة وزوجها بناء على الاخبار الى مكان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمشاهدة ماحدث ، ثم رؤيتها له وهو ممتقع اللون .

فليكن مخبر حليمة صغيرا أو كبيرا ، فإن صحة الرواية ثابتة لاشك فيها ورؤية الأطفال لهذه الحوادث هو الأمر المقبول عقلا ، لأنهم هم الذين كانوا فى مسرح الحادث وهم المشاهدون لها وليس معهم سواهم من الكبار . .

والطفل عادة لايكذب ، إنه صريح بالفطرة . . ولايتلون لسانه بالكذب إلا حين يكبر .

ثم إن نضج محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان نضجا غير عادى ، لقد شب شبابا لا يشبه لداته وقد اعترف الذين كذبوا هذه الحادثة أنفسهم بذلك وهذا هو الدكتور هيكل نفسه يقول فى كتابه حياة محمد : ويجد هو فى الصحراء وخشونة عيش البادية مايسرع به إلى النمو ، ويزيد فى وسامة خلقه وحسن تكوينه . .[٢٧٣] .

وابن كثير يقول : كان يشب شبابا لايشبه الغلمان ، فوالله مابلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا وهو ماقرره ابن هشام أيضا فى سيرته ، وهو ماحدثت به حليمة السعدية نفسها . .

أما ابن الجوزى فيقول على لسان من شاهدت نمو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : وكان يشب فى اليوم شباب الصبى فى الشهر ، ويشب فى الشهر شباب الصبى فى السنة ، قالت فبلغ سنتين وهو غلام جفر . ومؤدى ذلك أنه كان يدرك تماما ماحدث وماحصل له . .

لقد سمعت حليمة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماسمعته وهو يعنى مايقول ، لقد كان تام التكوين ، سليم العقل صادق الاحساس دقيق التعبير .

---

(٢٧٣) حياة محمد ﷺ ص ١١

وليس أدل على صدق الرواية التى روتها من أنها قررت هى وزوجها إرجاع الصبى إلى أمه بعد أن رأت مارأت ، وسمعت ماسمعت . . وقد كانت حريصة على بقائه معها ، وهى التى سألت أمه بعد أن انتهى رضاعه منها فى عامين أن تعيده معها إلى البادية مرة أخرى وتذرعت بالخوف عليه من وباء مكة ، وألحت فى سؤالها ، حتى رضيت أمه آمنة بذلك ، وتركتها تعود به مرة أخرى ، ثم إذا بأمه تفاجأ بعودة حليمة إليها سريعا بابنها ، فكان هذا مثار عجب لها ، فقالت لها : لماذا رددت ابنى سريعا وكنت حريصة على بقائه معك ؟ فقالت لها : لقد أديت ماعلىَّ وخفت عليه الأحداث . .

ولكن آمنة ازدادت فى الاستفسار منها . . حتى أخبرتها حليمة بما حدث لابنها . .

فإذا بآمنة تقول لها فى وثوق . . أفتخوفت عليه الشيطان ؟ .

قالت حليمة : نعم .

قالت آمنة : كلا ، ما للشيطان على ابنى من سبيل ، وإن له لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟

قالت : بلى .

قالت : رأيت حين حملت به ، أنه خرج منى نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله مارأيت قط أخف ولاأيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء . . دعيه وانطلقى راشدة [274] .

---

(٢٧٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨٨

فاذا ماتشكك المتشككون على الرغم من ذلك فى القصة مستندين إلى أن راويها طفل ، فكيف يتشككون فيها ، وقد رواها النبى - صلى الله عليه وسلم - نفسه ؟ .

وانظر إلى هذا الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك ، من أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتاه جبريل - عليه السلام - وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه .. يعنى مرضعته ، فقالوا : إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط فى صدره (٢٧٥) .

وقد مرت بنا رواية ابن أبى الدنيا وغيره بإسناد رفعه إلى أبى ذر قال : قلت يارسول الله كيف علمت أنك نبى ؟ وبم علمت ؟ قال : ياأبا ذر أتانى ملكان (٢٧٦) .. إلى آخر الحديث .

لقد أصبحت القصة ثابتة بإخبار النبى - صلى الله عليه وسلم - نفسه عنها ، وأصبح المكذب لها مطعونا فى دينه مغموزا فى عقيدته ، فالنبى - صلى الله عليه وسلم - لا ينطق عن الهوى كما أخبر بذلك القرآن الكريم ..

---

(٢٧٥) صحيح مسلم جـ٢ ص ٢١٦ شرح الامام النووى
(٢٧٦) الروض الانف جـ١ ص ١٨٨

تأكيد الأئمة لصدق هذه القصة

قال ابن حجر فى ذلك :

رجح القاضي عياض أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته حليمة ، وتعقبه السهيلى بأن ذلك وقع مرتين وهو الصواب ، ومحصله :

أن الشَّق الأول كان لنزع العلقة التى قيل عندها : هذا خط الشيطان منك . . والشَّق الثانى كان لاعداده للتلقى الذى سيحدث له فى ليلة الاسراء والمعراج ـ وقد روى الطيالسى والحارث من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن الشَّق الثانى وقع عند مجىء جبريل بالوحى فى غار حراء والله أعلم ، ومناسبته ظاهرة ، وهى الاستعداد لتلقى وحى السماء ، .

وروى أن الشق حدث أيضا وهو ابن عشر سنوات أو نحوها .
وهذا يؤكد ماذكره العلماء من أن الشق حدث أكثر من مرتين [٢٧٧] .
أما فضيلة الدكتور محمد أبو شهبة فيقول :

أما قول البعض بأن هذه القصة ضعيفة السند فنقد مجمل ، وكنا نحب من الناقد أو المنكر ـ وقد تعرض لإنكار أمر يقره جمهرة المسلمين وفيهم أئمة كبار لهم بعد نظر بالنقد والتعديل والتجريح للرواة ـ أن ينقد سند القصة نقدا تفصيليا .

أما وقد أتى به نقدا مجملا فهو معارض بتوثيق أئمة كبار لسند القصة ، وقد رواها الامام مسلم فى صحيحه وإن كانت مجملة ، وان أسانيد القصة حسنة جيدة ، وتصلح للاحتجاج بها . . . بل إن قصة الشق ليلة الإسراء

(٢٧٧) انظر بشائر الرسالة الخاتمة نقلاً عن شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٥٣

والمعراج مروية فى الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث .

بل قال بعض العلماء المحققين ، إنها متواترة [278]

قال الحافظ ابن حجر بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكراره : وجميع ماورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة لذلك .. فلا شىء يستحيل أمام قدرة الله .

ولنلتفت إلى تقرير عالم فاضل محقق من علمائنا الأجلاء هو الدكتور محمد الطيب النجار يقول فيه تحت عنوان حادثة شق الصدر [279] .

وهى حادثة جديرة بالبحث والتوثيق والتحقيق العلمى الدقيق ، فقد ذكر مؤرخو السيرة النبوية عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو فى الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع فى بادية بنى سعد خلف بيوتهم ، فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى محمد قد أخذه رجلان عليها ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه أى « يقلبانه » تقول السيد حليمة : فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه (زوج حليمة) فقلنا له : مالك يابنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليها ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا لم أدر ما هو ؟ ..

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شىء فأرجعته إلى أمه آمنة ، وقصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : لاتفزعى

---

(٢٧٨) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة د . أبوشهبة ص ٢٠٥

(٢٧٩) من بحث بعنوان « مشكلات السيرة النبوية » بالعدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية العاشر ١٤٠٦ هـ مجمع البحوث الاسلامية ـ الأزهر

ياحليمة فإن لابنى هذا شأنا ، فلم أكن أحس أثناء حمله بشىء مما تجده الحوامل ، وقد رأيت فى المنام وأنا أحـمله كأن نوراً خرج منى فأضاء قصـور الشام . . ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليمة ، وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره ، وتروى كتب السنة وقوع هذه الحادثة مرة ثانية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الاسراء والمعراج .

ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر ، فيذهب جمهور منهم إلى أنه شَق حقيقى ، وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاصا للنبوة وبشيرا بما يُنْتَظَرُ لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مركز سام ومقام كريم ، وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى تؤيد صدقه فى دعواه . ويذهب البعض من العلماء إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما يقصد به مايفهم من قوله ـ تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ فهو بذلك يكون إشارة إلى تطهير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

وممن يرون هذا الرأى من العلماء فى هذا العصر الشيخ محمد الغزالى فى كتابه : « فقه السيرة » فلقد جاء فيه : « ان بشرا ممتازا كمحمد لاتدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشر ، موجات تملأ الأفق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين يحفظها الله فلاتستقبل هذه التيارات الخبيثة ولاتهتز بها ،

وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى لا فى مقاومة التدنى ، وفى تطهير العامة من المنكر لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته . . »
ثم يقول ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد فجعلته منذ طفولته بنجوة قصيّة عن مزالق الطبع الانسانى وعن مفاتن الحياة الأرضية . .

وقد أورد الخازن فى تفسيره لقوله تعالى

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨ ﴾ (٢٨٠)

أورد قصة شق صدر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طفولته . .

وشرح الصدر الذى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها مَلَك أو طبيب . . ثم يؤكد الشيخ الغزالى أن شق صدر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يجب أن يحمل على الهدف من ورائه والمراد به لا على الحقيقة ،

وأن المقصود به انتزاع الوساوس الشيطانية دون حاجة إلى تلك العملية الجراحية فيقول : « ويحسن أن نعرف شيئا عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع فى السنة ، فعن عائشة رضى الله عنها : « أن بعض أزواج النبى قلن : يارسول الله أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن يدا ، فأخذن قصبة يذرعنها فكانت سودة أطولهن يدا فعلمن بعد ذلك أن المراد بطول يدها

---

(٢٨٠) سورة الشرح

« الصدقة » حيث كانت تحب الصدقة ، وكانت أسرع زوجات الرسول لحوقا به . . وهكذا نرى أن الشيخ الغزالى يميل إلى هذا الرأى . . حيث يرى أن شق صدر الرسول مشكلة لاتحل إلا بطريقة واحدة هى أن يكون شق الصدر مجازا لاحقيقة ، وأن يراد به شرح الصدر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أودعه الله فيه من هدى ونور . . ونرى أن من واجبنا فى هذا الصدد أن

نقول : ان محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تدعه العناية الالهية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس وحتى لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبدا غرضا للوساوس ، بل لكان مثله مثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق

صدورهم ، وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة فى نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد فى طفولته وبعد بعثه ، ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره ، وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمة والأبرص على يد المسيح ـ عليه السلام ـ هى العناية التى شقت صدر محمد ثم أرجعته فى لحظات إلى حالته الطبيعية وهذا شأن المعجزات التى لا تخضع ولاترتبط بالأسباب العادية .

ومن البعيد أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازية لأن سياق القصة والتعبير بلفظ « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض » وكلمة « فاضجعانى وشقا بطنى » وفرار أخيه من الرضاعة فزعا مما رأى ، ومجىء السيدة حليمة هى وزوجها بعد أن أخبرهما ولدهما بما حدث لمحمد ، ومقابلتهما لمحمد وهو ممتقع اللون ، وحكايته القصة مرة ثانية بنفس

الألفاظ .. كل ذلك يجعل الحقيقة فى هذه القصة واضحة لذى عينين ، ويبعد بها عن الأسلوب المجازى بعد المشرقين ..

واذا كان بعض المستشرقين من أمثال سير وليم موير ، ودرمنجم ومن يتجه إلى رأيهما من المؤرخين المحدثين كما جاء فى كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل - نقول إذا كان أمثال هؤلاء ينكرون حادثة شق الصدر لأنها تعتمد على رواية طفلين لايصح الأخذ بقولهما ، فإننا نرى أن رواية الأطفال كثيرا ماتكون بعيدة عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال .. ومع ذلك فقد تحدث الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة على أصحابه ، كما تحدث الرسول عن المرة الثانية التى وقعت له فى ليلة الإسراء والمعراج ..

وإذن فالرأى الذى نرتضيه والذى ترشد إليه السنة الصحيحة هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية لاريب فيها ، وأنه من الإرهاصات التى تبشر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة ، إذ ليس هناك مايمنع من ذلك مادمنا نؤمن بالعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ..

آيات وخوارق أخرى

إذن فقد كان حادث الصدر حقا لامرية فيه ، وبناء على ذلك فلابد من أن تصحب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حياته بعد ذلك خوارق

لاتصحب غيره من عامة الناس . . لقد أصبح محل عناية الله فى الأرض ومبعث رحمة للعاملين ومنار هداية للحيارى والضالين . . فليس عجيبا أن يمده الله بما يُثَبِّتُ قدميه على طريق الحق ، ويشد قلبه ويقوى يقينه ويملأ الكون من حوله أنسا ونورا . .

وإن الرواة ليحدثونا عن بعض هذه الخوارق التى صاحبته قبل بعثته وقبل أن يوحى إليه بالمعجزة الكبرى القرآن الكريم . .

وهذه المعجزات السابقة على البعثة تدخل فى باب الإرهاصات بالنبوة وهو فى نطاق الموضوع الذى نتحدث فيه . .

وسنعرض بعض هذه الخوارق كما حدث بها رواة الأخبار وأصحاب السنن . .

تسليم الجماد عليه

روى ابن سعد فى طبقاته : عن منصور بن عبدالرحمن عن أمه عن برة قالت : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراد الله كرامته وابتداء نبوته ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لايرى بيتا ، ويفضى إلى الشعاب وبطون الأودية ، فلا يمر بحجر ولا شجرة إلا قالت : السلام عليك يارسول الله ، فكان يلتفت يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا [٢٨١] .

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة فخرجنا معه الى بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولاشجر إلا وهو يقول : السلام عليك يارسول الله .

---

(٢٨١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٠٢ قسم ١

وعلق الحلبي على ذلك فقال : وعن تسليم الحجر قبل البعثة يشير الإمام السبكي ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله :

وماجزت بالأحجار إلا وسلمت   عليك بنطق شاهد قبل بعثة

وقال السهيلي : يحتمل أن يكون نطق الحجر والشجر كلاما مقرونا بحياة وعلم ، ويحتمل أن يكون صوتا مجردا غير مقترن بحياة وعلم ، وعلى كل هو عَلَم من أعلام النبوة . .

ويعلق محيي الدين بن العربي على ذلك بقوله : أكثر العقلاء يقولون عن الجمادات لاتعقل ، فوقفوا عند بصرهم ، والأمر عندنا ليس كذلك ، فإذا جاءهم عن نبي أو ولي أن حجرا كلمه يقولون مثلا : خلق الله فيه العلم والحياة في ذلك الوقت ، والأمر عندنا ليس كذلك ، بل سر الحياة في جميع العالم وقد ورد أن كل شيء سمع صوت المؤذن من رطب أو يابس يشهد له ، ولايشهد إلا من عَلِمَ (٢٨٢) .

ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ (٢٨٣)

وقوله تعالى :

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) ﴾ (٢٨٤)

---

(٢٨٢) السيرة الحلبية جـ١ ص٣٦٢ ط دار المعرفة ببيروت

(٢٨٣) الاسراء ٤٤

(٢٨٤) النمل ٨٨

الملائكة تظـــلله : ذكر ابن هشام فى سيرته قال : عرضت خديجة على محمد صلى الله عليه وسلم ـ أن يخرج فى مال لها إلى الشام متاجرا ، وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من التجار . . وكانت قد اختارته لما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم خلقه ـ فخرج ومعه غلام لها يقال له ميسرة . .

فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . . فقال الراهب مانزل تحت هذه الشجرة إلا نبى .

ثم باع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلعته التى خرج بها واشترى ماأراد أن يشترى ، وأقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ـ يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره .

فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ماجاء به فأضعف أو قريبا ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه[٢٨٥] وقد ظهرت هذه العلامات مبكرة ايضا عن ذلك ، فقد أخبرت حليمة ـ رضى الله عنها ـ أنها كانت بعد رجوعها به ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتدعه يذهب

---

(٢٨٥) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢١٢

بعيدا ، فغفلت عنه يوما فى الظهيرة ، فخرجت تطلبه فوجدته مع أخته الشيماء وكان الحر شديدا . . فقالت حليمة لابنتها : أفى هذا الحر تخرجان ؟

فقالت الشيماء : ماوجد أخى حرا ، رأيت غمامة تظل عليه ، إذا وقف وقفت واذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع .

فجعلت حليمة تقول : أحقا يابنية ؟

قالت : إى والله .

فجعلت تقول : أعوذ بالله من شر مانحذر على ابني . .

ومعنى ذلك أنها تخوفت عليه اعتداء الحاسدين بعد أن تبينت فيه علامات النبوة التى كان يخبر عنها أهل الكتاب فى مبعوث آخر الزمان . .

وقد أخبر بعضهم أن حليمة نفسها رأت فى بعض الأوقات الغمامة تظله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا وقف وقفت وإذا سار سارت (٢٨٦) .

شباب غير عادى

ومن دلائل نبوته ، مايخبر به البعض من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يشب شباباً على غير المعتاد من لداته ، وقدحدثت حليمة بأنه لم يبلغ سنتيه فى الرضاع منها حتى كان غلاما جفرا . أى قويا ممتلئا ـ والعبارة التى أوردها ابن منظور فى لسان العرب عنها « كان يشب فى اليوم شباب الصبى فى شهر فبلغ ستا وهو جفر » (٢٨٧) وقال ابن الأثير : استجفر الصبى اذا قوى على

---

(٢٨٦) حجة الله على العالمين ص ٢٦٠

(٢٨٧) لسان العرب جـ ١ ص ٦٤٠

الأكل ، والجفر : الصبى الذى اشتد وأكل وقوى ، وأخرج ابن سعد قال : قدم وفد هوازن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيهم عمه من الرضاعة « أبوثروان » فقال : يارسول الله لقد رأيتك مرضَعا فما رأيت مرضَعا خيرا منك ورأيتك فطيما فما رأيت فطيما خيرا منك ، ثم رأيتك شابا فما رأيت شابا خيرا منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير . .

وفى كتاب الترقيص للأزدى أن حليمة كانت ترقص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقولها :

يارب إذ أعطيته فأبقه وأعله إلى العلا وأرقه
وادحض أباطيل العدا بحقه

أما أخته من الرضاع الشيماء فكانت تقول له وهى ترقصه :

هذا أخ لى لم تلده أمى وليس من نسل أبى وعمى
فديته من مخول معم فأنمه اللهم فيمن تنمى
وأعطه عزا يدوم أبدا . .

قال الأزدى : ما أحسن مااستجاب الله به دعاءها[٢٨٨] .

فقد أثبت الله له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضلا على النبيين وذلك بأخذ الميثاق على النبيين بالإيمان به ونصره كما كبت أعاديه كأصحَاب الفيل قبل وجوده وأعطاه الله فى الدنيا والآخرة من السيادة والعز والدائم مالم يشاركه فيه مخلوق أبدا .

---

(٢٨٨) حجة الله على العالمين ص ٢٦٠

لقد كان دعاء الشيماء إلهاما لها من الله . . دعوة وافقت الإجابة والمقدور ، وكلمة حق جاءت على لسان أحد الخلق .

حدث ابن هشام قائلا : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ إن أول مابدىء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به : الرؤيا الصادقة . كان لايرى صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح .

قالت : وحبب الله إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده [٢٨٩] .

وحدث ابن سعد قال : أخبرنا إسحاق بن يوسف الأزرق ، حدثنا عبدالله بن عون عن عمرو بن سعيد أن أبا طالب قال : كنت بذى المجاز ومعى ابن أخى ـ يعنى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأدركنى العطش ، فشكوت إليه فقلت : يابن أخى قد عطشت ، وماقلت له ذاك وأنا أرى أن عنده شيئا إلا الجزع ، قال : فثنى رجله ، ثم نزل فقال : ياعم ، أعطشت ؟ قال : فقلت : نعم .

فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا بالماء . فقال : اشرب ياعم ، قال : فشربت [٢٩٠] .

كراهته للأصنام

وكره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأصنام كرها شديدا ، واجتنبها ،

---

(٢٨٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥

(٢٩٠) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٩٨

وحذر منها على الرغم من أنه لم يكن قد بعث أو جاءته بذلك رسالة ، وقد رأينا سابقا كيف أن بحيرى الراهب استحلفه باللات والعزى فأنكر عليه ذلك بقوله : لاتستحلفنى بهما فوالله ماكرهت شيئا كرهى إياهما . .

وحدث الرواة أن قريشا كان لهم صنم يقال له (بوانة) يعظمونه وينسكون له النسائك ويحلقون رءوسهم عنده ويعكفون عنده يوما إلى الليل فى كل سنة . .

وكان أبوطالب يحضر هذا اليوم مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يحضر ذلك العيد معهم فأبى ذلك إباء شديدا حتى غضب لذلك أبوطالب ، وغضبت عليه عماته كذلك أشد الغضب وجعلن يقلن له : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا . . يحذرنه غضب الآلهة ، فلم يأبه فقلن له : ماتريد يامحمد أن تحضر لقومك عيدا ولاتكثر لهم جمعا ؟ . . فلم يزالوا به حتى ذهب .

فغاب عنهم ماشاء الله ثم رجع مرعوبا فزعا ، فقالت عماته : مادهاك ؟ قال : إنى أخشى أن يكون بى لمم .

فقلن له : ماكان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك . فما الذى رأيت ؟

قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى ، وراءك يامحمد لاتمسه ، قالت أم أيمن ـ وهى التى روت هذا الحديث :

فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ[291] .

وأخرج أبونعيم والبيهقى والحاكم وصححه عن زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان صنم من نحاس يقال له أساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله[292] صلى الله عليه وسلم بالكعبة وطفت معه ، فلما مررت مسحت به ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتمسه ، قال زيد : فطفنا ثم قلت فى نفسى : لأمسنه حتى أنظر مايكون فمسحته ، فقال رسول الله ـ صلى ألم تُنْه ؟ قال زيد : فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب مااستلمت صنما حتى أكرمه الله وأنزل عليه القرآن .

الاستسقاء بوجهه

روى أبوسلمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستى النيسابورى أن رقيقة بنت أبى الصيفى بن هاشم قالت : تتابعت على قريش سنوات جدب قد أقحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينما أنا راقدة أو مهدمة ، إذا بهاتف يصرخ بصوت مسموع يقول :

يامعشر قريش إن هذا النبى المبعوث منكم ، هذا إبان نجومه ، سوف يأتيكم الحيا والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا وسيطا عظاما جساما أشم العرنين ، له فخر يكظم عليه ، ألا فليخرج هو وولده ، وليدلف إليه من

---

(٢٩١) الطبقات جـ ١ قسم ١ ص ١٠٣

(٢٩٢) أى طاف بالكعبة وكان الصنم ملاصقاً لها

كل بطن رجل ، ألا فليغتسلوا بالماء ، وليمسوا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعا ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، ألا فليدع الرجل وليؤمن القوم ، ألا فسوف تغاثون أبدا ماعشتم .

قالت : فأصبحت مذعورة ، قد تصلب جسمي ووله عقلي ، فقصصت رؤياي وعليهم فوالحرمة والحرم ، مابقى أبطحى إلا قال : هذا شيبة الحمد . أي عبدالمطلب بن هاشم ، وكان يسمى شيبة الحمد . .

وتتامت عنده قريش ، وانفض إليه الناس من كل بطن رجل ، فتطهروا ، ومسوا الطيب ، واستلموا ، واطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يجتمعون حوله . .

فقام عبدالمطلب ، فأخذ ابن ابنه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرفعه على عاتقه ، وهو يومئذ غلام ، قد أيفع . .

ثم قال : اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير مبخل ، وهؤلاء عبادك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم ، فاسمعن اللهم ، وأمطرن علينا غيثا مربعا مغدقا . .

فماراموا ـ والبيت حتى انفجرت السماء بالماء ، وكظ الوادى بثجيجه (٢٩٣) .

---

(٢٩٣) الروض الانف جـ ٢ ص ٢٨ ـ ابان : وقت ـ نجومه : ظهوره ـ أشم العرنين : مرتفع الأنف ، كناية عن العزة ـ ليدلف : ليتجه ـ كظ : امتلأ ـ ثجيجه : سيله

ولقد لحظ ذلك أبوطالب عم الرسول وأدرك أن القوم لم يسقوا الا بوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضمن ذلك قصيدة يمدحه فيها ، وذلك

بعد بعثته ومحاربة قريش له .. فقال

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل

ولقد أشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قول أبي طالب هذا فى مناسبة كريمة ، حين استسقى به أهل المدينة فسقاهم الله ..

وقد روى ابن هشام هذه القصة فقال : أقحط أهل المدينة فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشكوا ذلك اليه فصعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنبر ، فاستسقى ، فمالبث أن جاء المطر حتى أتاه أهل

الضواحى ـ البادية ـ يشكون من الغرق ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : اللهم حوالينا ولاعلينا ، فانجاب السحاب عن المدينة فصار حواليها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لو أدرك أبوطالب هذا اليوم لسره ..

فقال له بعض أصحابه : كأنك يارسول الله أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال : أجل (٢٩٤)

ولعل هذه الحادثة قد تكررت أيضا مع أبي طالب فقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش : ياأبا طالب ، أقحط الوادى وأجدب العيال ، فاخرج فاستسق لهم ، فخرج أبوطالب ومعه غلام كأنه شمس تجلت عنها سحابة ، فأخذه أبوطالب ، فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام باصبعه ومافى السماء قزعة ـ قطعة سحاب ـ فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا ، وأغدق واغدودق ـ كثر مطره ـ وانفجر له الوادى وأخصب ، وفى ذلك يقول أبوطالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٢٩٥)

خاتم النبوة

وقد خصه الله بخاتم النبوة ، علامة على نبوته ، بين كتفيه وقد وردت هذه العلامة فى أخبار أهل الكتاب ، وجاءت على لسان بحيرى الراهب بالشام ، فقد جاء فيما رواه ابن هشام أن بحيرى جعل يسأل :

---

(٢٩٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٨

(٢٩٥) من بحث بعنوان : آيات النبوة المحمدية ، مصطفى الطير ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة العاشر ١٤٠٦ هـ

يسأل رسول الله ﷺ عن حاله ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلىٰ ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده (٢٩٦)

ووصف السهيلى خاتم النبوة فقال : كأنه أثر المحجم ، يعنى أثر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون ناتئاً ـ وفى الخبر أنه كان حوله خيلان فيها شعرات سود ـ وخيلان جمع خال وهى الشامة فى الجسد

وفى صفته أيضاً أنه كان كالتفاحة ، ومثل زر الحجلة (٢٩٧)

قال : وفسره الترمذى تفسيراً وهم فيه فقال : زر الحجلة ـ يعنى بها الطائر المعروف ـ وانما هى حجلة السرير واحدة الحجال ، وزرها الذى يدخل فى عروتها .

وكذلك قال الدميرى فى حياة الحيوان (٢٩٨)

قال السهيلى : وفى حديث آخر : كان كبيضة الحمامة . .

وفى حديث عياذ بن عمرو قال : رأيت خاتم النبوة وكان كركبة العنز ـ ذكره النمرى مسنداً فى كتاب الاستيعاب .

وفى رواية أخرى عن عبدالله بن سرجس قال : رأيت خاتم النبوة كأثر المحجمة .

---

(٢٩٦) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩٦ ط التحرير

(٢٩٧) الحجلة بالتحريك . بيت كالقبة يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار ، فشبه الخاتم بزر الحجلة .

(٢٩٨) جـ ٢ ص ٣٩٠ باب الحجل

فهذه صفات خمس لخاتم النبوة : أنه كالمجحم ، وكزر الحجلة ، وكبيضة الحمامة ، وكركبة العنز ، وكالتفاحة .

ووصفه أبو سعيد الخدرى ـ وقد سئل عن خاتم النبوة ـ فقال : بضعة ناشزة هكذا : ووضع طرف السبابة فى مفصل الابهام [٢٩٩]

أما متى وضع هذا الخاتم فقد ورد فى حديث عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يارسول الله كيف علمت أنك نبى ؟

قال : يا أبا ذر أتانى ملكان وأنا ببطحاء مكة . . ثم ذكر شق صدره . . ثم قال : وجعل الخاتم بين كتفى . . وقد مر ذكر هذا الحديث فى موضوع شق الصدر [٣٠٠]

وكان من العلامات التى ذكرت لسلمان الفارسى فى النبى ﷺ على ألسنة من لقيهم من أحبار النصارى أن بين كتفيه خاتم النبوة . فكان هم سلمان أن يتثبت من هذه العلامات ، قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه ـ جئته وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى خاتم النبوة الذى وصف لى صاحبى ؟

---

(٢٩٩) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٠٦

(٣٠٠) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٨

فلما رآني رسول الله ﷺ على تلك الحال ، عرف أني أستثبت من شيء وصف لي ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكي [٣٠١]

وقد ظل هذا الخاتم ملازماً للنبي ﷺ في جسده حتى قبض فلم ير له أثر .
روى البيهقي في دلائل النبوة عن الواقدي عن شيوخه أنهم قالوا : لما شُكَّ في موت النبي ﷺ قال بعضهم قد مات ، وقال بعضهم : لم يمت .

فوضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفيه ثم قالت : توفي رسول الله ﷺ قد رفع الخاتم من بين كتفيه ، فكان هذا هو الذي عرف به موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٣٠٢]

تحنث النبي ﷺ والرؤيا الصادقة :

ومن المقدمات الكبرى لنبوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد عزوفه عن عبادة الأصنام وهجره إياها إقباله على التحنث .. [٣٠٣]
كان يذهب إلى غار حراء يختلي فيه بربه .

وقد سبق ذلك أو اقترن به الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح كما حدثت بذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ

---

(٣٠١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٩ ط التحرير
(٣٠٢) حياة الحيوان للدميري جـ ١ ص ٣٩٠
(٣٠٣) التحنث : التعبد واعتزال الأصنام

جاء فى السيرة الحلبية : وإنما ابتدىء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك بالنبوة فلا تتحملها قواه البشرية ، لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤية الملك ، حتى يكن على صورته التى خلقه الله عليها ولا على سماع صوته ولا على ما يخبر به لاسيما الرسالة ـ فكانت الرؤيا تأنيساً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وتعد رؤى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جزءاً من الوحى ، لأن أنواع الوحى ثلاثة كما أخبر بذلك القرآن الكريم :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣٠٤)

فالوحى كما قال المفسرون قد يكون عن طريق الرؤيا الصادقة ومنه قول ابراهيم :

﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ (٣٠٥)

وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الرؤيا الصادقة بأنها جزء من النبوة ، جاء فى البخارى « الرؤيا الحسنة ـ أى الصادقة من الرجل الصالح » جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وفى الأثر أنه قال : لم يبق بعدى إلا المبشرات ، قيل : وما المبشرات يارسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له .

---

(٣٠٤) الشورى ٥١
(٣٠٥) الصافات ١٠٢

وتطورت الرؤيا من النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى مايسمى بالمكاشفة . جاء - فيما يرويه الحلبى - عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لخديجة إنى إذا خلوت سمعت نداء . . أن يا محمد يا محمد . .

وفى رواية : أرى نوراً - أى يقظة لا مناماً ، وأسمع صوتاً ، وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر .

وفى رواية أخرى : والله ما أبغضت شيئاً بغضى لهذه الأصنام والكهان ، وإن لما أسمعه وأراه لشأناً . . واستمر هذا الأمر لدرجة أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لخديجة : لقد خشيت على نفسى . .

فقالت له خديجة : كلا يابن عم ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله انك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث ، وفى رواية : وان خلقك لكريم أى فلا يكون للشيطان عليك سبيل ، استدلت - رضى الله عنها - بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على أن الله لا يفعل به إلا خيراً .

قال الحلبى : ونقل الماوردى عن الشعبى أن الله قرن إسرافيل - عليه السلام - بنبيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ، يعلمه الشىء بعد الشىء ، ولا يذكر له القرآن ، فكان فى هذه المدة مبشراً بالنبوة ، وأمهله هذه المدة ليتأهب لوحيه . . [٣٠٦]

---

(٣٠٦) السيرة الحلبية جـ١ ص ٣٨٠

وبعد ذلك حبب الله إليه الخلوة التى يكون بها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق ، فهى تفرغ عن أشغال الدنيا ، مع مداومة ذكر الله ـ تعالى ـ والتفكر فى خلقه .. ولذلك أثر كبير فى صفاء النفس وإشراق نور المعرفة ..

لم يكن شىء لدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب من أن يخلو وحده إلى ربه .. فكان يلجأ إلى غار حراء ، وهو ممعن فى الصعود فوق هذا الجبل ، والشعاب الموصلة اليه متعرجة صعبة المرتقى ، وقد شاهدنا ذلك فى محاولة للصعود

حالت الظروف دون إتمامها ، ولكنها لم تحل دون كثير ممن صاحبهم التوفيق للائتناس بمكان طيب شهد خلوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعبده ، وتعطره بأريج أول آيات من القرآن الكريم هبط بها جبريل عليه السلام ... وكأن النبى صلى الله عليه وسلم ـ باختياره هذا المكان البعيد أراد أن يقطع الطريق على الفضوليين والمتطفلين حتى لا يزعجوه بالمراقبة أو التدخل فى شئونه ..

كان يقضى فى هذا الغار الليالى ذوات العدد وأكثر ما يكون ذلك فى شهر رمضان ، وكان يحمل معه زاده ـ وما كانت به حاجة إلى زاد ، وهو الذى يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه ، وهو التقى وتقواه خير زاد .. إلا أنه كان يأخذ بالأسباب ، وهى لا تنافى التوكل .

وقال الحلبى : فى كلام بعضهم ماقد يدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يختل أقل من شهر ، فقول الرواة فى الحديث : الليالى ذوات العدد محمول على القدر الذى كان يتزود له ، فإذا فرغ زاده رجع إلى مكة وتزود إلى غيرها إلى أن يتم الشهر .. ولم يصح أنه اختلى أكثر من شهر ..

وكان زاده كثيراً ما يكون الكعك والزيت ، وأحياناً يكون اللحم واللبن . . وهى أطعمة لا تبقى طويلاً . . واختياره الزيت لبركة شجرته التى أشار إليها قوله ـ تعالى ـ

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾ (٣٠٧)

أوصى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالائتدام منها فقال : **« ائتدموا من هذه الشجرة المباركة »**(٣٠٨) ويقصد بالشجرة المباركة الزيتون .

عن عبيد بن عمير ـ رضى الله عنه ـ : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجاور فى حراء فى كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تتحنث فيه قريش فى الجاهلية (٣٠٩) والمراد بعض رجال من قريش ، وهم الذين رفضوا عبادة الأصنام ، ونفروا من أوثان الجاهلية وأرجاسها . .

قالوا : وأول من تحنث فى حراء من قريش عبد المطلب جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن الأثير : أول من تحنث بحراء عبد المطلب ، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين ثم تبعه على ذلك من كان يعبد الله ويتحنف ـ كورقة بن نوفل ،وأبى أمية بن المغيرة .

---

(٣٠٧) المؤمنون ٢٠

(٣٠٨) الحديث فى جمع الجوامع ولفظه « ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » عن عبد بن حميد جـ١ ص ٣٢ ط مجمع البحوث وهوفى الجامع الصغير برقم ٣٢ ورمزله بالصحة . ورواه الترمذى فى العلل عن عمر .

(٣٠٩) السيرة الحلبية جـ١ ص ٣٨٢

قال البوصيرى يتحدث عن تعبد النبى - صلى الله عليه وسلم -

ألف النسك والعبادة والخـ ـلوة طفلاً وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

وكانت تعبده على دين إبراهيم - عليه السلام - وكانت العبادة قائمة على التفكر والذكر . .

ويصاحب ذلك إطعام المساكين . .

ومن هنا شرعت الخلوة - عند من يقول بها - لأن فى الخلوة يخشع القلب وينسى المألوف من مخالطة أبناء الجنس المؤثرة فى البنية البشرية - وقد قال الحكماء : الخلوة صفة الصفوة .

وفى مزايا العزلة والخلوة جاء حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من خير معايش الناس رجلاً أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغى الموت أو القتل فى مكانه ، أو رجلاً فى غُنَيْمة له فى رأس شعفة من هذه الشعاف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا فى خير » (٣١٠)

---

(٣١٠) الرسالة القشيرية ص ٥٤ والحديث فى جمع الجوامع جـ ٢ برقم ١٣٧٦٢/٢٧٣ بلفظ « خير الناس رجل » وفى مسلم بشرح النووى جـ ١٣ ص ١٣٥ باب فضل الجهاد والرباط مع اختلاف يسير فى الألفاظ - والهيعة الصوت الذى تفزع منه

قال ابن عطاء السكندرى فى حِكَمِه : « ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة »[311] لأنه بالعزلة يسلم من الأغيار وبالفكرة تستنتج الأنوار ، وكل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى الحمق مآلها وقد وضع العلماء شروطاً للعزلة حتى تثمر ثمارها ، وحتى يكون المختلى سائراً على نهج المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه الشروط : أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد التوحيد لكيلا يستهويه الشيطان بوساوسه ، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدى به فرضه ليكون بناء أمره على أساس محكم . .

وقد شرع الإسلام الاعتكاف لتطهير النفس وتنقيتها ، ففيه يخلص الإنسان إلى ربه وينسى كل ماعداه من أمور الدنيا وكل هذا طيب وحسن ومحمود . . ولكن الأهم من ذلك أن نعرف أن العزلة الحقيقية هى اعتزال الخصال الذميمة ، والتخلق بالأخلاق الشريفة . .

وكان من عادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قضى جواره من شهره الذى يجاور فيه ، كان أول شىء يفعله قبل دخوله داره أن يذهب إلى الكعبة فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله ثم يدخل داره . .

وظل على ذلك حتى جاء اليوم المشهود ، حيث استقبله جبريل بالرسالة ، وأبلغه دعوة الله إليه ليقوم فى الناس هادياً وبشيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . .

---

(٣١١) شرح الحكم العطائية للشيخ زروق ص ٣٢ ط الجامعة الليبية

مع خصائص النبوة

هذا ولم يكن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدعاً فى أن تقع إرهاصات كثيرة تنبىء عن قدومه وتعد الأمر لاستقباله . .

فقد جرت العادة عند استقبال العظماء والكبار من رجال الدنيا أن تعد لهم الاحتفالات اللائقة بمقامهم ، فهؤلاء سفراء يجتمعون ، ووزراء يتقدمون ، وهذه مواكب وهؤلاء وفود وتلك صحافة تكتب وأجهزة إعلام ترقب . . إلى غير ذلك مما نراه ونشهده كل يوم . . كل هذا يحدث عند استقبال قادة الدول ومن هم أقل مرتبة منهم فى دنيانا التى نحياها .

فما بالك إذا كان القادم مبعوث العناية الإلهية ، ومختار الله ومصطفاه ؟ لقد كانت تلك البشريات السابقة والدلائل النبوية التى روينا طرفاً منها ، والإرهاصات التى تحدثنا عنها . . كانت من قبيل الحشد الذهنى والاعداد النفسى لقدوم خير البشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

هل هناك إرهاصات خاصة بالأنبياء السابقين ؟ :

أجل فقد سبق أن أعلن الله ملائكته قبل خلق آدم عليه السلام قائلاً لهم :

إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » وكان هذا الخبر على أسماع الملائكة مفاجأة لهم فقالوا :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (٣١٢)

---

(٣١٢) البقرة ٣٠

إلى آخر الآيات التى سبق وتحدثنا عنها فى قصة آدم - عليه السلام -

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعد الملائكة لاستقبال آدم ، وهم الخلق الذين كانوا قبل وجود آدم - فهذا إرهاص لآدم عليه السلام -

وحين خلقه الله جعل له من أمارات النبوة ومقومات الخلافة فى الأرض خصائص .. منها أنه علمه الأسماء كلها وميزه بذلك على الملائكة .. فقد تحداهم الحق سبحانه وتعالى أن ينبئوه بأسماء بعض الأشياء فعجزوا ، فطلب من آدم أن يخبر عنها فأخبر ، وبذلك ارتفعت منزلته عندهم .

ثم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس ..
ثم أسكنه الجنة .. فسكنها فترة قبل أن يبتلى ويهبط منها ..

هذه خصائص امتاز بها آدم - عليه السلام - وبقيت بعض هذه الامتيازات فى عقبه من الأنبياء ..

ثم ظهرت كاملة فى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى أتاه الله العلم الكامل وأفاض عليه من رحمته الشاملة .. وقال له :

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (٣١٣)

وحين أراد الله أن يقر عين خليله إبراهيم - عليه السلام - بالولد بشره بإسماعيل أولاً ثم بإسحاق ثانياً ، ففى خلق إسماعيل بشره بقوله - تعالى -

---

(٣١٣) النساء ١١٣

﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٣١٤)

لقد تضمنت قصة الذبيح فى هذه السورة إرهاصتين :

إحداهما الإرهاص بولادته ، والأخرى الإرهاص بما أمر الله به إبراهيم من إعداد ابنه للذبح . . وإخباره بذلك وانتظار رأى إسماعيل بقوله : فانظر ماذا ترى ؟ . . وكان الابن عند حسن ظن ربه وأبيه فقال : ياأبت افعل ما تؤمر . .

قال السبكى ـ فيما ينقله عنه د . رءوف شلبى (٣١٥) ـ بل وهناك إرهاصة ثالثة تضمنها قوله :

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٣١٦)

ذلك أن إبراهيم كان نبياً مبعوثاً عهد الله إليه ببناء البيت ولكن الأمر بالنسبة لإسماعيل إرهاص بما سوف يكون عليه أمره من رفعة شأن وعلو قدر فى المستقبل .

---

(٣١٤) الصافات ٩٨ : ١٠٢

(٣١٥) بشائر النبوة الخاتمة ص ٣٢٦

(٣١٦) البقرة ١٢٥

وهناك إرهاص آخر بمقدم إسحاق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ

فقد أراد الله أن يقر عين سارة بولد تسر به ، فجاءت الملائكة وهم فى طريقهم إلى مدينة سدوم لمعاقبة أهلها على ما اقترفوه من خبائث ، وعلى عصيانهم نبى الله لوط . . جاءت لتبشر زوجة إبراهيم بولدها إسحاق . . قال ـ تعالى ـ

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١ ﴾ (٣١٧)

فقبل أن يرزق الله إبراهيم بإسحاق ، أخبره به ، ولم يكتف بذلك بل أخبره أيضاً بأنه سيكون له ولد وسوف يسمى يعقوب . .

والإرهاص لم يكن إلا بمن أوتى النبوة وهما إسحاق ويعقوب ، وإلا فقد كان مع يعقوب توأم آخر هو « عيصو » ومع ذلك لم ترد البشارة به كما وردت بالنسبة ليعقوب . .

أما الإرهاص ليوسف ـ عليه السلام ـ فقد كان بما أوتيه من رؤيا صادقة حققتها الأيام وأخبر القرآن الكريم عنها ، حيث يقول :

﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ ﴾ (٣١٨)

---

(٣١٧) هود ٧١

(٣١٨) يوسف ٤

وقد فهم أبوه هذه الرؤيا وعرف تأويلها ولذلك طلب منه عدم قصها على إخوته حتى لا يكيدوا له كيداً ، فإن الشيطان للإنسان عدو مبين . . وتمر الأيام و تتحقق هذه الرؤيا . . فيتبوأ يوسف عرش مصر ، ويسجد له أبواه [٣١٩] ـ وهما الشمس والقمر ـ وإخوته الأحد عشر وهم الكواكب الذين ورد ذكرهم فى الآية السابقة ، وقد قال يوسف فى ذلك كما ذكر القرآن الكريم

﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [٣٢٠]

وقد أوحى الله إلى أم موسى ـ عليه السلام ـ أن تلقيه فى اليم لينجو وليصبح رسولاً من رب العالمين وقال فى ذلك :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [٣٢١]

فهذا تبشير لأم موسى بما سوف يكون عليه ولدها الذى تخشى عليه من بطش فرعون . .

---

(٣١٩) وكان ذلك جائزاً فى شريعتهم يقوم مقام التحية . . وقيل المراد بالسجود الإيماء .

(٣٢٠) يوسف ١٠٠

(٣٢١) القصص ٧

وكما بشر الله أم موسى بمستقبل ابنها ، وأرهص لها بما سوف يكون عليه حتى يطمئن قلبها ويذهب خوفها ـ أرهص كذلك لمريم بعيسى ، وأخبرها بأنها سوف تحمل من غير أب بابن سيكون نبياً ورسولاً ووجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . . قال لها ذلك على لسان الملائكة :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (٣٢٢)

فهذه الارهاصات للأنبياء السابقين تشير إلى أن ماصاحب مجىء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من آيات ، وما سبقه من بشارات ، وما جرى على يديه قبل البعثة من خوارق كان إرهاصاً بنبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدلائل النبوة وإرهاصاتها وعلاماتها هى سنة من سنن الله التى سنها لكثير من أنبيائه . . . وقد اتفق المقرون والمتوقفون فيما يتعلق بالإرهاصات على أن سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سبق اسمه ونعته فى الكتب السابقة ، وتلك من علامات النبوة ودلائلها . . (٣٢٣)

---

(٣٢٢) آل عمران ٤٥ :٤٩

(٣٢٣) بشائر النبوة الخاتمة د . رءوف شلبى ص ٣٢٨

الخصائص النبوية :

وقد خص الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخصائص لم تتوفر لغيره من الأنبياء السابقين .. وقد أفرد كثير من العلماء الأجلاء لذلك الموضوع كتباً خاصة ، كان معينها العلم الواعى والروايات الثابتة والاستنباطات الذكية والفهم الدقيق لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ونحن نطوف بين رياض هذه الخصائص ونقتطف من زهورها ما نقدمه شذا عطراً للقراء معتمدين فى ذلك على كتاب الخصائص الكبرى للحافظ جلال الدين السيوطى ، وهو أوفى من كتب فى هذا الموضوع .

اختصاصه بأنه أول النبيين خلقاً :

اختص الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه كان نبياً وآدم منجدل فى طينته ، والدليل على ذلك أن الله أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا به وينصروه ويبشروا أممهم به .

وكتب الله اسمه على العرش ، وجعل الملائكة تذكره فى كل ساعة ، وذكر اسمه فى الأذان ، وحجب إبليس عن السموات من أجله ، وسماه الرءوف الرحيم وهما من أسماء الله تعالى .. وجعله أرجح الناس عقلاً ، وأعطاه كل الحسن ولم يؤت يوسف إلا شطر الحسن ، وأبطلت الكهانة بمبعثه وحرست السماء من استراق السمع ورميت بالشهب ، وأحيا الله له أبويه فآمنا به كما جاء فى بعض الروايات ..

وقبل الله شفاعته فى العفو وتخفيف العذاب ، وجعل له الشفاعة العظمى ، وقد عصمه الله من الناس ، واختصه الله بالاسراء والمعراج ، وجعل قدمه

الشريفة تطأ مكاناً ما وطئه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، وجمع الله له الأنبياء ، وجعله إماماً لهم وللملائكة ، وأطلعه على الجنة والنار ، وأراه من آياته الكبرى . قال تعالى :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣٢٤)

اختصاصه بالقرآن الكريم :

وخصه الله بنزول المعجزة الخالدة عليه ، كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وحفظه الله من التبديل والتحريف ، وجعله جامعاً لكل شيء ومستغنياً عن غيره وغيره لا يستغنى عنه ، وقد اشتمل على ما اشتملت عليه الكتب الأخرى وزيادة .. وجعل معجزة القرآن باقية مستمرة إلى يوم القيامة ، وهذا بخلاف معجزات الأنبياء السابقين الذين انتهت معجزاتهم بانتهاء حياتهم أو رفعهم إلى السماء ..

وأعطاه مع معجزة القرآن الخالدة كل ما أعطاه للأنبياء السابقين من معجزات ، فأعطاه معجزة شفاء المرضى وأعطاه معجزة إحياء الموتى وأعطاه معجزة قلب الأعيان ، فكلمه الجماد ، وسبح فى يديه الحصى واستجاب له الشجر فسعى إليه ، وشكا له الطير والجمل ، ونطق له الضب ، وغير ذلك ، مما رواه أصحاب السير والسنن ..

رسـالته العامـة :

واختصه الله بعمومية الرسالة ، وكان كل نبى من الأنبياء والرسل السابقين يبعث إلى قومه خاصة .. وقال الله فى ذلك :

---

(٣٢٤) النجم ١٨

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣٢٥)

وقال ـ جل وعلا ـ :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (٣٢٦)

وقال ـ تبارك اسمه ـ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٣٢٧)

وأخرج الشيخان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة العظمى ، وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت أنا إلى الناس عامة »

اقسام الله بحياته :

واختصه الله بأن أقسم بحياته فقال ـ تعالى ـ

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣٢٨)

---

(٣٢٥) سبأ ٢٨

(٣٢٦) الفرقان ١

(٣٢٧) الأعراف ١٥٨

(٣٢٨) الحجر ٧٢

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : ماخلق الله وماذرأ نفساً أكرم عليه من محمد ، وما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » . .

وقال أبو نعيم : ومن خصائصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله فضله فى الخطاب على من قبله تشريفاً واجلالاً فنهى المؤمنين عن مخاطبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالألفاظ الكريهة أو الكلمات المحتملة لذلك . . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ (٣٢٩)

ولم يناده الله فى القرآن باسمه ، بل كان يناديه بصفته تشريفاً وتعظيماً ، وإجلالاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) ﴾ (٣٣٠)

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) ﴾ (٣٣١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ (٣٣٢)

---

(٣٢٩) البقرة ١٠٤
(٣٣٠) المدثر ١
(٣٣١) المزمل ١
(٣٣٢) الأحزاب ٤٥

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ (٣٣٣)

وكان الله يخاطب الأنبياء بأسمائهم :

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾ (٣٣٤)

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ (٣٣٥)

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٣٣٦)

وكان الأنبياء يخاطبهم أقوامهم بأسمائهم مجردة ، ولكن الله دعا المؤمنين إلى خطاب نبيهم بما يليق به وبما يخالف مخاطبتهم لبعضهم البعض . .

وقال فى ذلك :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (٣٣٧)

أخرج أبو نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كانوا يقولون يا محمد ، فنهاهم عن ذلك إعظاماً لنبيه فقالوا : يانبي الله ، يارسول الله . .

وأخرج البيهقى عن علقمة وغيره ، فى الآية قال : لا تقولوا يامحمد ، ولكن قولوا يارسول الله ، يانبى الله

---

(٣٣٣) المائدة ٦٧

(٣٣٤) هود ٤٨

(٣٣٥) يوسف ٢٩

(٣٣٦) ص ٢٦

(٣٣٧) النور ٦٣

سؤال الميت فى قبره عن النبى ﷺ :

من الاختصاصات الكبرى للنبى ﷺ أن الميت يسأل عنه فى قبره ، حين يقول له الملكان يسألانه : من ربك ؟ ومن رسولك ؟

أخرج أحمد والبيهقى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : أما فتنة القبر فعنى تسألون ، فإذا كان الرجل الصالح أجلس ، فيقال له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : محمد رسول الله . .

عدم زواج زوجاته من بعده :

واختص بأن زوجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتبرن أمهات للمؤمنين ، ويحرم زواجهن من أحد بعده ، قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (٣٣٨)

دفاع الله عنه :

وكان الأنبياء السابقون يدفعون عن أنفسهم أقوال أقوامهم وأعدائهم التى لا تليق بهم . . كما ذكر القرآن على لسان نوح ـ عليه السلام ـ

« ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين » (٣٣٩)

وكان هود يقول :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٣٤٠)

---

(٣٣٨) الأحزاب ٥٣

(٣٣٩) الأعراف ٦١

(٣٤٠) الأعراف ٦٧

ولكن نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم - تولى الله الدفاع عنه ، وتبرئته مما نسب إليه ، فحين رمى بالجنون ، رد الله قول هؤلاء الكفار قائلاً :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ ﴾ (٣٤١)

وحين شكوا فى أقواله ليلة الإسراء والمعراج وكذبوه قال الله لهم :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (٣٤٢)

وحين اتهموه بالشعر قال الله لهم :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۝٦٩ ﴾ (٣٤٣)

اختصاصاته بجميع أنواع الوحى :

وجمع الله له أنواع الوحى كلها وهى : الإلهام والرؤيا الصادقة ، والكلام بغير واسطة ، والتكليم بواسطة جبريل . .

ورفع الله له ذكره وشرح له صدره ووضع عنه وزره وقرن اسمه باسمه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال له :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ (٣٤٤)

واتخذه حبيباً : أخرج البيهقى فى الشعب وابن عساكر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اتخذ الله ابراهيم خليلاً وموسى نجياً واتخذنى حبيباً ثم قال : وعزتى وجلالى لأوثرن حبيبى على خليلى ونجيى » . .

---

(٣٤١) القلم ٢

(٣٤٢) النجم ٢ : ٤

(٣٤٣) يس ٦٩

(٣٤٤) الضحى ٤

وأخرج عبدالله بن أحمد فى زوائد الزهد وأبو نعيم عن ثابت البناني قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « موسى صفى الله وأنا حبيب الله »

وأخرج أبو نعيم فى المعرفة عن عبد الرحمن بن غنم قال : كنا جلوساً عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد فإذا سحابة فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نزل على ملك فقال : « لم أزل استأذن ربى فى لقائك حتى كان هذا أوان أُذِنَ لى ، إنى أبشرك أنه ليس أحد أكرم على الله منك »

اختصاصه بأن الله فرض طاعته على كل الناس بدون استثناء :

قال أبو نعيم : ومن خصائصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله فرض طاعته على كل الناس فرضاً لا شرط فيه ولااستثناء فقال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٣٤٥)

وقال :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٣٤٦)

وأوجب على الناس التأسى به قولاً وفعلاً مطلقاً بلا استثناء فقال :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٣٤٧)

---

(٣٤٥) الحشر ٧
(٣٤٦) النساء ٨٠
(٣٤٧) الأحزاب ٢١

واستثنى فى التأسى بخليله ابراهيم فقال :

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم » إلى أن قال :

﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ (٣٤٨)

اختصاصه بالمقام المحمود :

واختصه الله بالمقام المحمود وبأن له لواء الحمد وبأن آدم فمن دونه تحت لوائه وبأنه إمام النبيين يومئذ وخطيبهم وقائدهم وبأنه أول شافع وأول مشفع وأول من ينظر إلى الله وأول من يؤذن له بالسجود ، وأول من يرفع رأسه ولا يطلب منه شهيد على التبليغ ، ويطلب من سائر الأنبياء .

كما خص بالشفاعة العظمى فى فصل القضاء ، وبالشفاعة فى إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وبالشفاعة فيمن استحق النار من الموحدين ألا يدخلها ، وبالشفاعة فى رفع درجات أناس فى الجنة ، وبالشفاعة فيمن خلد أن يخفف عنه العذاب .

وهذا هو المقام المحمود الذى ورد فيه قوله ـ تعالى ـ

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ ﴾ (٣٤٩)

أخرج أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أنا سيد الناس يوم القيامة . .

ـ صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً ـ

---

(٣٤٨) الممتحنة ٤

(٣٤٩) الاسراء ٧٩

النسب الشريف

- عبدالله
- عبدالمطلب
- هاشم
- عبدمناف
- قصى
- كلاب
- مرة
- كعب
- لؤى
- غالب
- فهر
- مالك
- النضر
- كنانة
- خزيمة
- مدركة
- الياس
- مضر
- نزار
- معد
- عدنان



النسب الشريف

ينتمي النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أعرق أسرة عرفها العرب . . جمعت من الشرف الطريف والتليد وحوت من المجد كل قديم وجديد ، وهى أسرة

قريش التى اختصت بالمكارم ، وانتخبت للعظائم واختارها الله لتكون أمينة على حرمه وبيته ، فقامت بالأمر خير قيام ، وأكرمت حجاج بيت الله الحرام ، وقرتهم بما قدمت لهم من الشراب والطعام ، حتى عادوا وقد أوفوا نذورهم ، وأدوا مناسكهم ، ورفعوا إلى الله حوائجهم ، واطوفوا بالبيت العتيق واستحقوا من الله أن ينظر إليهم بعين رحمته وأن يشملهم بأمنه ورعايته . .

وكانت قريش هى خلاصة العرب ، أوسطها نسباً وأشرفها حسباً . . قال الجاحظ - فيا يرويه الحصرى عنه - فى وصف قريش . .

قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف ايجازها وتحسيرها [٣٥٠] ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد [٣٥١] ،

وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها فى اللأواء [٣٥٢] وكيف وفاؤها إذا استحسن

---

(٣٥٠) التحسير : الاطناب
(٣٥١) الحديد : القوى الذهن
(٣٥٢) اللأواء : الشدة

الغدر ، وكيف جودها إذا شح المال ، وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدورها عن جهة القصد [353] وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف

وصفها له ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها ، وصونها لأعراقها وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم ، وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم وقولهم فعلهم .

بل لقد علم الناس كيف جمالها وقوامها وكيف نماؤها وبهاؤها، وكيف سروها ونجابتها [354] وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداهتها ، فالعرب

كالبدن وقريش روحها ، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهى العلم والسنام الأضخم والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والغرس المبارك والنصاب الوثيق [355]

ومعدن الفهم وينبوع العلم .. هم الأنف المقدم والسنام الأكرم [356]

هذه الأسرة العريقة هى التى قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هاشماً من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم » [357]

---

(٣٥٣) القصد : الغرض

(٣٥٤) السرو : الشرف ، والنجابة : كرم الحسب

(٣٥٥) النصاب : الأصل

(٣٥٦) زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص ٩٥

قال السيوطى : لقد اختار الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب فما تسلل شيء من أدران الجاهلية إلى شيء من نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

نســـبه :

أما نسبه الذى أورده ابن سعد فى طبقاته عن هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبى فهو : محمد الطيب المبارك بن عبد الله بن عبد المطلب ـ واسمه شيبة الحمد ـ بن هاشم ـ واسمه عمرو ـ بن عبد مناف ـ واسمه المغيرة ـ بن قصى ـ واسمه زيد ـ بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، واسمه قيس ـ بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ـ واسمه عمرو ـ بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

قال ابن سعد : وأخبرنا هشام بن محمد قال : أخبرنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا انتسب لم يجاوز فى نسبه معد بن عدنان بن أدد ، ثم يمسك ويقول : كذب النسابون ، قال الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣٥٨)

---

(٣٥٧) فقه السيرة ـ محمد سعيد البوطى ص ٤٩ والحديث فى مسلم

(٣٥٨) الفرقان ٣٨

والأدب يقضي بالإمساك عند هذا النسب وعدم تجاوزه ، وإن كان هناك بعض لنسابين ذكر سلسلة النسب النبوى إلى آدم ـ عليه السلام ـ

ولكن الذى لاشك فيه على الإطلاق أن عدنان ينتهى نسبه إلى إسماعيل ـ عليه السلام ـ

ويعنى ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتهى نسبه إليه ، ويؤكد ذلك استجابة الله دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وابنه إسماعيل ـ حين رفعا القواعد من البيت ، وقالا :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٣٥٩)

وقد جاء فيما أخبر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه : أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى . . » ولم يكن واحد من هؤلاء الآباء الذين انحدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصلابهم إلا عظيماً . والمقام يقتضى التعريف بهم تعريفاً موجزاً . . مادمنا نحن بصدد سيرة ذلك الرسول الذى هو أزكى الخلق وخلاصة السادة النجب . .

عبد الله :

عبد الله بن عبد المطلب شقيق أبي طالب والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وبرة ، أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

وهو الملقب بالذبيح ، لأن أباه كان قد نذر إن رزقه الله بعشرة بنين يذبح

---

(٣٥٩) البقرة ١٢٩

أحدهم ، فلما رزقه اقترع بين أبنائه ، فوقعت القرعة على عبد الله . .

فهم عبد المطلب بذبحه ، ولكنه افتداه بمائة من الإبل ، بناء على فتوى كاهنة من كواهن العرب قالت له : كم دية القتيل عندكم ؟ قال : عشرة من الإبل .

فقالت : اضرب القداح بين ابنك وعشرة من الإبل فإن أصابت الإبل فانحرها ، وإن أصابت ابنك فزد عشرة بعد عشرة حتى يرضى ربكم . .

فمازال عبد المطلب يزيد عشرة عشرة حتى بلغت الإبل مائة . . فنحرها . . وأباحها للناس . .

وكان عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه . . ولكن القرعة حين أصابته لم يضن به على الذبح كما نذر ، وأخذ الشفرة وهم بذبح ابنه ، ولكن قريشاً قامت من أنديتها وقالت : والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فوالله لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فيصبح هذا سنة فى العرب . . وكان أن اصطحبه إلى الكاهنة فأشارت بما قلناه . .

واكتسب عبد الله بذلك الفداء الذى حدث صيتاً زائداً ، وكان شاباً وسيماً جسيماً شجاعاً مارآه أحد إلا ملأ قلبه حباً وإعجاباً ، وكانت غرة النبوة المدخرة لابنه تتلألأ فى وجهه ، يعرفها من آتاه علماً وفراسة . .

قال الطبرى : بعد أن ذبح عبد المطلب الإبل فداء لابنه عبد الله أخذ بيده ، فمر على امرأة تسمى أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وهى أخت ورقة بن نوفل . .

وتفرست فى وجهه فرأت نور النبوة فى وجهه فتمنت أن تكون أم النبى المنتظر . . فدعته إلى نفسها ولكنه عزف عنها . .

وتوجه به أبوه إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة ،ووَهْب يومئذ سيد بنى زهرة سنا وشرفاً ، فخطب إليه ابنته آمنة بنت وهب لابنه عبد الله ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً ، وأمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى .

وبنى عبد الله بآمنة من ليلته فحملت بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفكر عبد الله فيما عرضته عليه أم قتال .. ما الذى دعاها أن تعرض نفسها عليه وهى معروفة بالعفة والطهارة والشرف ؟ فأراد أن يستفسر منها عن سبب ذلك ، فتوجه إليها فأعرضت عنه فسألها عن سبب ذلك ولماذا عرضت نفسها بالأمس القريب عليه وهى من عقيلات العرب وأطهرهم ؟

فقالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس .. فليس لى بك اليوم حاجة ..

لقد كانت أم قتال تسمع من أخيها ورقة علامات النبى المنتظر ، ومن هذه العلامات ذلك النور الذى يظهر فى جبهة أبيه ..

لقد كان عبد الله عفيفاً طاهراً حتى لقد قال حين عرضت عليه هذه المرأة ما عرضت :

أما الحـــرام فالممات دونـــه والحـــل لا حـــل فأســـتبينه
فكيف بالأمر الذى تبغـــينه ؟

وقيل إن المرأة التى رغبت فى عبد الله هى كاهنة خثعمية ، اسمها فاطمة بنت مر ، كانت متهودة من أهل تبالة ، وكانت قد قرأت الكتب وعرفت علامات النبوة .

وحين فاتها شرف أمومة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظفرت بها آمنة بنت وهب قالت هذه المرأة

ولما حـوت منه أُمَيْنَةُ ما حـوت حـوت منه فخـراً مـا لذلك ثـان

قال الطبرى : حدثنى الحارث بن محمد ، قال حدثنا محمد بن سعد قال : حدثنا محمد بن عمر ، قال : حدثنا معمر وغيره عن الزهرى أن عبد الله بن عبد المطلب كان أجمل رجال قريش ، فَذُكِر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته ، وقيل لها : هل لك أن تتزوجيه ؟ فتزوجته ، فدخل بها وعلقت برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ثم بعثه أبوه إلى المدينة فى ميرة يحمل لهم تمراً فمرض ومات بالمدينة . . فبعث عبد المطلب بابنه أبى طالب حين أبطأ عبد الله فى العودة يطلبه ، فوجده قد مات

وقيل إن عبد الله كان فى تجارة فى الشام فى عير لقريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة (٣٦٠)

---

(٣٦٠) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ٢ ص ١٧٦

عبد المطلب :

أما عبد المطلب فاسمه شيبة . .

وسمى بذلك لأنه كان فى رأسه شيبة حين ولد . . أما تسميته بعبد المطلب فلذلك قصة . .

كان أبوه هاشم بن عبد مناف تاجراً ، وفى إحدى رحلاته التجارية إلى الشام سلك طريق المدينة ، فلما قدمها نزل بها على عمرو بن زيد بن لبيد الخزرجى ، فرأى ابنته سلمى وأعجبته فخطبها إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وشرط عليه ألا تلد ولداً إلا فى أهلها وقبل هاشم الشرط ، وانصرف هاشم إلى طريقه ، ثم عاد من رحلته فأقام بيثرب ، حيث بنى بزوجته سلمى ، وأقام بها أياماً ، ثم ارتحل بها إلى مكة ، وحملت سلمى من هاشم ، فلما أثقلت اصطحبها عائداً بها إلى المدينة وفاء بالشرط وتركها عند أهلها متجهاً إلى الشام فمات بغزة . . وهناك رواية أخرى فى زواجه من « سلمى » سبق أن ذكرناها .

وولدت سلمى عبد المطلب ، الذى أسمته شيبة . .

ومكث شيبة مع أمه فى يثرب عند أخواله سبع سنين ، حتى رآه رجل من بنى الحارث بن عبد مناة ، وكان فى زيارة ليثرب ، فرأى غلماناً يتتضلون ، ورأى من بينهم شيبة يغلبهم ويقول : أنا شيبة بن هاشم أنا ابن سيد البطحاء . . فقال له الحارثى : من أنت أيها الفتى ؟ فقال : أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف .

فلما أتى الحارثى مكة قال للمطلب بن عبد مناف . . وهو جالس فى الحجر . .

ياأبا الحارث ، إن لك ابن أخ بيثرب ، رأيته كلما غلب لداته افتخر عليهم وقال : أنا ابن هاشم أنا ابن سيد البطحاء .

فقال المطلب : والله لا أرجع إلى أهلى حتى آتى به .

فقال له الحارثى : فهذه ناقتى بالفناء فاركبها .

فركبها المطلب وسار فأتى يثرب عشاء .. فاحتمل ابن أخيه وعاد به ، وقد أردفه خلفه .

فكان الناس يقولون وهم يرونه وراءه : هذا عبد المطلب .. هذا عبد المطلب .. فغلب عليه هذا الاسم ..

وكان أخوال عبد المطلب بارّين به ، مناصرين له ، حتى لقد انتدبهم فى نصره حين ظلمه بعض أعمامه حقه فوافوه سراعاً وردوه إليه ونصروه .

وبلغ عبد المطلب فى قومه منزلاً رفيعاً تسامعت به العرب فى كل مكان ، وحين هزم الله الحبشة فى أيامه وقد جاءوا بأفيالهم يريدون هدم الكعبة ازدادت منزلة عبد المطلب رفعة وعلواً .

ويرجع الفضل إلى عبد المطلب فى إعادة حفر زمزم ، وكان ذلك تكريماً له ، فقد شغله أمر سقاية الحجيج بعد أن تولى السقاية بعد موت عمه المطلب ، وتمنى أن ييسر الله له الماء فيوفره للحجاج وكان يحمله إليهم من مكان بعيد ويقدمه لهم فى حياض من أدم بمكة وعرفات ومنى .

وأراه الله فى نومه أن يحفر طيبة ، فقال : وما طيبة ؟

فلما كان فى الليلة الثانية جاءه فى المنام من يأمره أن يحفر برة . فقال وما برة ؟ ولكن الذى يأمره يتركه ويمضى دون أن يخبره كما تركه فى الليلة السابقة .

فلما كان فى الليلة الثالثة جاءه الآتى فى المنام يقول له : احفر المضنونة ، قال : وما المضنونة ؟ أبِنْ ما تقول ؟

فلما كان الغد أتاه ، وقال له : احفر زمزم ..

قال : وما زمزم ؟ قال : لا تنزح ولا تزم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ..

وكان غراب أعصم لا يبارح الذبائح مكان الفرث والدم . .

ثم قال له الذى يأتيه : وهى شرب لك ولولدك من بعدك . .

وغدا عبد المطلب إلى موضع العلامة ومعه ابنه الحارث ولم يكن له يومئذ سواه . . وحفر حتى استنبطها ونازعته قريش ، ولكنها سلمت له حين استبانت منزلته وكرامته وأن الله لن يخذله . .

لقد كان عبد المطلب على شرف معروف ، وجاه موصوف ، وعلم وحكمة وكان يُبْسَطُ له بساط فى فناء الكعبة ليجلس عليه وحوله شيوخ قريش ، لا يجرؤ أحد أن يقرب البساط فيجىء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو طفل فيجلس على البساط ، فيحاول أعمامه رده ـ فيقول عبد المطلب : دعوه إن لابنى هذا شأناً . .

قال الرواة : كان عبد المطلب أحسن قريش وجهاً وأمدهم جسماً ، وأحلمهم حلماً ، وأجودهم كفاً ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، ولم يره مَلِك قط إلا أكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى هلك (٣٦١)

وتنافر عبد المطلب وحرب بين أمية إلى نفيل بن عبد العزى .

فقال نفيل لحرب : ياأبا عمرو أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفدا ، وأطول منك مذودا ؟

وتنازع عبد المطلب مع ثقيف على ماء كان له بالطائف وأعاره لهم دهراً فادعوه وجحدوه . .

وَحَكَّمُوا بينهم أحد كهنة الشام ، وفى الطريق إليه نفد ماء عبد المطلب ومن معه من قريش ، فطلب من الثقفيين أن يسقوهم فأبوا ، فهيأ الله لعبد المطلب

---

(٣٦١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٥١ قسم ١

اكتشاف عين من الماء فحمد الله عز وجل ـ وشرب ومن معه وحملوا حاجتهم ، ونفد ماء الثقفيين ، فبعثوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم فسقاهم ولم يعاملهم بالمثل .. ولما وصلوا إلى الكاهن حكم لعبد المطلب ..

هكذا كان عبد المطلب جد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

هاشم بن عبد مناف :

أما هاشم بن عبد مناف فكان مثلاً يحتذى ، وهو صاحب الإيلاف ، وهو الذى سن لقريش الرحلتين اللتين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ (٣٦٢)

واسم هاشم عمرو ، أما هاشم فهو لقب اكتسبه من هشمه الخبز للناس والطير ، وذكر الرواة فى ذلك قصة :

قال ابن سعد : أصيبت قريش بسنة من القحط ذهبت بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً ثم أمر بخبزه فخبز له ، فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة ، فهشم ذلك الخبز ـ يعنى كسره ـ وثرده ، ونحر الإبل ، ثم أمر الطهاة فطبخوا ، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة ، فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التى أصابتهم ، فسمى بذلك هاشماً ، وقال عبد الله بن الزبعرى فى ذلك ؟

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

---

(٣٦٢) سورة قريش

وقال وهب بن عبد قصى فى ذلك :

تحمل هاشم ما ضاق عنه	وأعيا أن يقوم به ابن بيض
أتاهم بالغرائر متأقات	من أرض الشام بالبر النفيض
فأوسع أهل مكة من هشيم	وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات	من الشيزاء حائرها يفيض

وقد تعرض بسبب ذلك لحسد الحاسدين ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه . .

وكان هاشم يقوم بأمر الحجاج ، حين يفدون إلى البيت فى الموسم ، وكان إذا حضر الموسم قام فى قريش خطيباً فيقول لهم :

« يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار بيت الله ، يعظمون حرمة بيته فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته . . » (٣٦٣)

والفخر الذى يذكر لهاشم هو استطاعته أن يظفر لقريش بالحلف من قيصر ، ذلك الحلف الذى أمنت به قريش فى تجارتها ، فسافرت شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فى تجارة آمنة فأثرت واغتنت واكتسبت عزاً ومنعة وشرفاً . .

عبد مناف :

واسمه المغيرة ، وكان يقال له القمر لجماله وحسنه ، وهو الذى قام بالأمر بعد أبيه « قصى » فاختط بمكة ، رباعاً جديدة . . . وبنو عبد مناف هم عشيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهذا لما نزل قوله ـ تعالى ـ :

---

(٣٦٣) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٥ قسم ١

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٣٦٤)

أخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو بنى عبد مناف ، فصعد المروة وقال : ياآل عبد مناف : فاجتمعوا فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ،وأنتم الأقربون من قريش وإنى لاأملك لكم من الله حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لاإله إلا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم ، فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ (٣٦٥)

أى : خابت وهلكت يدا أبى لهب (٣٦٦)

وولد لعبد مناف ستة ذكور وست إناث ، فالذكور هم المطلب ، وهو أكبرهم ، وهو الذى عقد الحلف لقريش مع النجاشى ، وهاشم ـ وهو الذى عقد الحلف مع قيصر ـ وعبد شمس وهو الذى عقد الحلف مع النجاشى ملك الحبشة ونوفل وهو الذى عقد الحلف مع كسرى ـ وأبو عمرو وأبو عبيد . .

والإناث : هن تماضر ، وحنة ، وقلابة ، وبرة ، وهالة ، وريطة . .

قصـــــى :

هو قصى بن كلاب بن مرة

وقد تزوج كلاب بن مرة فاطمة بنت سعد بن سيل وهى من الأزد ، فولدت له

---

(٣٦٤) الشعراء ٢١٤
(٣٦٥) المسد ١
(٣٦٦) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٤٢

زهرة بن كلاب ، ثم ولدت بعده بفترة طويلة قصياً ـ وكان اسمه زيداً ـ وتوفى كلاب بن مرة فقدم أحد أقارب فاطمة فتزوجها ورحل بها لتقيم فى أهله ، وحملت زيداً معها لصغره فسمى قصياً لتقصيه معها إلى الشام . .

وكان هذا الذى تزوجته فاطمة اسمه ربيعة بن حرام من قضاعة ، وأنجبت منه ولداً اسمه « رزاح »

وكان « قصى » ينسب إلى ربيعة زوج أمه ، حتى تنازع « قصى » مع بعض القضاعيين .

فقال القضاعى : ألا تلحق ببلدك وقومك فإنك لست منا ؟
فرجع قصى إلى أمه يقول لها : من أبى ؟

فقالت له : أبوك كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب وهو سيد قريش ، وقومك بمكة عند البيت الحرام فيما حوله . .

فقال قصى : فوالله لاأقيم هنا أبداً . .
فقالت له : فأقم حتى يأتى الموسم لتكون مع الحجاج
فلما جاء الموسم خرج إلى مكة مع قوم من قضاعة . .

وكان أخوه زهرة بن كلاب حيا ولكن بصره قد ذهب ، فلما قدم قصى إليه قال له : ادن منى ، فلمسه وسمع صوته فعرفه ، وقال : أنت والله أخى .

وبعد انتهاء الموسم حاول القضاعيون أن يعودوا بقصى إلى أمه فأبى ، وأقام بمكة مع أخيه . .

وكان رجلاً جلداً نهداً نسيباً ، وكان أمر الكعبة وقتئذ فى يد الخزاعيين ، وكان الذى يتولى منهم أمرها حليل بن حبيشة . وكانت له ابنة اسمها « حُبَّى » . .

فخطب قصى إلى حليل ابنته . .

فلما عرف حليل نسبه رغب فيه فزوجه

وهلك حليل وتولى حجابة البيت وأمر مكة بعده ابنه المحترش ، وهو الذى يكنى « أبا غبشان »

وكانت العرب تجعل له جعلاً [٣٦٧] فى كل موسم ، فقصروا عنه فى بعض المواسم ، وكان أبو غبشان صاحب شراب ، ولم يكن أهلاً لأن يتولى أمر البيت فدعاه قصى ثم اشترى منه أمر البيت وحجابته بأذواد من الإبل . . فرضى أبو غبشان ومضى إلى ظهر مكة ـ هذه رواية . . ولكن هناك رواية أخرى ولعلها أليق بهذا الموضع . .

تقول هذه الرواية : إن قصيا أعقب من حبى ، فلما رأى حليل ولد ابنته من قصى أعجب بهم وقال : إنما ولد قصى ولدى وهم بنو ابنتى ، فأوصى لقصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة ، وقال له : انت أحق به . .

وغلب قصى وولده على مكة ، وعاد الأمر بذلك إلى نصابه ، وأصبح بنو إسماعيل هم ولاة البيت بعد أن ابتعدوا عنه بغلبة الجراهمة حيناً والخزاعيين حيناً آخر .

واستعان قصى باخوته لأمه من بنى قضاعة فنصروه ووقفوا بجانبه وآزروه فى الخلاف الذى نشب بينه وبين الخزاعيين حتى استقر له الأمر أخيراً . .

قال الرواة : لما فرغ الأمر لقصى ، ونفى خزاعة وبنى بكر عن مكة تجمعت إليه بطون قومه فسموا قريشاً لتجمعهم ، فالتقرش هو التجمع . .

وولد لقصى من حبى أولاده كلهم وهم . .

---

(٣٦٧) أى خرجاً يخرجونه إليه

عبد الدار ـ وكان بكره ـ وعبد مناف ، واسمه المغيرة ـ وعبد العزى ـ وعبد قصي ـ بالإضافة إلى بنتين هما تخمر وبرة

قال ابن سعد راوياً عن أبي صالح وابن عباس قالا : كان قصي بن كلاب أول من جمع قومه من أولاد كعب بن لؤي وأول من رضي به قومه وأطاعوه . . فكان شريف أهل مكة لاينازع فيها ، فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيها ينوبهم ، ولايعقدون لواء حرب لهم ولا لغيرهم إلا في دار الندوة ، وإن الأحلاف وفض المنازعات لا تعقد إلا فيها ، ولا تخرج عير قريش إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها . .

واجتمع لقصي الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كلها .

وقسم قصي مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم . .

وسمته قريش مجمعاً لما جمع من أمرها وتيمنت به وبأمره وشرفته قريش وملَّكته ، وأدخل قصي بطون قريش كلها الأبطح فسموا قريش البطاح ، ومن أقام منهم بظاهر مكة سموا قريش الظواهر ، وفي ذلك يقول الشاعر :

فلو شهدتني من قريش عصابة ... قريش البطاح لا قريش الظواهر

وفي قصي يقول الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

قصي هو الذي سمى قريشاً :

وبقصي سميت قريش بهذا الاسم ، وكان يقال لهم قبل ذلك : بنو النضر

روى ابن سعد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : لما نزل قصي

الحرم وغلب عليه فعل أفعالاً جيلة فقيل له : القرشى ، فهو أول من سمى به . .

ولكن بعضهم يقول : إن النضر بن كنانة كان يسمى أيضاً القرشى

وإلى قريش وأحلافها ينسب ماأحدثوه فى مكة من « حمس » والتحمس أشياء أحدثوها فى دينهم شددوا على أنفسهم فيها وابتعدوا بذلك عن آداء المشاعر الصحيحة . .

والحمس سكان الحرم من قريش لأنهم كانوا يتشددون فى دينهم ، وقيل كانوا لا يستظلون أيام منى ، ولايدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون . وكانوا لا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات إنما يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله ، ولا نخرج من الحرم ، وهذا تقصير عن بلوغ الحق الذى شرعه الله لإبراهيم عليه السلام . . وحين جاء الإسلام جعل الوقوف بعرفة ركناً أساسياً ، وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : الحج عرفة . .

وكان البعض منهم لا يطوفون بالبيت طواف الإفاضة إلا عراة . . وإن طافوا فى ثياب يلقونها ولا يحل لهم لبسها بعد ذلك . .

وكانوا يحرمون على أنفسهم وعلى غيرهم من الحجاج أكل أى طعام اصطحبوه معهم من الحل إذا جاءوا حجاجاً أو معتمرين .

وقد حمل بعض القرشيين العرب على تلك الأمور حتى دانوا بها وأصبحت من العقائد الثابتة فى حجهم أو زيارتهم للبيت الحرام . .

الإســلام يبطـل الحمس :

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعض القرشيين يخالفون أهل الحمس وذلك قبل بعثته ـ لقد وفقه الله إلى إقامة المشاعر الصحيحة ـ حدث جبير بن مطعم قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى ، وانه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقاً من الله له .

لقد كان القرشبيون أو المتحمسون منهم ـ كما سبق أن قلنا ـ لا يقفون بعرفات .. وفى ذلك مخالفة صريحة للمناسك الصحيحة فوقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعرفة ليفيض مع الناس مخالفاً بذلك قومه ..

ولما جاء الإسلام عادت الشريعة الصحيحة للحج .. ونزل القرآن الكريم ينهى عن العرى فقال ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ (٣٦٨)

وفى قوله : كلوا واشربوا إشارة إلى ماكان المتحمسون قد حرموه من أكل الطعام الذى حملوه معهم من الحل ..

وفى قوله : خذوا زينتكم ـ إشارة الى استعمال اللباس الذى نهوا عنه .. ودعا إلى الإفاضة من عرفات فقال :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾ (٣٦٩)

فدعاهم إلى أن يفيضوا من عرفات بعد الوقوف بها ..

وكانت قريش قد أحدثت تلك البدع السابقة ، وقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وقُطّان مكة وسكانها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف العرب حقاً لأحد مثل ما تعرف لنا ، فلا يجب من

---

(٣٦٨) الاعراف ٣١
(٣٦٩) البقرة ١٩٩

وجهة نظرهم هذه أن يتساووا مع الناس ، لأنهم إن فعلوا ذلك استخفت العرب بهم وبحرمة البيت [٣٧٠]

وقد دخلت مع قريش فى هذا الحمس والتشدد كنانة وخزاعة .

ولقصى يرجع الفضل فى إيقاد النار بالمزدلفة حين وقف بها حتى يراها مع دفع من عرفة ، ولم تزل توقد هذه النار فى تلك الليلة وليلة الدفع من عرفة ، فى الجاهلية ـ وظلت توقد فى أيام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وعمرو وعثمان واستمرت بعد ذلك فترة طويلة .

قصى يأمر قريشاً بإكرام الحجاج :

وفرض قصى على قريش السقاية والرفادة ، وهو الذى كان يقول : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وإن الحجاج ضيفان الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة .

واستجاب له القرشيون ، وتوارثوا الأمر من بعده ..

وتولى الأمر بعد قصى بنوه ..

وقد سبق أن قلنا إن قصياً هذا اسمه زيد ،وإنما سمى قصياً لأنه قصى عن قومه وعاش فى بنى عذرة مع ةأمه وأخيه لأمه .. ويقال : قصى وأقصى بمعنى ابتعد ، والناحية

---

(٣٧٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٢٩

القصوى والقاصية أى البعيدة [٣٧١]

كـــــلاب :

جاء فى هامش كتاب الاشتقاق : أن اسمه حكيم ، وقيل : اسمه عمرو وكلاب مصدر كالب ،وبنو كلاب قبيلة عظيمة من العرب ، وكلب : حى من قضاعة ، وأم كلاب ـ فيما ذكر ـ هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن فهر بن مالك .

وكان لكلاب أخوان من أبيه أى من غير أمه ، وهما : تيم ،ويقظة ، وأمهما هى أسماء بنت عدى بن حارثة [٣٧٢]

مـــــرة :

ومرة اسم شجرة ، والمرار ـ بضم الميم ـ أيضا شجر ، الواحدة منه مرارة ـ بضم الميم ـ

واسم مرة مشهور فى العرب ، سمى به قبائل مثل : مرة بن عوف فى غطفان ، ومرة بن عبيد فى بنى تميم ، ومرة فى بكر بن وائل ، ومرة فى عبد القيس .

---

(٣٧١) الاشتقاق لابن دريد ص ١٩

(٣٧٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٨٥

وأمه وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر . . وله أخوان شقيقان هما : عدى وهصيص . .

كعـــــب :

وكعب مأخوذ ، إما من كعب الإنسان ،أو كعب الرمح ، وجمع كعب الإنسان : كعاب ، وجمع كعب القناة : كعوب (٣٧٣)
وسميت الكعبة كعبة لتربعها

وفى العرب بنو كعب فى أهل العالية ، ولهم خطة بالبصرة ، وبنو كعب فى بنى العنبر . .
وقد سمت العرب كعباً ومكعباً وكعيباً بالتصغير ـ

وأم كعب هى ماوية بنت كعب بن القين بن جسر من قضاعة . .
وله أخوان شقيقان يقال لأحدهما : عامر ، ويقال للآخر : سامة . . .

ولكعب أخوان آخران من أبيه أى من غير أمه ، أحدهما اسمه خزيمة ، وأمه اسمها عائذة بنت الحمس بن قحافة من خثعم .
والآخر اسمه : سعد . . واسم أمه : بنانة

لـــؤى :

قال ابن دريد : واشتقاق لؤى من أشياء :

---

(٣٧٣) القناة : الرمح

إما من لواء الجيش وهو ممدود ، أو من لوى الرمل وهو مقصور ، أو هو تصغير لأى . .

وأم لؤى عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة . . .

ولؤى له أخوان شقيقان : هما : تيم ، وقيس

غـــالب :

وغالب اسم فاعل من قولهم : غلب يغلب غلباً فهو غالب

ويقولون : لمن الغلب ؟ - بفتحتين - ومن قال : لمن الغلْب ؟ بفتح فسكون فقد لحن - قال ذلك ابن دريد فى كتابه « الاشتقاق »

وأم غالب ليلى بنت الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة .

واخوته الأشقاء هم الحارث ، ومحارب ، وأسد ، وعوف ، وجون ، وذئب . .

فهـــر :

والفهر هو الحجر الأملس ، وقد صغروا فهراً على فهيرة ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - وهو أحد الثلاثة الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ وقد قتل فى يوم بئر معونة ، وكان المسلمون ثلاثين رجلاً ، غدر بهم عامر بن الطفيل فقتلهم ، فطلب جسده فلم يوجد ، فقال رجل من بنى عامر : طعنت رجلاً منهم فقال : فزت والله ، فقلت فى نفسى : بم فاز ؟

والله لقد طعنته ثم ابتعد ، فلم يزل يبتعد حتى غاب عن عيني فعلموا أنه عامر ابن فهيرة حيث فقد جسده . . وقد قال بعض الرواة إن فهراً هذا هو الذى جمع قريشاً وقد ذكرنا قبل ذلك أن قصياً هو الذى جمعهم وهو الراجح . .

وأم فهر جندلة بنت عامر بن الحارث بن مضاض الجرهمى . .

وقال بعضهم : أمه سلمى بنت أد ـ بن طابخة بن إلياس بن مضر .

وذكر الطبرى لفهر موقفاً عظيماً يذكر له بكل فخر : قال : أقبل حسان بن عبد كلال الحميرى فيمن أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن ، ليجعل حج الناس عنده ببلاده ، فأقبل حتى نزل بنخلة ـ اسم موضع ـ فأغار على سرح الناس ، ومنع الطريق ، ولكنه هاب أن يدخل مكة .

فلما رأت قريش وأحلافها من كنانة وخزيمة وأسد ذلك . . خرجوا إليه وقائد الناس يومئذ فهر بن مالك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت حمير ، وأسر حسان بن عبد كلال ملك حمير .

وكان الذى أسره هو : الحارث بن فهر .

وقتل فيمن قتل من الناس قيس بن غالب بن فهر

وظل حسان أسيراً فى مكة ثلاث سنين حتى افتدى نفسه ، فخرج فمات بين مكة واليمن (٣٧٤)

وقيل : إن فهراً اسمه قريش ، وفهر لقب له .

---

(٣٧٤) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ١٨٧

مـــــالك :

وهو اسم فاعل من ملك ـ وجاء فى فاتحة الكتاب « مالك يوم الدين » وقرىء « ملك يوم الدين » وأم مالك هى عكرشة بنت عدوان وهو الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . . هذا قول ابن هشام وأما ابن إسحاق فيقول : إن عكرشة لقب لعاتكة بنت عدوان ، فاسمها عاتكة ولقبها عكرشة .

وقيل : إن أمه هى هند بنت فهر بن عمرو بن قيس .

النضـــــر :

واسم النضر : قيس ، وأمه برة بنت مر بن أد بن طابخة

وله أخوة أشقاء ثلاثة عشر هم : نضير ، ومالك ، وملكان ، وعامر ، والحارث ، وعمرو ، وسعد ، وعوف ، وغنم ، ومخرمة ، وجرول ، وغزوان ، وجدال .

وله أخ من أبيه ، هو : عبد مناة .

قال ابن هشام : والنضر هو قريش ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي قال جرير يمدح هشام بن عبد الملك :

فما الأم التى ولدت قريشاً بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم وماخال بأكرم من تميم (٣٧٥)

ويعنى جرير بالأم : برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، وهى أم النضر . . (٣٧٦)

وهناك قول يرى أن فهراً هو الذى يسمى قريشاً . . وفهر لقب له ـ كما ذكرنا سابقاً ـ

---

(٣٧٥) المقرفة : اللئيمة ـ النجار : الأصل ـ القرم : السيد
(٣٧٦) سيرة ابن هشام جـ١ ص ١١٥

وقد مر بنا أن قصياً هو الذى سمى قريشاً بهذا الاسم .. لأنه جمعها ..

كـــنانة :

والكنانة بيت السهام ، وأم كنانة عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان ، وقيل : إن أمه هند بنت عمرو بن قيس . واخوته من أبيه : أسد ، وأسدة ، والهون ، وأمهم هى برة بنت مر بن أدّ بن طابخة وهى أم النضر بن كنانة ـ قال القرطبى فيما يحكيه : تزوجها بعد أبيه ـ وسيأتى تفنيد ذلك إن شاء الله .

خـــزيمة :

وأمه سلمى بنت أسلم بن الحاف بن قضاعة .

وأخوه الشقيق هو هذيل ..

ولهما أخ من أمهما هو تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة .

مدركـــة :

وهو اسم فاعل من أدرك ، والتاء للمبالغة .

واسمه عمرو ، وأمه خندف وهى ليلى بنت حلوان بن عمران واخوته لأبيه وأمه : عامر وعمير

وقال ابن اسحاق : ولد مدركة رجلين هما : خزيمة وهذيل ..

وقال أيضاً : كان اسم مدركة عامراً ، واسم طابخة أخيه عمراً ، وزعموا أنهما كانا فى إبل لهما يرعيانها ، فاقتنصا صيداً ، فقعدا عليه يطبخانه ، وعدت عادية على إبلهما ..

فقال عامر لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ ،؟ فقال عمرو : بل أطبخ الصيد . .

فلحق عامر بالإبل وعاد بها .

فلما رجعا إلى أبيهما حدثاه شأنهما فقال لعامر : أنت مدركة . . وقال لعمرو : وأنت طابخة .

قال الطبرى : وحدثت عن هشام بن محمد قالوا : خرج إلياس فى نجعة فنفرت إبله من أرنب فخرج إليها عمرو ، فأدركها فسمى مدركة ، وأخذها عامر فطبخها فسمى طابخة ، وانقمع عمير فى البناء فلم يخرج فسمى « قمعة » وخرجت أمهم تمشى فقال لها إلياس زوجها : أين تخندفين ؟ فسميت : خندف .

والخندفة ضرب من المشى

وقال إلياس لعمرو ابنه : إنك قد أدركت ما طلبنا
وقال لعامر ابنه : وأنت قد أنضجت ما طبختا
وقال لعمير : وأنت قد أسأت وانقمعتا [٣٧٧]

إليـــاس :

وإلياس اسم نبى من الأنبياء ـ وقد مرت قصته ـ سمى به إلياس بن مضر وأم إلياس هى الرباب بنت حيدة ـ أو حميرة ـ بن معد بن عدنان .
وقال السهيلى فى تعليل الاسم : إنه إفعال من قولهم : رجل أليس وهو الشجاع الذى لا يفر ، والثابت الذى لا يبرح

---

(٣٧٧) تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ١٨٩

وقال بعضهم إنه من الياس وهو ضد الرجا . .

ومما قاله قصي يفتخر بآبائه :

إنى لـدى الحـرب رخـى اللَّببِ أمـهق خـندف والـيـاس أبى

ومما يؤثر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً .

وهو أول من أهدى البدن للبيت[٣٧٨]

مضـــر :

قال القتيبى : اسمه مشتق من المضيرة أو من اللبن الماضر

والمضيرة شيء يصنع من اللبن ، فسمى مضر لبياضه .

والعرب تسمى الأبيض أحمر ، فلذلك قيل : مضر الحمراء ، وقيل فى تعليل ذلك : إن أباه أوصى له بقبة حمراء ، وأوصى لأخيه ربيعة بفرس ، فقيل : مضر الحمراء وربيعة الفرس .

ويقال : إن مضر هو أول من سن الحداء للإبل ، وكان من أحسن الناس صوتاً

وذكر السهيلى حديثاً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيه : لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين .

---

(٣٧٨) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ ص ٩

قال الطبرى : وأمه سودة بنت عك ، وأخوه لأمه وأبيه إياد . .

ولهما أخوان من أبيهما وهما ربيعة وأنمار ، وأمهما هى جدالة بنت وعلان بن جوشم الجرهمية ويضرب بهؤلاء الأربعة المثل فى الذكاء . .

حدث الرواة أن أباهم حين حضرته الوفاة أوصى بنيه وقسم ماله بينهم ، فقال : يابنى ، هذه القبة الحمراء وما أشبهها من مالى لمضر .

وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من مالى لربيعة . .

وهذه الخادم وما أشبهها من مالى لإياد

وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه . .

فان أشكل عليكم فى ذلك فعليكم بالأفعى الجرهمى . .

فساروا يقصدون الأفعى ليقسم بينهم ، فبينما هم يسيرون ، إذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال : إن البعير الذى رعاه أعور .

وقال ربيعة : هو أزور [(٣٧٩)]

وقال إياد : هو أبتر [(٣٨٠)]

وقال أنمار : هو شرود

فما ساروا قليلاً حتى لقيهم رجل يسألهم عن جمله

فقال له مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، وقال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم

وقال إياد : أهو أبتر؟ قال : نعم ، وقال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم

قالوا : ما رأيناه فاطلب جملك .

---

(٣٧٩) أى يميل إلى ناحية دون أخرى ، ويقال للبعير المائل السنام أو الصدر أزور

(٣٨٠) أى مقطوع الذنب

فتعلق بهم وقال : هذه أوصاف جملي وما أخذه إلا أنتم

ووصلوا إلى الأفعى الجرهمى ، وكان مقيماً بنجران . .

وقال صاحب البعير : هؤلاء وصفوا بعيرى الذى افتقدته ، وما أرى إلا أنهم أخذوه .

فقال الأفعى : كيف وصفتموه له ، ولم تروه ؟

فقال مضر : رأيته قد رعى جانباً وترك جانباً فعلمت أنه أعور

وقال ربيعة : رأيت إحدى رجلية ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أزور

وقال إياد : رأيت اجتماع بعره فعلمت أنه أبتر

وقال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان آخر أرق منه نبتاً فعلمت أنه شرود .

فقال الجرهمى : إنهم ليسوا الذين أخذوا بعيرك فاطلبه . .

ثم دعا لهم بطعام ، وكان قد سألهم عن أنفسهم وعن وسبب مجيئهم فأخبروه ، فرحب بهم ، ولم يأكل معهم ، ووكل بهم من يسمع تحاورهم . .

فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً لولا أن كرمته نبتت على قبر . .

وقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً أطيب لولا أنه ربى بلبن كلب .

وقال إياد : لم أر كاليوم رجلاً كريماً لولا أنه لغير أبيه الذى يدعى له .

وقال أنمار : لم أر كاليوم شهداً لولا أن نحله ألقاه فى هامة جبار

وبلغ الجرهمى ماقالوا فتعجب . .

فأتى أمه فسألها عن نسبه فأخبرته أنها كانت تحت أبيه الملك وهو لا يولد له ، فأمكنت رجلاً من نفسها لتحفظ الملك .

وسأل القهرمان عن الخمر فقال : إنها من حبلة غرستها على قبر أبيك .

وسأل الراعى : عن الشاة التى ذبحت فقال : أرضعتها حين ولدت بلبن كلبة ، ولم يكن فى الغنم شاة غيرها يمكن ذبحها .

وسأل عن الشهد فأخبره المشتار بأنهم هجموا على عظام نخرة فإذا النحل قد عسلت فى جمجمة ما رأينا أطيب منه .

فقال الأفعى الجرهمى : ماهؤلاء القوم إلا شياطين .

ثم حكم لهم وقسم أموالهم بينهم (٣٨١)

نــــــزار :

وهو من النزر وهو اليسير والقليل .

قال السهيلى : وكان أبوه حين ولده قد نظر إلى نور النبوة بين عينيه ـ وكان ينتقل فى الأصلاب الطاهرة حتى وصل إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففرح فرحاً شديداً به ، ونحر وأطعم وقال : إن هذا كله نزر ـ أى قليل لحق هذا المولود ـ فسمى بهذا الاسم لذلك .

وأمه هى معانة بنت جوشم بن جلهمة بن عمرو .

معـــــــد :

قيل هو من المعد ـ بسكون العين ـ وهو القوة ومنه اشتقاق المعدة وقيل هو

---

(٣٨١) راجع مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٧١

مفعل من العدد وأمه هي مهدد بنت اللَّهُم بن جلحب بن جديس ـ وقيل ابن طسم ـ

عـــــدنان :

فعلان من عَدَنَ إذا أقام ولعدنان أخوان هما نبت وعمرو ـ كما يقول الطبرى ـ ويقال إن عدن مدينة فى اليمن سميت بعدن بن عدنان ، وإن أهلها ولده . .

كما قالوا : إن أهل حضور لما قتلوا نبيهم شعيب بن ذى مهدم الحضورى سلط الله عليهم بختنصر فخرج إليهم وحاربهم وكان معه « أرميا وبرخيا » فحملا معهما معداً ، فلما سكنت الحرب رداه إلى مكة ، ويقال إنه كان قد أقام فى الشام مدة وتزوج بها . .

وهذا النسب لا يختلف فيه أحد من النسابين .

ويتصل النسب بعد ذلك إلى إسماعيل وقد يختلف النسابون والرواة فى أسماء بعض الآباء والجدود فيما بعد عدنان ، ولكن الشيء المؤكد الذى لا جدال فيه هو اتصال هذا النسب بإسماعيل عليه السلام . .

النســب من جهة الأم :

أما نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جهة أمه . . فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة . .

وأمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب

وأم برة هى أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب

وأمها برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى

وأمها قلابة بنت الحارث بن مالك وينتهى نسبها إلى هذيل بن مدركة بن إلياس .

وأمها أميمة بنت مالك بن غنم بن لحيان بن عادية بن صعصعة .

الى آخر سلسلة النسب الطاهرة العفيفة التى ذكرها الرواة وأثبتوها فى كتبهم ، وهى سلسلة طاهرة مطهرة يقول فيها الشاعر البوصيرى :

تتناهى بك العصور وتسمو	**بك علياء بعدها علياء**
وبدا للوجود منك كريم	**من كريم آباؤه كرماء**
نسب تحسب العلا بحلاه	**قلدتها نجومها الجوزاء**
يوم نالت بوضعه ابنه وهب	**من فخار مالم تنله النساء**

قال ابن سعد : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال : كتبت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ **أمهاته** ، فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم لم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شىء لم أخرج إلا من طهرة [٣٨٢]

رد شبهة :

زعم بعض المفسرين فى قوله تعالى :

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ [٣٨٣]

---

(٣٨٢) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٢١

(٣٨٣) النساء ٢٢

ان فيها إشارة إلى أن خزيمة وهو أحد أجداد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما مات خلفه على زوجته أكبر أولاده من غيرها وهو كنانة فجاء منها بالنضر ، فقوله ـ تعالى ـ إلا ما قد سلف ـ لاستثناء هذه الواقعة حتى يبعد الشبهة عن نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولبيان أن هذا النكاح كان سائغاً فى الجاهلية ولكن الاسلام أبطله ، فما وقع فى سلسلة نسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايعيبه ...

ولكن هذا الكلام لم يصح ، ولم يحدث ولا حقيقة له على الاطلاق . . ذاك أن التى تزوجها كنانة وأعقب منها النضر لم تكن زوجة أبيه وإنما كانت ابنة أخيها وكان اسمها موافقاً لاسمها فمن هنا اشتبه الأمر على بعض المفسرين .

ومن هنا يعلم أن سلسلة نسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا شائبة فيها ، وأن نسبه طاهر مصفى خال من كل عيب أو شبهة أو شك[٣٨٤]

صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

---

(٣٨٤) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٦٥

فهرس المجلد السادس

أهل الفترة .... ص ٧
ضرورة إرسال الرسل .... ص ٨
لماذا يوجد الفساد والشر بالرغم من إرسال الرسل .... ص ١٢
خبر خالد بن سنان العبسى .... ص ١٦
ديانات العرب فى الجاهلية .... ص ٢٠
أساف ونائلة .... ص ٢٣
أصنام قوم نوح عند العرب .... ص ٢٨
القرآن يتحدث عن جهل عبدة الأصنام .... ص ٣٠
من نساء العرب الخالدات بلقيس والزباء .... ص ٣٥
ذكر اسم الله على الذبائح .... ص ٤٠
المتحنفون العقلاء .... ص ٤٢
ورقة بن نوفل .... ص ٤٣
عثمان بن الحويرث .... ص ٤٥
المأمون الحارثى .... ص ٥٤
أمية بن أبى الصلت .... ص ٥٧
رد زعم المستشرقين .... ص ٦٥
بحيرى الراهب .... ص ٦٩
عمرو بن عنبسة السلمى .... ص ٧٣
هل كان عبد المطلب متحنفاً ؟ .... ص ٧٤
ألوان من الفساد الجاهلى .... ص ٧٧
كثرة الحروب .... ص ٧٨

وأد البنات .... ص ٨٠
تطلع الناس إلى الهداية والانقاذ .... ص ٨٨
التبشير بالنبوة .... ص ٩١
المبشرات التى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم .... ص ٩٣
نبوة محمد قديمة .... ص ٩٦
أدلة تثبت علم أهل الكتاب بالنبى صل الله عليه وسلم .... ص ١٠٢
قصة فى سبب إسلام أبى بكر .... ص ١٠٧
شهادة شيخ من بنى قريظة .... ص ١١١
حديث ربيعة بن نصر ملك اليمن .... ص ١١٢
رؤيا مرثد بن عبد كلال .... ص ١١٦
قصة إسلام عروة بن مسعود الثقفى .... ص ١٢٠
دلائل النبوة .... ص ١٢٩
سيف بن ذى يزن يخبر عبد المطلب بمبعث حفيده .... ص ١٣١
رؤيا عبد المطلب بشأن حفيده .... ص ١٣٦
تسميته محمداً .... ص ١٣٧
انتظار المتحنفين له .... ص ١٤٢
خبر سواد بن أبى قارب .... ص ١٤٣
قصة إسلام وائل بن حجر .... ص ١٤٧
قصة فى إسلام عمر رضى الله عنه .... ص ١٥٠
حول إسلام تميم الدارى رضى الله عنه .... ص ١٥٣
حديث خريم بن فاتك الأسدى .... ص ١٥٥

خبر هامة بن الهيم .... ص ١٥٧
عبدالله بن أبي ذباب يخبر عن سبب إسلام أبيه .... ص ١٥٩
إرهاصات النبوة .... ص ١٦٥
أخذ الميثاق على الرسل .... ص ١٧٠
تبشير الأنبياء به .... ص ١٧١
مناظرة بين العلامة ابن القيم وبعض علماء أهل الكتاب .... ص ١٧٢
قرب الظهور .... ص ١٧٤
رصد الكهان للنجوم .... ص ١٧٦
بعض العرب يطلقون على أبنائهم اسم محمد .... ص ١٨١
علامات النبوة فى جبهة الأباء .... ص ١٨٢
المرأة التى عرضت نفسها على عبدالله .... ص ١٨٤
حمل آمنة وما رأته من علامات النبوة .... ص ١٩٠
تنكيس الأصنام .... ص ١٩٥
هلاك أصحاب الفيل .... ص ١٩٧
ترصد اليهود له .... ص ٢٠٤
من دلائل نبوته صغيراً .... ص ٢١٤
حادث شق الصدر .... ص ٢١٩
مناقشة من ينكرون شق الصدر .... ص ٢٢٢
خطأ المستشرقين فى الفهم .... ص ٢٢٩
تعليق على ما قالوه بشأن الراوى .... ص ٢٣٦
تأكيد الأئمة لصدق القصة .... ص ٢٤٠
آيات وخوارق أخرى .... ص ٢٤٥

تسليم الجماد عليه .... ص ٢٤٦
الملائكة تظلله .... ص ٢٤٨
كراهته للأصنام .... ص ٢٥١
الاستسقاء بوجهه .... ص ٢٥٣
خاتم النبوة .... ص ٢٥٦
الرؤيا الصادقة .... ص ٢٥٩
مع خصائص النبوة .... ص ٢٦٦
هل هناك إرهاصات خاصة بالأنبياء السابقين .... ص ٢٦٦
اختصاصه بأنه أول الأنبياء خلقاً .... ص ٢٧٢
اختصاصه بالقرآن الكريم .... ص ٢٧٣
رسالته العامة .... ص ٢٧٣
إقسام الله بحياته .... ص ٢٧٤
دفاع الله عنه .... ص ٢٧٧
اختصاصه بالمقام المحمود .... ص ٢٨٠
النسب الشريف .... ص ٢٨٣
عبد الله ـ عبد المطلب ـ هاشم .... ص ٢٨٦
عبد مناف ـ قصي .... ص ٢٩٤
الإسلام يبطل الحمس .... ص ٢٩٩
قصي يأمر قريشاً بإكرام الحجيج .... ص ٣٠١
النسب من جهة الأم .... ص ٣١٣
رد شبهة .... ص ٣١٤
فهرس المجلد السادس .... ص ٣١٦
صواب الخطأ .... ص ٣٢٠

صواب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٧	٦	مقبل	قبل
٧٠	١٠	وفبر	وقبر
٧١	الأخير	ابو بطالب	أبو طالب
١٠٣	٨	يستاقط	يتساقط
١٠٦	١٠	الدمبر	الدير
١٩٢	١٢	لانبى	لابنى
٢١٠	١٥	إذ	إذا

انتهى بحمد الله المجلد السادس ويليه بمشيئته تعالى المجلد السابع وأوله المولد النبوى الشريف